

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فِي حِلْمٍ مُّكْثُرٍ

الجزء الثاني والعشرون

الطبعة الأولى
دار التعليم العام - قرطاجنة

٦٦

الطبعة الأولى

دار التعليم العام

إهداء خاص من
kuwait.net
منتديات باكويت



وزارة التربية

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

(الجزء الثاني والمعرون)
للقصف الثاني الثانوي بالتعليم العام
وما في متناوله

تأليف

محمد محمد عبد الحليم الشيخ (مشرف)

محمد نصر مصطفى نمرة مصطفى كمال فتح الله الشيخ

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ

٢٠٠١ - ٢٠٠٠ م

حقوق التأليف والطبع والنشر محفوظة لوزارة التربية - قطاع البحوث التربوية والمناهج
إدارة المناهج

الطبعة الأولى ١٩٩٠ / ٨٩ م
١٩٩٣ / ٩٢ م
١٩٩٥ / ٩٤ م
١٩٩٩ / ٩٨ م
٢٠٠١ - ٢٠٠٢ م



إِنْدَاءٌ

يُرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آتَيْنَا مُكْرَرًا وَالَّذِينَ أَوْنَوْا الْعَلْمَ دَرَجَاتٍ

صدق الله العظيم

سورة الحجادة (١١)

- إلى ابنائنا الطلاب والطالبات الذين يتعلّقون إلى العلا
ـ متختفين من العلم سلماً إلى مجد أمتهم.

- إلى الأخوة المربين من المعلمات والملمعين الذين نعتز بعطائهم
ـ في سعيهم نحو تهذيب النقوس والعقول.

- إلى الذين لا تعرف الآثار سببلاً إلى نفوسهم من العاملين في
ـ الحقل التربوي توصيفاً وتأليها وتنويعها وتعديلها هكأنوا المثل
ـ والقدوة في تقديم الجهد والوقت: ليستمر ما قدموه زاداً
ـ لأبنائنا يكسّبهم عنفوان العلم وثبات الخطأ.

- إلى كل من ساهم في إعداد هذا الكتاب من الباحثين والكتابين
ـ والمخرجين والعاملين في الطباعة.

إلى كل هؤلاء نتقدم إدارة المناهج بخالص الشكر والتقدير،

الوكيل المساعد لشؤون البحوث التربوية والمناهج

عبد الله عصاف الحميد

مدير إدارة المناهج

عبد الله عصاف الحميد

محتوى الكتاب

الصفحة	الموضوع
٧	المقدمة
٩	من سورة الأحزاب
٨٧	سورة سبا
١٥٣	سورة فاطر
٢٠٣	سورة يس

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً وأشهد أن لا إله إلا الله جعل في السماء بروحاً، وجعل فيها راجحاً وقمراً مثراً، ونصل ونسلم على من أرسله الله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، وجعل له من لدنه سلطاناً نصيراً.

أما بعد :

فهذا تفسير للجزء الثاني والعشرين من كتاب الله الكريم، راعينا فيه الإيجاز بلا إخلال، والتفصيل عند الحاجة بلا إملال، مع الحرص على سهولة العرض، ووضوح العبارة، والالتزام بمنهج السلف الصالح في التفسير بالتأثر، فإن لم نجد فضي لغة العرب متنع للباحث الصبور، فإن القرآن نزل بلغة العرب كما قال تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْجَبْنَا إِلَيْكَ فُرْقَةً أَنَا عَرَبِيٌّ أَتَنْذِرُ أَمَّا الْقُرْآنُ وَمَنْ حَوْطَتْ وَتَنْذِرُ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا زَرِيبَ فِيهِ ۝ ﴾^(١)

نسأل الله أن يتغيل ما عينا هذا، ويحمله في حسانتنا، ويتجاوز برحمته عن سيئتنا، نسأله سبحانه أن يضع كاتبه وقارئه، ومن أعاده عليه. والحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

المؤلفون

(١) سورة الشورى / الآية ٧.

**سورة الأحزاب
مدنية وأياتها ثلات وسبعون**

نقدِيْم :

يقع في الجزء الحادى والعشرين ثلاثون آية من سورة الأحزاب، اشتملت على مطلع السورة الكريمة الذى وجَهَ الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ الْحَمْدُ - إلى الشات على التقوى، والإعراض عن طاعة الكافرين والمتافقين، واتباع ما يوحى إليه من ربه، والتوكيل عليه وحده، وتنفيذ منهج واحد، هو منهج الإسلام، فلما أن يكون الإنسان مسلماً أو غير مسلم، لأن طبيعة التكوين البشري . . أنه لا يمكن لإنسان أن يجمع بين اعتقادين في وقت واحد، فلا يسع قلب المرء الإيمان والكفر، أو الإيمان والتفاق معاً، لأن الإيمان إخلاص الربوبية والألوهية لله تعالى وحده.

كذلك . . لا تنصير الزوجة أبداً بالقطهار ولا يُصبح الشَّيْئُ ابنَ لَهْنَ تبناه، فهو ابن لأبه الحقيقي الذي أنجبه، وليس ابنَ لهْنَ ادعى بتبنته، فهذه الدعاوى الباطلة لا تغير من حقائق الاتهام الإنساني شيئاً.

ونقضى الآيات الكريمة، لنقرر أن التوارث بين المؤمنين أصبح عصوراً ومحضراً في ذوي الأرحام والآقارب، وفقاً لما جاء في آيات المواريث التي فصلت الحكامه في سورة «النَّاس».

وأن هناك ولادة عامة لرسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ الْحَمْدُ - على المؤمنين جيلاً، وبمقتضاهما يكون الله ورسوله أحب إليهم من كل ما سواهما حتى أنفسهم.

وأن أزواج الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ الْحَمْدُ - أميات للمؤمنين يمشاعرُهن وشفقتهن، ويستبع ذلك . . التعظيم والمحبة والإجلال لهن، وحرمة الزواج منهاهن.

وبعد ذلك . . تذكرة الآيات المؤمنين بنعمة الله عليهم، إذ ردّ عليهم كيد الأحزاب، وقوى الشر، وتكشف خفايا المافقين، وتوضيح غدر اليهود وبسمه

نوابا لهم ، وما أَلِإِلَهُ مِنْ حَرَامٍ غَدَرُهُمْ وَخَيَّأُتْهُمْ . . . كَمَا تُظْهِرُ حَدْقُ الْمُؤْمِنِينَ
وَثَاتُ مَوْقِفِهِمْ ، بِرَغْمِ الْأَهْوَالِ وَالْتَّوَازُلِ الَّتِي أَحَاطَتْهُمْ فِي غَرْوَنْ : الْأَحْزَاب^(١) ، وَسُبْحَانَ
قَرِيبَةَ ، وَيَا خَذِ الْحَدِيثَ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ شُوَطًا كَبِيرًا مِنَ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ^(٢) ، فِي سُرْدِ
الْوَقَائِعِ ، وَخَلْلِ الْمَوَاقِفِ وَتَبَعِ الشَّاعِرِ وَمَوَاقِفِ الْأَشْخَاصِ وَالْجَمَاعَاتِ ، وَالْكَثْفَ
عَنِ الصَّحِيحِ وَعَنِ الزَّانِفِ مِنِ الْقِيمِ . . . ، وَرَبِطَ هَذَا كُلُّهُ بِتَدْبِيرِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِرَادَتِهِ
وَلَطْفَهُ ، وَرَعَايَةِ الْعَظِيمِ لِلْمُعْمَلِينَ .

**﴿ وَرَدَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْرِهِمْ لَرَبَّنَّا خَيْرًا وَسَكَنَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْفَتَّالَ
وَسَكَانَ اللَّهُ قَوْيًا عَزِيزًا ﴾^(٣)**

وَسُبْحَانَ ، بَعْدَ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ . . . أَفْرَ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ - ﷺ - بِتَخْبِيرِ أَزْوَاجِهِ بَيْنَ
أَمْرَيْنِ . . . مَنَعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، أَوْ إِيَّاكَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالدَّارُ الْآخِرَةِ ، وَقَدْ كُنْ طَالِبَهُ
بِالتَّوْسِعَةِ عَلَيْهِنَّ فِي النَّفَقَةِ - فَاخْتَرُوكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالدَّارُ الْآخِرَةِ ، وَنَظَرُوكُمْ فِي زَرْبَنِ مِنْ
الرَّسُولِ وَشَرْفِ مَرْزُلَتِهِنَّ ، جَعَلَ اللَّهُ عَقَابَ مَعْصِيَتِهِنَّ مُضَاعِفًا .

**﴿ بَنِيَّةَ الَّتِي مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ يُفَجِّرُهُ مُبِينًا يُضْعَفُ لَمَّا الْعَذَابُ
يُضْعَفُونَ وَسَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾^(٤)**

وَهَذِهِ الْآيَاتُ خَاتَمَةُ لِلْجَزْءِ السَّابِقِ . . . *

(١) الَّتِي سَبَّتِ الْمُرْسَلَةَ بِأَسْهَابِهَا ، لَأَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَزُورُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ .

(٢) مِنَ الْآيَةِ ٩ إِلَى الْآيَةِ ٢٥

(٣) سُرْرَةُ الْأَحْزَابِ الْآيَةِ ٢٥

(٤) سُرْرَةُ الْأَحْزَابِ الْآيَةِ ٣٠

وكانت المتابعة بين الآيات الكريمة التي اختم بها الجزء السابق ، والآيات التي افتح بها الجزء الثاني والعشرون . . . استمرار الحديث عن نساء النبي ، حيث فضلهن الله على سائر النساء ، وخصهن برباع المزيلة ، وخلو الدرجة ، وذلك . . . كان جزاء مسيتهن مضاعفا ، وثواب طاعتهن مضاعف أيضا ، وهن قدوة لغيرهن من النساء في الآداب حين مخاطبتهن للرجال الأجانب عنهن ، وعلم خروجهن من البيت إلا لضرورة ، ودوس طاعتهن لله رسوله في كل أمر أوضعي . . . ويعقب ذلك . . . ما أعد الله من الأجر والكرامة لكافة المؤمنين والمؤمنات .

ونقض آيات سورة الأحزاب لشير إلى تزويع زيد بن حارثة مولى رسول الله - ﷺ - من زينب بنت حصن الحائمة القرية ، وما تعلق بهذا الزواج من ود الأمر كله له ولرسوله ، وإبطال آثار النبي بطلاق زينب من زيد ، وزواجهها من رسول الله - ﷺ - ثم توسيع حقيقة علاقته - ﷺ - بالمؤمنين ، وتوجيهه للإعراض عن افتراءات الكافرين والمنافقين .

ثم يأتي الحديث عن حكم المطلقات قبل الدخول بهن ، وبيان بعض المخصوصيات للحياة الزوجية لرسول الله - ﷺ - وما يحجب على المسلمين نحو بيت النسوة من الآداب الإسلامية ، ونفيه الحجاب وعدم الاختلاط ، وأداب الدهوة لتناول الطعام ، وجزاء من يؤذى رسول الله - ﷺ - في أهل بيته ومساعره ، وإرشاده إلى الصلاة والسلام عليه ، وعدم إيداته أو إيداه المؤمنين ، وكذلك . . أمر النساء بتر أجسامهن بالجلابيب ، حفاظا على أنفسهن ، وصونا لعفافهن .

كما تُظهر بعض الآيات أوصاف المنافقين من واقع سلوكهم ، وتهدي بالغراء الرسول - ﷺ - بخارجهم من المدينة وطردهم منها ، لأنهم ملعونون أينما ثقروا ، وهذا إرشاد للأئمة في كيفية معاملة هذه الطائفة من الناس .

ويُضفي من آيات السورة الكريمة ما يشير إلى أمور ثلاثة :

* سؤال بعض الناس عن الساحة ، مع إجابة فيها تلويع ي أنها قد تكون قرية ، ثم عرض لصورة من جزاء الكافرين ، وشروع الشياع والشروعين ، فكل منهم

- يلقى التبعية على الآخر، ولكنهم في العذاب المهني سواء .
- * توجيه المسلمين إلى تقدير الرسول - ﷺ - وعدم إيداعه - كما فعل بنو إسرائيل مع نبيهم (موسى) عليه السلام ، وإلى تقوى الله وطاعته ، وقول الصواب ، مع ثواب من يعتذر ذلك . . .
 - * بيان أن أعباء التكاليف الشرعية واتباع الآداب الإسلامية ليس أمرًا علينا ، ولكنها أمانة أشفقت من حلها السموات والأرضون ، ورضا الإيمان بحملها ، وعلىه يقع جزاء التغريب فيها ، فinal المشركون والمنافقون عذاب خباتهم هنا ، وثواب المؤمنون على تحملهم هنا ، والبقاء بالتراماتها .

* * *

١ من الآية (٣٤) إلى الآية (٣١) من سورة الأحزاب

وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنْ لِلَّهِ
 وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَلِحًا ثُوَّبَ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَاعْتَدَنَا لَهَا
 رِزْقًا كَرِيمًا ③١٧ يَنْسَاءُ النَّبِيِّ لَسْنَ كَالْحَدِيدِ مِنَ النِّسَاءِ
 إِنْ أَتَقْنَتْ فَلَا تَخْضُنَ بِالْقَوْلِ فَبَطَّمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ
 مَرْضٌ وَقَلَنْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ③١٨ وَقَرْنَ فِي بَيْوِتِكُنْ وَلَا
 تَبْرُجَنْ تَبْرُجَ الْجَنِيلِيَّةِ الْأَوَّلِيَّةِ وَأَقْنَنْ الصَّلَوةَ وَأَتَيْنَ
 الْأَرْكَوَةَ وَأَطْعَنَنْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ
 عَنْكُنْ الْرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ كُنْ تَطَهِيرًا ③١٩
 وَأَذْكُرَنَ مَا يُتَلَقَّى فِي بَيْوِتِكُنْ مِنْ هَائِبَتِ اللَّهِ وَالْمِنْجَةِ
 إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَيْرًا ③٢٠

[معاني الكلمات والجمل]

وَمَنْ يَقْنُتْ : يواظِبُ عَلَى الطَّاعَةِ، وَيَدَوِمُ عَلَيْهَا خَاشِعاً خَاصِّاً
 لِرَبِّهِ.

وتعمل صالحًا	: تكون أعمى لها كلها صالحة لا تشوهها معصية.
نوتها أجرها مرتبين	: مرة على التزامها الطاعة، ومرة على ترجيحها رضا الله
وأعتقدنا لها رزقاً كريماً	: ورسوله على زخارف الدنيا.
لئنْ كاحد من النساء	: هيأنا لها في الجنة، وأهدنا لها زيادة على أجرها رزقاً
فلا تخضعن بالقول	: حنا مرضياً لا يعلم مقداره إلا الله تعالى.
في قلبه مرض	: قدرُكَنْ عندى أفضل من قدر غيرك من النساء
وقلن قولًا معروفاً	: الصالحات.
أقمِن الصلاة	: إن داومتن على مراعاة أعلى منازل النقوي.
الرجس	: لا يعكن في صوتكن مبوعة وطراوة مع الرجال
واذْكُرْنَ في بيونكن	: الأجانب عنك.
ولا تبرجن تبرج	: حب الفجور والريبة.
الجاهلية الأولى	: كلاماً معتدلاً عفيفاً لا مبوعة فيه.
أهل البيت	: اجعلُنَّ الأصل في حياتك لكت في البيت.
واذْكُرْنَ ما يتل	: لا تُظہرنَ الزينة والمحاسن الواجب سترها مثل نساء
في بيونكن	: الجاهلية الأولى فيما قبل الإسلام.
آيات الله	: حافظن على أدائهم.
الحكمة	: الذنب أو الفعل القبيح الذي يدنس صاحب
	: بالقدر.
	: أهل بيت النبي - <small>صلوات الله عليه وآله وسلامه</small> .
	: وتدْكُرْنَ ما يتل في بيونكن واعملنَ به..
	: القرآن الكريم.
	: هديَّ النبوة، أو أحكام القرآن الكريم.

[الإيضاح]

طاعة نساء النبي مضاعفة الأجر:

شرف الله تعالى نساء النبي حين خاطبهن في الآية السابقة، وأعلمهن أنهن مقاماً كريماً، فهن أمهات المؤمنين، وهذا الشرف يقتضي أن الذنب الذي يقع منها يكون أفعى شناعة مما يقع من غيرهن، ويكون عقابه ضعيفاً - وهذا على سيل الافتراض إعلاه لقدر بيت النبوة وساكتيه - وكما أن العذاب يكون مضاعفاً، فاجر الطاعة وثوابها يكون ضعيفاً بدوام الخشوع والخضوع، والمواظبة على العمل الصالح، ومن تفعل منهن ذلك . . . يزتها الله أجراها مرتين، لأنهن أطعن الله ورسوله، وذاومن على هذه الطاعة، وأشارن الله ورسوله على متاع الدنيا وزخارفها، فإذا كان أجراً غيرهن يضاعف إلى عشر مرات، فأجرهن يضاعف إلى العشرين، وفوق هذا الأجر، أعد الله لهن في الجنة نعيها مقيناً، ورزقاً كريماً لا يعلم مقداره إلا الله تعالى .

فضيلة نساء النبي على غيرهن من النساء:

لا يزال فضل الله تعالى على نساء النبي - بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - بتابع في الآيات الكريمة، لأنهن أفضل وأشرف منزلة من غيرهن من النساء، وقدرُهن عند الله أعلى وأكرم على نساء العالمين، فلما كُلّ واحدة منهن كواحدة من نساء الصالحات، ولأنَّ جمعها كجامعة واحدة من جماعات النساء، لأنهن زوجات حير المسلمين، وفي مقام القدوة الحسنة، ومن حلقة الهدى النبوى للإمامية الإسلامية، فعليهن واجبات في معاملة الناس، وتکاليف في عبادة الله، وواجبات في بيوتهن، لأنهن مختلفن منزلة، وكرامة، وشرف، وفضل عن غيرهن، بشرط الدائمة على مراعاة أعلى درجات التقوى - تكريماً للرسول - بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - وبعد الصدق الناس به عما يروه . بتابع الأدب الريانى الذي خصهن الله به، فإن الأكرم عند الله تعالى هو التقوى . وما دام فضلُكن كذلك . **وَلَا تَحْضُرُنَّ بِالْقَوْلِ هُنَّ إِذَا خَاطَبْتُنَّ الرِّجَالَ**

الاجاب عنكـنـ . فلا يكـنـ في صوتـكـنـ رقة ولـنـ ومبـعـة وطـراـة ، تـطـمع صـاحـبـ
الـقـلـبـ الـمـرـيـضـ بـالـفـسـقـ وـالـفـجـورـ ، وـلـيـكـنـ كـلـامـكـنـ حـسـناـ عـفـيـفاـ مـعـتـدـلاـ ، لـبـسـ فـيهـ
ذـلـكـ الـخـضـرـعـ الـلـيـنـ الـذـيـ بـهـيـجـ دـعـائـ الطـاعـمـيـنـ . وـكـانـتـ الـعـرـبـ تـعـدـ مـنـ مـحـاسـنـ
خـصـالـ الـمـرـأـةـ أـنـ يـتـرـهـ صـوـتـهـ عـنـ ذـلـكـ لـغـرـ الزـوـجـ . وـالـأـدـبـ الـإـسـلـامـيـ يـحـذرـ مـنـ هـذـاـ
أـمـهـاتـ الـمـؤـمـنـيـنـ وـهـنـ الطـاهـرـاتـ الـعـفـيـفـاتـ فـيـ القـوـلـ وـالـفـعـلـ . وـفـيـ زـمـانـ يـعـتـمـدـ خـيرـ
الـأـرـمـةـ ، وـلـكـنـ الـإـرـشـادـ وـالـتـعـلـيمـ الـإـلـمـيـ . . . الـذـيـ يـدـلـ عـلـىـ مـنـعـ السـيـبـاتـ بـالـنـعـيـ
عـنـ الـأـسـابـ . . . فـيـ كـلـ مـجـتمـعـ وـمـعـ كـلـ اـمـرـأـةـ ، وـالـبـعـدـ عـنـ مـوـاطـنـ الـرـبـةـ ، وـتـزـقـ
الـطـاعـمـيـنـ ، وـبـخـاصـةـ فـيـ عـصـرـنـاـ الـمـرـيـضـ الـخـابـطـ ، الـذـيـ تـبـيـعـ فـيـ الـغـرـائـزـ بـالـوـسـائـلـ
الـخـابـطـةـ ، وـالـإـسـلـامـ مـنـهـاـ وـمـنـ قـاعـلـيـهـاـ بـرـاءـ .

الأمر يحسن الفعل بعد الأمر يحسن القول :

ويـانـ تـعـلـيمـهـنـ الـخـيـرـ مـنـ الفـعـلـ بـعـدـ أـنـ أـمـرـهـنـ أـنـ يـكـونـ قـوـهـنـ فـيـ أـمـرـهـ
مـعـرـوفـةـ غـيـرـ مـنـكـرـةـ ، فـأـمـرـهـنـ بـالـفـرـارـ فـيـ بـيـوـتـهـنـ ، وـمـثـلـهـنـ فـيـ ذـلـكـ مـثـلـ سـائـرـ نـسـاءـ
الـمـؤـمـنـيـنـ ، يـدـلـيلـ ماـ جـاءـ فـيـ الصـحـيـحـ عـنـ رـسـوـلـ اللهـ . . . يـقـيـقـةـ . قـوـلـهـ لـلـنـسـاءـ عـنـدـمـاـ قـلـنـ
لـهـ : يـاـ رـسـوـلـ اللهـ ذـهـبـ الرـجـالـ بـفـضـلـ الـجـهـادـ فـيـ سـبـيلـ اللهـ فـهـلـ لـنـاـ عـمـلـ نـذـرـكـ بـهـ
فـضـلـ الـمـجـاهـدـيـنـ ؟ فـقـالـ يـقـيـقـةـ : «ـمـنـ قـعـدـتـ مـنـكـنـ فـيـ بـيـتـهـ تـرـعـيـ شـنـونـ زـوـجـهـاـ
وـوـلـدـهـاـ فـلـهـاـ أـجـرـ الـمـجـاهـدـيـنـ » . . .

وـالـأـمـرـ بـالـقـرـارـ وـالـاسـتـغـارـ فـيـ الـبـيـتـ تـوجـيهـ إـلـهـيـ ، لـيـكـونـ هـوـ الـأـصـلـ فـيـ حـيـاةـ
الـمـرـأـةـ . . . رـبـةـ الـبـيـتـ ، وـصـانـعـةـ الرـجـالـ . . . فـحـنـانـ الـبـيـتـ لـاـ يـكـونـ بـغـيرـ اـمـ ، وـسـعادـةـ
الـزـوـجـ لـاـ تـأـتـيـ إـلـاـ مـنـ تـكـونـ سـكـنـاـ لـزـوـجـهـاـ . . . تـرـعـيـ شـائـهـ ، وـتـرـبـيـ وـلـدـهـ ، وـتـعـفـظـ
سـرـهـ ، وـتـشارـكـهـ أـلـهـ وـفـرـحـهـ ، وـتـشـدـ أـزـرـهـ . . . ، وـالـحـرـمانـ مـنـ هـذـاـ كـلـهـ وـبـالـ عـلـ الـأـسـرـةـ
وـالـمـجـتمـعـ ، وـمـنـ هـنـاـ . . . كـانـتـ هـذـهـ مـهـمـةـ الـمـرـأـةـ الـحـقـيقـيـةـ ، وـعـلـ الرـجـلـ مـهـمـاتـ

آخر، ليضمن لها الحياة الكريمة، والعيش المرضى، بسعده وকده، لتصرخ هي لما
أعدها الله له، في رعاية شئون أسرتها غير مكرودة بالعمل خارج البيت، وغير
مرتبطة بالتراثات المهنية وأعباءها . . . ثم تأتي إلى بيتها وقد استقدمت كل طاقتها
ومعها راحة الأسرة واستقرارها، من أجل ذلك . . . أمر الله نساء رسوله ونساء
المؤمنين معهن أن يقرن في المقر الذي ارتضاه الله لهن، ولا يخرجن إلا لضرورة
بحيرتها الشرع ويسمع بها، كالخروج للحج، وزيارة الوالدين، وعبادة المرضى،
وتغزية الأقارب، والعلاج، والعمل الذي لا غنى عنه لهن، أو لا غنى للمجتمع
عنه، شريطة أن يكون العمل متاسماً لهن.

وفي صورة الحاجة وقدرها . . . تخرج المرأة بعد الاستدان، وهي في ستر
ملابسها، واعتدال في مشيتها، ويعُد عن التبرج في زيتها، فإن الرجل الذي يقبل
أن تفعل زوجه غير ذلك تبرأ الزوجة منه، وتنأى عنه النحوة والمرودة.

والترجع المنهى عنه كما يقول بعض المفسرين: أن تلقي المرأة الخمار عن
رأسها ولا تشد . . . ليداري قلائدتها وقرطها وعنقها، فيبدو ذلك كله منها . . .
وهذه الصورة المنهى عنها تفتح عقولنا على شاعة ما نراه في عصرنا الحاضر مقارنة
بالحالية الأولى التي كانت قبل الإسلام حين كانت تخرج المرأة، ونظهر عيوبها في
الطرقات لكل ناظر، متيخرة في مشيتها، مسفة بصدرها لا يواريه شيء، مقطورة
عنقها وذواب شعرها، وقرط أذنها . . . وضع وجود هذه الحالة في أي مجتمع تكون
الحالية، ووضمة العار، وفحش التبرج . . .، ولذلك أمر الله تعالى المؤمنات أن
يَسْتَعْنِنَّ في هباتهن وأحوالهن، صوناً لعفافهن، وحافظاً على مكانتهن . . . وأول
من يمثل ذلك . . . نساء النبي - يحيى - وهن العاهرات العقيقات، فغيرهن أولى
بهذا الأمر وأشد إلحاداً.

إرشادهن إلى ما يساعد على التقوى:

ثم ربط الله قلوبهن بحالتهن في تكاليف شرعية، تحملت في أهم أركان

الدين، «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ» حسنة باهله تعالى، وتطهيرها للقلوب، وتربيتها للنفوس، «وَاتِّنِ الزَّكَاةَ»، حفنا معلوماً لمن يستحقها، وشكراً لواهب النعم، ومظهراً كريماً للنكافل والإخاء، «أَوْ أَطْعُنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» في كل أمر أو نهى.

إنها طهارة للنفس في الصلاة، وطهارة للمال في الزكاة، وطهارة للسلوك في طاعة الله ورسوله، وطهارة تجل في العبادة والفنون، ليذهب الله عنك يا أهل بيته النبوة كل نقص، ويبعد عنك قدر المعصية، ودنس الآثام، ورجس الفرق والفحور . . . الذي يشين أصحاب الذنب والمعاصي، ويظهركم من ذلك كله تطهيراً عظياً، تكريماً ونشريفاً لأهل بيته النبوي - صلوات الله عليه - والمراد باليت . . . بيته سكته - صلوات الله عليه - لا بيته القرابة والنسب، فالمراد بأهله تساوى الطاهرات أمهات المؤمنين، للقرائن الدالة على ذلك من سابق الكلام ولا حقه، قال ذلك ابن عباس وعروة بن الزبير وعكرمة وغيرهم، وجاء الكلام بضمير المذكر في . . . «عنكم»، و«يظهركم» مراعاة للفظ [أهل]، والعرب تحمل ضميرة مذكراً. انظر خطابه سبحانه - لسارة زوج إبراهيم عليه السلام :

﴿ قَالُوا أَنْجِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾

وإنها أفرد البيت مع أن لكل واحدة بيته، لأنها بالنسبة له - صلوات الله عليه - بيته واحد، فهو واحد بالنسبة له - صلوات الله عليه - ومتعدد بالنسبة لكل واحدة. أما الله - صلوات الله عليه - الذين تحرم عليهم الزكاة فهم مؤمنو ببني هاشم وبني المطلب.

الله تعالى يذكر نساء النبي - ﷺ - بـ *بيان بيتهن مهابط للروح* :

ثم بين ما أنعم الله به عليهن من أن بيتهن مهابط للروح ، ليذكُرُهن بعلو مكانتهن ، وامتيازهن على النساء ، بغيرهن من رسول الله - ﷺ - وجعل بيتهن مكاناً تدل فيه آيات الله وما ينزل على الرسول من أحكام الدين ، وشرائع الإسلام ، والحكمة التي ينطق بها المُهدي النبوى ، وبهذا يُعرِفُنَّ قدر نعمة الله عليهن ، حيث جعلهن في بيت النبوة ، وقد خُصْصُنَّ بنزل الروح في بيتهن دون سائر الناس ، وهذا يوجب الحرص على كمال الطاعة ، ومنْ كان هذا حاله يتبعى أن تحسن أفعاله وأقواله ، وبخاصة إذا كان في مكان القدوة لغيره من الناس .

ومن لطيف صنع الله بكن ، أن جعلنَّ في بيت النبوة الذي تدل فيه آيات الله ، وهو بكن خبر ، إذ اختارنَّ أزواجاً لرسوله ، وهذه نعمة لا يُعدُّها أي نعيم ، بل تضاهي أمامها الحياة الدنيا بمتاعها وزخارفها ، تذَكَّرنَّ كل ذلك ... لتدركن مدى هذا التكريم العظيم .

* * *

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ
 وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ
 وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَيْرِينَ
 وَالْخَيْرَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّابِرِينَ
 وَالصَّابِرَاتِ وَالْمُتَحَفِظِينَ فُرُوجُهُمْ وَالْمَحْفَظَاتِ
 وَالْمَذَكُورِينَ اللَّهُ أَكْبَرُ وَالْمَذَكُورَاتُ أَعْدَ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً ﴾

واحزا عظيمما (٣٥)

[معاني الكلمات والجمل]

- القانتين : المواطنين على الطاعات في حلمانية.
- الخائسين : التواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم في سكون.
- المتصدقين : المنفقين بعض أموالهم للمحتاجين.
- الحافظين فروجهم : المتعففين عن الرزق.

الإيضاح

مقومات الشخصية المسلمة :

شم أراد سبحانه وتعالى أن يبيّن مقومات الشخصية المسلمة، والتي تتكامل

في تكوينها، لتسعد برضوان الله ومغفرته، يسوى في ذلك الرجال . . . ، والئام سواه كن من أزواجها - ^{يَعْلَمُ} - أو من غيرهن .

في الإسلام تنقاد نفس المؤمن لاحكام الله في القول والعمل، وبالإيمان يستقر في القلب التصديق بكل ما أخبر به الله عز وجل ، ويعاون الانقياد والتصديق في تحقيق المداومة على الطاعة في طمأنينة وقوت ، ومن علامات الإيمان الصدق النابع عن التصديق فإن الكذب من أمرات النفاق ، والصدق في كل شيء يلزم منه الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية، ويدفعه هذا إلى الخشوع والتواضع لله تعالى بقلبه وجوارحه طمعا في ثواب الله ورحمته وخوفا من عذابه، ولذلك . . . فهو يدفع الشح عن نفسه، ويظهر ماله بالزكاة والصدقة، لإشعار المحتاجين بالرحمة، وكما أن الصدقة زكاة وتطهير للمال، فإن الصوم زكاة للبدن، وتطهير له من الأخلاق الرديئة في طبعه وإرادته، وكيع جماع شهوة، وعنون على حفظ الفروج من المحارم والأثام .

وبالتسليم لله ، والإيمان بالله ، والقتول لله ، والصدق مع الله ، والصبر في طاعة الله ، والخشوع لله ، والتصدق من مال الله ، والصوم مع مراقبة الله ، وحفظ الفروج تنفيذاً لنهي الله . . . بهذا كله . . . تخيا النفس المسلمة في كل حال مع الله ، وتعيش ذاتها على ذكر الله ، ويدركها عون الله ، في مسيرة العمر ، وهي جادة تنفي نقبة في عملها ، مستمرة بخلاله في كل لحظة ، فلا ينفصل عنها في خاطر أو حرقة تفارقها كإشراف الذكر ، وبشاشة العين . (أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَعَظِّمَهُ الْقُلُوبُ^(١)) ولقد أعد الله تعالى لمن يمتنع بهذه الأوصاف أعظم الأجر ، ووافر الثواب ، فعنهم - سبحانه - مغفرته ، وعفا عن ذنوبهم ، وأثابهم الأجر العظيم .

روى الإمام أحمد عن سهيل بن معاذ الجوني عن أبيه عن رسول الله - ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} - قال : «إن رجلا سأله فقال : أي المجاهدين أعظم أجرا يا رسول الله؟ قال ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} : أكثرهم الله تعالى ذكرا ، قال : فما الصائمين أكثر لجرا؟ قال ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} : أكثرهم الله تعالى ذكرا ، ثم ذكر الصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصدقة ، كل ذلك يقول رسول الله

(١) سورة الرعد الآية ٢٨.

يَقُولُ : أَكْثَرُهُمْ لَهُ ذِكْرًا ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُصْرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : ذَهَبَ الْذَاكِرُونَ بِكُلِّ
خَيْرٍ ، فَقَالَ يَقُولُ : أَجَلٌ .

وَرَوَى أَنَّ بَعْضَ النِّسَاءِ شَكَوْنَ إِلَى رَسُولِ - يَقُولُ - أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ لِلرِّجَالِ ،
وَأَنَّ النِّسَاءَ لَا يُذَكَّرُنَّ بِشَيْءٍ . فَتَرَكَتْ هَذَا الْآيَةَ .

وَلَقَدْ عَمِّتَ الْآيَةُ الْحَدِيثَ عَنْ صِفَاتِ الْمُسْلِمِ وَالْمُسْلِمَةِ ، وَمِقْرَنَاتِ
شَخْصِيهِما ، بَعْدَ مَا خَصَّ اللَّهُ تَعَالَى نِسَاءَ النَّبِيِّ - يَقُولُ - بِالْخُطَابِ ، وَوَجْهِهِ طَنَّ
الْحَدِيثَ ، كَمَا ذُكِرَتِ الْمَرْأَةُ بِجَانِبِ الرَّجُلِ ، لِأَنَّهَا فِي أَعْمَالِ الإِسْلَامِ ، وَنِكَالِيفِ
الْعِقِيلَةِ ، وَالْخُلُقِ الْقَوِيمِ سَوَاءً .

٣ من الآية (٣٦) إلى الآية (٤٠) من سورة الأحزاب

» وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَا مُؤْمِنَةٌ إِذَا قُضِيَ
 أَنَّهُ رَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمْ آنِيَةٌ مِّنْ أَمْرِهِمْ
 وَمَن يَعْصِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ⑥
 وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْيَنَ
 عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَآتَيْتَ اللَّهَ وَنَحْنُ فِي نَفْسِكَ مَا أَنْعَمْتَ
 وَنَحْنُ نَحْنُ أَنَّا أَنْعَمْنَاكُمْ فَلَمَّا قَضَيْنَا زِيدًا مِّنْهَا
 وَطَرَأَ زَوْجٌ عَلَى لَكَ لَا يَكُونُ عَلَى الْعُزَمَاءِ حَرْجٌ
 فِي أَزْوَاجِ أَذِيَّعَاءِ إِيمَانٍ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرَأَ وَكَانَ أَمْرُ
 اللَّهِ مَفْعُولاً ⑦ مَا كَانَ عَلَى النَّجِوَاءِ مِنْ حَرْجٍ فَبِمَا فَرَضَ
 اللَّهُ لَهُ مُسْتَأْنِدٌ مُّسْتَأْنِدٌ فِي الَّذِينَ خَلُوا مِنْ قَبْلٍ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ
 قَدْرًا مَقْدُورًا ⑧ الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَتِ اللَّهِ وَيَخْتَنُونَهُ
 وَلَا يَعْشُونَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهُ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ⑨

مَا كَانَ مُحَمَّدًا أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ
وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ يَعْلَمُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ۝ ۴

[معاني الكلمات والجمل]

ما كان لمؤمن ولا مومنة : ما يتبعى ولا يخل لاي مؤمن ولا لاي مومنة.
 إذا فضى الله ورسوله أمر : إذا أراد الله تنفيذ أمر على يد رسوله أو لسانه.
 أن يكون لهم الخيرة : أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا.
 الذي أنعم الله عليه : بالهدىة إلى الإسلام (وهو زيد بن حارثة بن
 ثرحبيل)

وأنعمت عليه : وفضلت عليه بالعتق ونيل الحرية والتربية الحسنة.
 امسك زوجتك (زینب) في عصمتك ولا تطلقها : امسك زوجتك (زینب) في عصمتك ولا تطلقها.
 في أمرها ، ولا تطلقها لأنك متضرر منها : في أمرها ، ولا تطلقها لأنك متضرر منها.
 وتخفي في نفسك ما أوحاه الله إليك من تشريع : وتخفي في نفسك ما أوحاه الله إليك من تشريع.
 الزوج من زوج الابن بالتبني : الزوج من زوج الابن بالتبني.
 تخاف من تشريع المخالفين وقوفهم : إن محسداً تزوج زوجة متبناه.

قضى زيد منها وطرا : لم يبق له بها حاجة ، وطابت عنها نفسه فطلقها.
 حرج : ضيق أو إشم أو شفقة ، والمراد أنه لا سرح فيها شرع
 الله تعالى .

في أزواج ادعائهم : في التزوج بزوجات ادعائهم بالتبني.
 وكان أمر الله نافذاً لا محالة : وكان أمر الله نافذاً لا محالة.
 فيما فرض الله له : فيما جعله نصباً حلالاً.

سُنَّةُ اللهِ فِي التَّوْسِعَةِ عَلَيْكَ كَتَهُ مَعَ الْأَئِمَّهِ
 خَلُوا مِنْ قَبْلِ
 الْأَبْقَى .
 قَدْرًا مَقْدُورًا
 لَا يَخْافُونَ أَحَدًا إِلَّا اللهُ
 حَسْبًا
 أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ
 وَخَاتَمِ النَّبِيِّنَ

الإِيْضَاحُ

الاختيار ليس بيد الإنسان في كل شيء:

سُنَّةُ أَنْ خَيْرُ رَسُولِ اللهِ - بِيَكِيرٍ - نَاسَةُ بَيْنَ الْفَيَاءِ مَعَهُ أَوْ تَرْكُهُنَّ سَرَاحًا
 جِيلًا، وَاعْطَى هُنَّ فِي هَذِهِ الْمَسَأَةِ حُرْيَةَ الْأَخْتِيَارِ فَأَثْرَى اللهُ وَرَسُولُهُ لَكُنْ هُنَّكُمْ أَمْرٌ
 لَا يَصْحُ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ فِيهَا الْخَيْرَةُ وَالْأَخْتِيَارُ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا وَجَبَ اتِّبَاعُهُ
 وَتَنْفِيذُهُ، وَلَا أَخْتِيَارٌ فِي لَغْيِرِ مَا اخْتَارَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَمِنْ بَخَالَفِ ذَلِكَ . . . وَيَعْصُ
 إِرَادَةَ اللهِ وَأَمْرَ الرَّسُولِ الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهُوَى - فَقَدْ حَادَ عَنِ الْصَّوَابِ، وَبَعْدَ عَنِ
 سَبِيلِ الرِّشَادِ، وَوَقَعَ فِي طَرِيقِ الْهَلاَكِ، وَفِي هَذَا مِنَ التَّهْدِيدِ مَا يُوَكِّدُ وَجُوبَ اتِّبَاعِ
 أَمْرِ اللهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ بِيَكِيرٍ، وَلَيْسَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَمْرِهِمْ أَنْ يَخْتَارُوا مَا يَرِيدُونَ، لَأَنَّ
 اللهَ حَكْمُهُ، وَعَلَى لِسانِ رَسُولِهِ أَمْرٌ، وَمِنْ خَالِفِهَا فَقَدْ فَلَلَّا مِنَّا .

وَالْأَمْرُ فِيهَا عَامٌ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُؤْمِنَةٍ . . . فِي الرِّضا بِحُكْمِ اللهِ وَإِرَادَتِهِ،
 فِيهَا يَرِيدُهُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ، وَمَا يَخْتَارُهُ لَا بَدَ أَنْ يَفْعُمُ، وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ أَنْ
 يَعْمَلُنَّ خَمْرَهُمْ إِلَى قَدْرِ اللهِ، وَإِنْ تَسْتَقِيمْ قُلُوبُهُمْ عَلَى هُدَى اللهِ، فَلَنْ يَكُونُ فِي
 الْوُجُودِ أَمْرٌ إِلَّا وَفَقَدْ مَنْظَاهُ .

روى أن رسول الله - بِيَكِيرٍ - خطب زينت بنت جحش ، وكانت بنت عمته ،

فظنَتْ أَنَّهُ خَطَبَهَا لِنَفْسِهِ، فَلَمَّا تَبَيَّنَتْ أَنَّهُ بِرِيدَهَا مُولاً، زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، كَرِهَتْ وَابْنَهُ وَامْتَنَعَتْ، وَامْتَنَعَ أَخْوَهَا عَبْدُ اللَّهِ، . . . وَذَلِكَ لِتَبَاهِي مِنْ قَرِيشٍ، وَإِنَّ زَيْدًا كَانَ بِالْأَمْنِ عَبْدًا، إِلَى أَنْ نَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ، فَقَالَ أَخْوَهَا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَرْتَنِي
بِهَا شَتَّتْ، فَزَوَّجَهَا مِنْ زِيَّدَ، وَسَاقَ إِلَيْهَا مَهْرَهَا سَبْعَ دِرْهَمًا، وَعَمَارًا، وَمِلْحَفَةً،
وَدَرْعًا، وَإِزارًا، وَخَيْرَ مَا مَدَّ مِنْ طَعَامٍ، وَنِلَاتٍ صَاعَانِ مِنْ قَمَرٍ. (١) فَإِنَّهَا كَانَ يَتَبَغِي
لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ، وَلَا لِزَيْبَ بْنَ جَحْشٍ أَنْ يَخْتَارَا مِنْ أَمْرِهِمَا مَا شَاءَا، إِلَّا
يَجِبُ عَلَيْهِمَا إِلَازْعَانٌ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَمْرِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قصة زيد بن حارثة مع زينب بنت جحش:

* تم زواج زينب من زيد تنفيذاً لأمر الله ورسوله، ولم يُبال النبي - ص - بامتناع
زينب ورغبتها عن زيد، وهي القرشية الشريفة، ولم يكن من عادة العرب زواج
بنات الأشراف من الموالى، حتى وإن اعتاقهم، فلم تعاشر زيداً معاشرة
حسنة، وكانت له كارهة، وعليه متعلقة، لأنها تعلم أنه كان من سبئي الجاهليين،
سبَّتْ جماعة من عمامة وهو صبيٌّ، فاشترأه حكيم بن حزام، وروبه لعمته خديجة
بنت خوريبلد . . . التي وهبته لرسول الله - ص - فكان عملاً عنده إلى أن اعتقه
وبياته، وأخذق عليه عطفه ورعايته، وصار حباً له، وزوجة ابنة عمته.

وكانت العرب تعطي الابن بالتبني جميع حقوق الابن من الصلب،
ويتعاملون معه على أنه يرث، ولو حرمات النسب، فازداد الله تعالى أن يزيد ما
رسخ في النفوس، واستقر في عرف المجتمع الجاهلي، وصار عادة متصلة فيه،
وبخاصة أنه لا يجوز للمتبني أن يتزوج زوجة المتبنى . . . وتحمل الرسول - ص - تبعه
هذا التشريع الإلهي، وإلغاء هذه التقاليد الموروثة . . . كما الغي من قبل ذلك
بنوة زيد له، وبعد أن كان يقال له: زيد بن محمد . . . أصبح يقال له: زيد بن
حارثة باسم أبيه الحقيقي، تنفيذاً لأمر الله تعالى حين قال: «أَدْعُوكُمْ لِأَبَاءِكُمْ
هُوَ أَقْطَعٌ عِنْدَ اللَّهِ» فلما نزع منه هذا الشرف، وعلم الله وحشه، شرقه بأن صار

(١) نمير المأفن

اسمه قرأتنا يتل في المحاريب، يتلوه أهل الدنيا إذا قرأوا القرآن، ويتلوا أهل الجنة، وهو في الصحف المطهرة التي مع الملائكة البررة.

* كان زيد بن حارثة عزيز النفس بهذا التكريم الإلهي ، فلقد أنعم الله عليه بالإيمان ، وشرفه بذكر اسمه في القرآن ، وأنعم عليه الرسول - ﷺ - بالعتق وإعطائه حرثته ، ورباه تربية حسنة ، وخصه بحبه ، واختار له زينب زوجا له . . . ولكنها تعالت عليه بالرغم من ذلك ، وجعلت تفخر عليه ببنها ، وتعجب عليه أنه كان عبداً رقيقاً ، وتشتكى زيد منها مراراً لرسول الله - ﷺ ، وفي كل مرة يوصيه بها خيراً ، وبيان يمسكها ولا يطلقها ، ولكن اضطراب حياتها الزوجية كان يشير بأنها لن تستمر طويلاً.

رأوسي الله إلى رسوله - ﷺ - أن زيداً سبطاً زوجه وتكون إحدى نسائه - يا محمد - بتزويج الله إياها لك لحكمة إلهية شريعية ، وذكريه ربه حين كان يقول لولاه زيد - وهو يشتكى من إساءة زينب إليه ، **أَتَكُظْنِي طَبِيكَ زَوْجَكَ وَأَتَقْرَأُ آفَهَهُ** ، في أمرها ، ولا تطلقها لأنك تتضرر منها ، ويستحب أن يقول له : إن الله أوصى إلي أنها ستكون زوجتي من بعد طلاقك لها . . . **وَكَفَنَتِي فِي تَقْلِيَّةٍ مَا أَهْدَيْتِهِ** ، ليتحقق الشرح المطلوب وعاتبه الله على إخفاء ذلك ، **وَكَفَنَتِي النَّاسُ وَآفَهَهُ أَحْنَقُ** ، أن كفنته ، وكيف تقول لزيد أريك زينب مع أن قد أوحيت إليك أن تتزوجها بعد طلاقها واستيقاء عذرها . . . ؟ وما أخفاء الرسول لم يكن غير ذلك ، ولقد كان إلهاً ما وليم يكن أمراً صريحاً من الله ، وإلا ما تردد في تنفيذه ، ^(١) ولكن رسول الله - ﷺ - كان يتوجس من مواجهته الناس به ، لأنه ي مقابل بالاستكار من المجتمع . وأراد الله لهذا الأمر أن يكون ، وعاف زيد زوجه ، ورغب عنها وطابت نفسه عنها بعد أن مل عشرتها ، وقضى حاجته منها ، فطلقها . . . وهو لا يعرف . . . ولا زينب تعرف ما سيكرن عليه تنفيذ أمر الله من إباحة الزواج بزوجة المتبرئ ، والقضاء على تقاليد موروثة ، وإقرار الشرح الإسلامي عملياً ، فلا يأس في الزواج من زوجات

(١) في حلال القرآن

المتبين بعد طلاقهن ، ولا حرج على المؤمن في العمل بهذا التشريع الجديد ، ولا تخوف من ذلك ، فإنه أمر الله ، وأمر الله نافذ لا محالة ، وهو الأمر المتافق مع الفطرة الإنسانية ومقاصد الشريعة الإسلامية . . . من المحافظة على الآثار والحقوق ، ووضع الأمور في نصابها ، وتفصيل أمر الحلال والحرام في الزواج والميراث ، وبما في الحقوق والواجبات المترتبة على أحكام النسب والمصاهرة .

* وتزوج الرسول - ﷺ - زينب بنت جحش بعد انقضاء عدتها في السنة الخامسة من الهجرة ، وكان سبباً إياها خمساً وثلاثين سنة ، وكانت صيامة قوامة حسنة ، والذي خطبها للرسول زوجها السابق زيد . . . روى مسلم من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه قال : لما انقضت عددة زينب - رضي الله عنها - قال رسول - ﷺ - لزيد بن حارثة « اذهب فاذكرها على » فانطلق حتى أتاهما وهي تضرع عجيبة . قال : فلما رأيتها عظمت في صدره حتى ما استطاع أن أنظر إليها ، وأقول : إن رسول الله - ﷺ - ذكرها ! فربتها ظهرى ، وتكلمت على عقلى ، وفكت يا زينب . أبشرى . . . أرسلنى رسول - ﷺ - يذكرك . قالت : ما أنا بصناعة شيئاً حتى أؤمر ربى عزوجل فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن ، وجاء رسول - ﷺ - فدخل عليها .

وكلَّتْ زينب أمرها إلى الله تعالى ، وصدقت في تقويض أمرها إليه ، فتولى الله تزويجها من فوق سبع سموات ، وما أعلم الله تبيه بذلك دخل عليها بغير إذن ولا إيجاد عقد ، ولا تقرير صداق ، ولا حضور شهود ، وهذا من خصوصياته - ﷺ - التي لا يشارك فيها أحد بإجماع المسلمين .

وقد روى البخاري - رحمه الله - عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : إن زينب بنت جحش - رضي الله عنها - كانت تفخر على أزواج النبي - ﷺ - فقال : زوجُكَنْ أهالِكَنْ ، وزوجُنِي الله تعالى من فوق سبع سموات .

وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال : « كانت تقول للنبي - ﷺ - إنني لأدُلُّ عليك بثلاثة ما من سائلك تُدْلِلُ بهن : إن جدك وجدك واحد ، وإنكَحْكَ الله

لِبَائِيْ مِنَ السَّيَاءِ وَإِنَّ السَّفِيرَ بِحِيرَةٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

نفي المرجع عن النبي في زواجه من زينب :

انطلقت السنة المنافقين تقول: تزوج محمد حللة ابنته

وأراد الله تعالى أن يبطل افتراضهم ، ويؤكد إبطال عادة العرب في تحريم أزواج الأدعياء لغير آبائهم الحقيقيين **مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ سَرْجٍ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ لَهُ** .
فليس على النبي انت أو حرج فيها أحل الله له من زواج امرأة من بناته بعد طلاقها ، وليس بدعا من بين الرسل الذين سبقوه فيها أحل الله لهم من الزوجات ، فهذا أمر بسيط وفق سنة سنتها الله لا تغير ، **سَنَةُ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلُوا مِنْ قَبْلِهِ** ، وكان اليهود قد عابوه بكثرة الزوجات ، فرد الله عليهم طعنهم بـان هذه سنة الله في جميع الأنبياء السابقين حيث وسع عليهم فيما أباح لهم من الزوجات والمرارى .

وإذا أراد الله شيئا فإنه يعطي وفق مشته ، وينفذ حب قضائه لا عالة .

وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا .

بعض صفات الرسل السابقين :

لم أنت الله على الأنبياء السابقين بصفات تليق بالنبوة ، وفيها كمال النفوذ ، وإخلاص العبادة لله ، وتبلغ رسالته ، فهو لواء الأنبياء الذين سلك محمد ملوكهم . . . هم الذين يبلغون رسالات الله وتخوضونه وحده ، ولا يخوضون أحدا سواه ، وفي هذا حتاب له . - ﴿أَيُّ أَنْتُمْ مُنْتَهٰيٰمْ﴾ - أي فكن مثلهم ، ولا تبال بافتراءات اليهود والمنافقين ، فآلهة كافيك شرهم ، وبطل كيدهم ، وكفى بالله حسابا ورقبا على أعدائهم ، فليس إلا يخوضون غيره .

حقيقة علاقة الرسول - ﴿أَيُّ﴾ - بـجميع المسلمين :

ثم تمضي الآيات الكريمة في بيان أمر الرسول الكريم ورسالته ، وتوضححقيقة أمر علاقته بالمؤمنين ، وكيف أنه عليه الصلاة والسلام في بيته لزيد بن حارثة لم يكن أبا له لأنه لم يتوجه . فكيف تزعمون أن عمـدا - ﴿أَيُّ﴾ - تزوج امرأة ابنته **مَا كَانَ مُحَمَّدَ أَبَّا أَنْعَمِيْدَ بِنَ زَيْدَ الْكُرْبَرَ** ، ولا كان في يوم أبا حقيقـا لـواحدـ من رجالـكم ،

فزيد ليس ابته، وزينب لم تحلل ابته، فالعلاقة بينه وبين المؤمنين - ومنهم زيد - هي علاقة الرسول بابنائه، وله عليهم ما يجب من توقيره وإجلاله وتعظيمه، وابناع هديه . . . وشفقته - رضي الله عنه - ورحته ثابتة لكل مؤمن وكل مؤمنة إلى قيام الساعة، بخلاف غيره من الأنبياء فإنها تنتهي بوجود نبي بعده، وهذه منزلة رفيعة لم يحظ بها أحد مسوأه، فلقد كان رسول الله - رضي الله عنه - خاتم النبيين، وبه ختمت الرسالات، فلا نبي بعده، ولا رسول يعقبه، لأن الله ختم به كل الرسالات، فهو شرع الشرائع العامة لسير عليها البشرية، وفق آخر رسالة من السماء إلى أهل الأرض، والله يعلم ما يصلح لكم، ويفرض على نبيه ما يفرض، وختار له ما يختار، لأنه بكل شيء عالم، فلا تخفي عليه خافية من أموركم.

وفي صحيح مسلم عن جابر قال: قال رسول الله - رضي الله عنه -: «مثل ومثل الأنبياء كمثل رجل يرى فانهما وأكملها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون ، لولا موضع اللبنة، قال رسول الله - رضي الله عنه -: فانا موضع اللبنة حيث فتحت الأنبياء» ومثله عن أبي هريرة - رضي الله عنه -. غير أنه قال: «فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».

ولم يقصد بهذه الآية أن النبي - رضي الله عنه - لم يكن له ولد، فقد ولد له من السيدة خديجة ثلاثة ذكور: القاسم، والطيب، والظاهر، وماتوا صغارا ولم يبلغوا مبلغ الرجال، وولد له إبراهيم من مارية القبطية . . وإنها قصيدة بيان حقيقة النبي، وموقف الشريعة الإسلامية منه .

* * *

من الآية (٤١) إلى الآية (٤٤) من سورة الأحزاب

﴿ يَنْأِيْهَا ﴾

الَّذِينَ هُمْ أَمْنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ دِحْرًا كَثِيرًا ⑪ وَسِحْوَهُ بَكْرَةً
 وَأَصْبَلًا ⑫ هُوَ الَّذِي يُصْلِي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتَهُ لِيُخْرِجُكُمْ
 مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ⑬
 تَحْيِيْهِمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَاعْدُهُمْ أَجْرًا كَيْبِعًا ⑭

[معاني الكلمات والجمل]

بَكْرَةً وَأَصْبَلًا	: وقت الْبَكْرَةِ، وقت الْأَصْبَلِ . . . أول النهار وأخر
النهار	
يُرْحِكُمْ	: يُصلِّي عَلَيْكُمْ
وَمَلَائِكَتَهُ	: يَدْعُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَكُمْ .
مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ	: مِنْ ظُلْمَاتِ الْكُفْرِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ .
تَحْيِيْهِمْ	: تَحْيِيْهِمْ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .
يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ	: يَلْقَوْنَهُمْ رَبِّهِمْ فِي الْجَنَّةِ .
سَلَامٌ	: هُمُ الْبَشَرِيَّ بِالْأَمْنِ وَالسَّلَامَةِ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ .

الإِبْصَاح

على المؤمنين أن يذكروا الله كثيراً :

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى ذكره، بالتهليل والتحميد والتحميدة والتقديس في كل وقت، وعلى أي حال «وعليهم» أن يكثروا من ذلك، اعترافاً بفضله، وإحساساً بحرارقته، واستشعاراً لعظمته، واتصالاً بجلاله، فإن القلب يغسل فارغاً ما لم يكن على صلة بذكر الله، وإن الجوارح لتكون لاهية عابثة ما لم تر على منهج الله، وإن الإنسان ليضيق بحباته وتضيق به حياته ما لم يذكر الله.

﴿ وَمَنْ أَفْرَضَ عَنِ ذِي حِلْيَةِ قَلَّتْ لَهُ مَعِيشَةٌ حَسْكًا وَخَشْرُورٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾

أغْمَنَ (١) ﴿ . . . ﴾

ولايُعلَّم أحدٌ في ترك ذكر الله إلا منْ غُلِبَ على عقله كما يقول ابن عباس - رضى الله عنه - وفي القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ما يحثنا على ذكر الله تعالى كثيراً . . . قال رسول الله ﷺ : «إن الله تعالى يقول : أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه» .^(٢)

وبذلك فإن أوقات المزمن وأحواله تذكرة يات الله، حتى لا ينس ولا يغفل عن ذكر الله عز وجل .

وعلى المؤمنين أن يشغلوا ألسنتهم بالتسبيح :

سبحوا ربكم أيها المؤمنون في الصباح والمساء، وزرھروه عما لا يليق به طرق النهار، وأنعوا عليه بالحمد بما هو أهله، وقولوا في أول النهار وأخره : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، لماكورة اليوم فيها وقت القيام من النوم وكأنه بعث جديد . . . ل يوم جديد . . . لحياة جديدة، تحتاج إلى ترقين الله .

(١) رواه الإمام أحمد وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة

(٢) سورة طه الآية ١٦١

وآخر النهار فيه الحمد والثناء على الله بعد الانتهاء من العمل اليومي الذي وفقنا فيه للقيام بالصياغة على الرزق.

﴿ تَبَحْنَ اللَّهُ حِينَ تَمُونَ وَحِينَ تُضِيَحُونَ ﴾^(١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي

الشَّوَّكِ وَالْأَرْضِ وَعِنْبَا وَحِينَ تُظَهِرُونَ ﴾^(١٨) ﴾

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُورِهَا وَمِنْ هَذَا يَوْمَ الْأَيْلَمْ
سَبِّحْ وَأَطْرَافَ الظَّاهِرِ لَعَلَكَ تَرَضَى ﴾^(١٩) ﴾

فهي كل وقت نسبح الله تعالى مع البكرة والأصليل.

وفي البكرة والأصليل يتغاذرون فيكم ملائكة بالليل والنهر كما في حديث
البخاري، وفي زحة الحياة واصطراعنها يسلم الله المؤمن من بلايتها بالتسبيح، وقد
ورد في القرآن الكريم عن سيدنا يونس عليه السلام أنه حينما التقطه المحوت نجا
بالتسبيح.

﴿ قَلُولًا أَنْهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾^(٢٠) ﴾ لَلَّيْثَ فِي بَطْنِهِ إِلَيْنَا يَوْمَ يُبَعْثُرُونَ ﴾^(٢١) ﴾

وفي سورة القلم يندم أصحاب الجنة (الحدائق) على أنهم لم يكونوا من
المسبحين، وخطا عليهم أو سلط عليهم قاتلا:

﴿ أَرَأَلْ تَكَلُّلَ لَوْلَا تَسْبِحُونَ ﴾^(٢٢) ﴾

(١٧) سورة الصافات الآيات ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥.

(١٨) سورة الرعد الآية ١٧ ، ١٨.

(١٩) سورة القلم الآية ٢٨.

(٢٠) سورة طه الآية ١٣٠.

ولقد أمر الله المؤمنين بالذكر ثم أمرهم بالتسبّح، ليذلّم على أكثر من طريق للتربيّ منه، فإذا كان الذكر يتم بالقلب والجوارح، فإن التسبّح يكون بشغل الألسنة في معظم الأحوال بالتسبّح والتحميد والتهليل والشكّر لله رب العالمين، وهذا يشمل الصلاة وقراءة القرآن الكريم، والدعا، والاستغفار

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ بَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ٣٢﴾^(١)

الذكر والتسبّح أعم من الصلاة:

وإذا كان بعض المفسرين يرى أن الذكر والتسبّح في الآيتين [٤١ و ٤٢] يقصد بها بعض الصلوات المفروضة، أو بعض النافلة، لورود بعض الآثار التي تحدث بذلك... كما روى أبو داود والنّاساني وأبي ماجه من حديث الأعمش عن الأغر أبي مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة - رضي الله عنهما - عن النبي - ﷺ - قال: «إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصلّيا ركعتين، كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكريات» فإن ذكر الله وتسبّحه أشمل من الصلاة وأعم، وإذا كانت الصلوات المفروضة لها أوقاتها، والصلاحة النافلة لها مسمياتها، فإن ذكر الله وتسبّحه ينافي كل صورة بتذكر العبد فيها ربه، وينزه جلاله، ويقدس عظمته.. في الصلاة وغيرها، في كل أحواله، واتصاله برّبه عز وجل - في كل حين.

﴿ فَبَحْثُنَ اللَّهُ بِحْنَ نَعْوَنَ وَبِحْنَ تَصْبِحُونَ ﴾ ٣٧﴾

﴿ الْمَنَوْكَتِ وَالْأَرْضِ وَعَيْبَأَ وَبِحْنَ تُظْهِرُونَ ﴾ ٣٨﴾

بعض نعم الله تعالى التي يستحق عليها الذكر والتسبّح:

«هُوَ الَّذِي يُصْلِلُ عَبْرَكَ وَمُنْكِرَكَ لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ»

إنها لنعم عظيمة تعجز الأفهام عن تصورها، الله يصل على عباده
المحتاجين إلى فضله ورحمته؟!

إنه إباحة النعم من النعم، والتجريح على الذكر والتسبيح، ليتعطف
 علينا بالرحمة، ويدركنا في الملا الأعلى، ويشملنا ببرعياته وفضله، وتنصل علينا
 ملائكته، ويستغفرون الله لنا، ويتضرعون بالدعاء إلى الله من أجلنا، ومن عظيم
 نعمه إرسال محمد - ﷺ - لإنقاذنا، ولإخراجنا من ظلمات الكفر والضلالة
 والمحاسن، إل نور الإيمان والمهدى والطاعة وبح رحمة الله بنا، واستغفار
 الملائكة لنا، تفتح القلوب بالإيمان، ويصدق المؤمنون في ذكر الله وتسبيحه، لأنه
 سبحانه - دائم الرحمة بهم

وهذه بعض نعم الله على المؤمنين في الآخرة:

إن قضل الله تعالى على عباده المؤمنين في الآخرة عظيم، ورحمته بهم فيها
 الأمان والشري والسلامة لهم من كل مكروه، فإن النجاة التي متوجه اليهم - يوم
 يلقون ربهم - عند الموت، أو عندبعث، أو في الجنة - هي السلام تحمله إليهم
 الملائكة، السلام لهم من كل خوف، « سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَّحِيمٍ » ①

وهي لهم في الجنة تكريبا في نعيم مقيم، وثوابا حدا
 لا ينقطع، ومقاما كريما لا يزول . . . جراء طاعتهم في الدنيا.

(١) سورة يس الآية ٢٦

من الآية (٤٥) إلى الآية (٤٨) من سورة الأحزاب

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَمُنذِرًا ﴾ ④٥
 وَدَاعِيًّا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسَرَاجًا مُنِيرًا ④٦ وَبَرِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ
 يَأْتِيَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَيْرًا ④٧ وَلَا تُطِعِ الْكَفَّارِينَ
 وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذْنَهُمْ وَتَوَسَّلُ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ
 وَكِيلًا ④٨

[معاني الكلمات والجمل]

- | | |
|-----------------------|---|
| شاهدنا | : شاهدا على أمرك بالتبليغ. |
| وبشرا | : وبشرا من صدقك برحمه الله وجنته. |
| ونذيرا | : ومنذرا من كذبك وعصاك بالعذاب. |
| وداعيا إلى الله بإذنه | : داعيا إلى توحيد الله بأمره إليك بذلك. |
| وسراجا منيرا | : كالشمس في إزالة ظلام الكفر والضلال. |
| وداعا لهم | : لا تهم بآياتهم لك. |
| وكيلا | : ويكتفي بأهله وكيلا. |

الإِيْضَاح

مَرْلَةُ النَّبِيِّ وَفَضْلُهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ :

من نعم الله تعالى على المؤمنين أن أخرجهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإِيْضَاح والمداية بأن أرسل لهم نبيه مُحَمَّداً - ﷺ - ليُضْعِفَ هُم الطَّرِيقَ إِلَى اللهِ، وَيُهَدِّيُهُمْ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ - أَرْسَلَهُ اللَّهُ «شَاهِدًا» يراقب عليهم أَعْرَافَهُمْ وَيُرِيُّهُمْ أَحْوَالَهُمْ، وَيُرِفِّعُهُمْ إِلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَتَحَمَّلُ مَهْمُوسُونَ هَذِهِ الشَّهادَةَ بِمَا صَدَرَ عَنْهُمْ . . . وَلَعْلَهُ فِي هَذَا مَا يَخْتَمُهُمْ عَلَى أَطْيَبِ الْأَعْمَالِ، وَالصَّدَقَ فِي الْأَقْوَالِ، فَإِنَّ رَسُولَهُمْ مَيْتَهُدٌ عَلَيْهِمْ أَمَامُ اللهِ، فَلَقَدْ يَلْغَاهُمْ عَنْ رَبِّهِ رسَالَتِهِ، وَكَانَ «مُبَشِّرًا» لِلْمُعَالَمِينَ الْمُحْسَنِينَ بِالْجَنَّاءِ الْأَوَّلِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، تَفْضِلًا مِنَ اللهِ وَتَكْرِيْبًا وَرَحْمَةً، لَأَنَّهُمْ صَدَقُوهُ وَعَمِلُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ، وَكَانَ - ﷺ - «نَذِيرًا» لِمَنْ خَالَفَهُ دِيَهُ بِعَذَابِ النَّارِ، لِيُفَيقَ مِنْ غَفْلَتِهِ، وَيَرْجِعَ عَنْ غَيْرِهِ، وَيَتُوبَ مِنْ ضَلَالِهِ فَلَا يَعْذَبُ إِلَّا بَعْدَ الْإِلَذَارِ.

﴿ وَمَا كَانَ مُعْذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبَتَ رَسُولاً ⑩﴾^(١)

«وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ يَهْدِيهِ» داعيَا إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَى بِأَمْرِهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا يَدْعُهُ ولا يَتَنَزَّلُ مِنْ عَنْ دُنْعَتِهِ، إِنَّهُ هُوَ إِذْنُهُ لِهِ مِنَ اللهِ، وَأَمْرُهُ مِنْ رَبِّهِ لَا يَتَعَدَّهُ، لِيَكُونَ وَسِرَاجًا مُنِيرًا يَضْعِفُ سَبِيلَ الْحَقِّ، وَيُنُورَا هَادِيَا يَسْتَضِيِّعُ بِهِ الضَّالُّونَ فِي ظَلَمَاتِ الْجَهَنَّمِ وَالْغَوَّايةِ، لِعِلْمِهِمْ يَرْشِدُونَ طَرِيقَ اللهِ، وَيَقْتَسِيُّونَ مِنْ نُورِهِ الْمُهَتَّدُونَ، فَيَسْلُكُونَ مَنَاهِجَ الرُّشْدِ وَالسَّعَادَةِ فَهُوَ كَالْرَّاجِ المُثِيرِ فِي الظُّلْمَةِ يُهَنْدِي بِهِ .

قال ابن عباس - رضي الله عنه - لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله - ﷺ - على معاذًا، فبعثها إلى العين وقال: «اذْهَا بِشَرَا وَلَا تَنْفَرَا، وَسِرَا وَلَا تَعْرَا، فَانَّه قد انْزَلَ عَلَيْنَا وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ التِّي وَصَفَهُ اللهُ يَهَا فِيهَا بِخَصْسِ صَفَاتِ تَصُورِ الْكَيْلَ فِي شَخْصِهِ، وَالْجَلَالِ فِي رَسَالَتِهِ، وَالْهَدَايَةِ فِي شَرْعِهِ، وَالْعُلُوِّ فِي مَرْلَةِهِ - ﷺ - إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

(١) تفسير الطبرى .

(٢) سورة الإِسْرَاءُ، الآية ١٥ .

بشرى للمؤمنين :

أخرج ابن جرير الطبرى عن عكرمة والحسن البصري قالا : «ما نزل قول

الله تعالى : «**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقْدَمَ مِنْ ذَنْبٍ وَمَا تَأْتِيَ**»^(١)

قال رجال من المؤمنين : هبنا لك يا رسول الله قد علمتنا ما يفعل بك ، فإذا
يُفعلاً بنا؟ فأنزل الله تعالى : «وَبَشَّرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنَ الْمُهْمَنِ فَضْلًا كَبِيرًا» زيادة في
نعم الله وفضله على المؤمنين . بشرهم - أياها النس - بأن لهم من الله العطا
الجزيل ، والفضل الكثير في جنات النعيم ، وقد بين الله تعالى الفضل الكبير في
قوله :

«**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَمْ مَا يَسْأَءُونَ**» عند
رسوله **ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ** ^(٢) .

توجيه من الله للنبي في معاملة الكفار والمتافقين :

يُخاطب الله تعالى نبيه - عليه السلام - بتوجيه إلهي لا يطمع كافراً أو منافقاً في أمر
من أمور الدين ، أو شأن من شؤون الدعوة . وهذا تعليم للأمة كلها في كيفية
التعامل مع هؤلاء الناس المخالفين للشريعة الإسلامية ، فلا طاعة لهم ، ولا
مداهنة ، ولا ملائحة على حساب الدين .

«**فَلَذِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتْبِعْ أَهْوَاءَهُمْ**»^(٣)

(١) سورة الفتح الآية ٢

(٢) سورة الشورى الآية ٢٢

(٣) سورة الشورى الآية ١٥

وامض في طريقك ، ولا تهم بآيدهائهم لك ، واصبر على ما ينالك منهم ،
وفرض أمرك إلى الله ، وتوكل عليه وحده في كل ما تفعل ، فإنه يكفيك شرهم ،
ويدفع عنك ضرهم ، وحبك ... أن أمرك كله موكول إليه عزوجل ﴿ دَكْنَةٌ
بِأَنَّهُ وَكِلًا ⑯ ﴾

وفي الكلام وعد بالتأيد والنصر ، والإشارة إلى أن التوكل على الله شأنه
عظيم ، فمن توكل على الله واستند جهده وأتقن عمله ، كفاه الله ما أمه من أمور
الدين والدنيا .



﴿ يَكْتُبُهَا الَّذِينَ حَامَلُوا إِذَا نَكْحَتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ
 ثُمَّ طَلَقْنَاهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَإِنَّ كُثُرَ عَلَيْهِنَّ مِنْ
 عِذَةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمُتَعَوْهُنَّ وَسِرْحَوْهُنَّ سَرَاحًا جَيْلًا ﴾ (٤٩)

[معانى الكلمات والجمل]

- | | |
|----------------------|---|
| إذا نكحتم المؤمنات . | ـ : إذا عقدتم عقد الزواج على المؤمنات . |
| من قبل ان تمسوهن | ـ : من قبل الدخول بين وبما شرطهن مباشرةً الأزواج . |
| تعتدونها | ـ : تستوفون عدة أيامها التي يانقضائها حل بها التزوج . |
| فمتعوهن | ـ : طيبوا خاطرهم بعطائهم يشعرون بالنشوة والسرور . |
| وسرحوهن سراحًا جيلا | ـ : خلوا سبيلهم بالمعروف دون أذى أو حرمان من حق . |

الإيضاح

عدة المطلقات قبل الدخول بين:

كان رسول الله - ﷺ - نزوج ثم طلق قبل الدخول لسبب خارج عن إرادته ، فأغلق الله على المنافقين باب النس ، وبقي سحانه حكم معاملة المؤمنين كافة - والرسول أوصى - للمطلقات قبل الدخول بين ، فلا عيب على المسلم في ذلك .. ما دام قد سلك منهج الله ... إذا تم عقد الزواج على المؤمنات وتزوجتهن ثم

طلقتموهن قبل الميس والخلوة، فليس لكم عليهن أن يتظرن أيام العدة تحصوها وستوفوها عليهن، لأن العدة شرعت من أجل براءة الرحم للمطلقات الدخول بهن، أو المترق عنهن أزواجهن تفجعوا عليهم، أما في حالة عدم الدخول فالرحم بريئة، وحيث لا عدة تستوفون عدد أيامها التي يجوز لها بانقضائها التزوج، ولكن . . . أغطّرهم ما يمتعهن، عطاء يضع حالة الزوج المالية، تعليماً لخاطرهم، وتخفيفاً لوقع العلاقي عليهم، ويختلف هذا العطاء باختلاف البيئة والبلد الذي تعيش فيه المطلقة، فكلّ بدفع حب قدرته وبيته، وأقلّها كسوة كاملة تلبي أن تخرج بها المرأة من بيتها، وإن كان هناك مهر مسمى فنصف هذا المهر . . .

«وَسِرْحُونَ سَرَاحًا جَبَلًا»^(٦)، وأخرجوهن إخراجاً جيلاً، دون أذى، أو حرمان من حق، أو تضييع لواجب عليكم نحوهن، ليكون في ذلك بعض السلوى عما لحق بهن . . . والراجح أن لكل مطلقة متعة، وهي غير مؤخر الصداق.

وفي سورة البقرة بين الله سبحانه وتعالى حكم المطلقات قبل الدخول بهن

في قوله تعالى:

«لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُهُنَّ أَوْ نَفِرِضُوا لَهُنَّ فِرِيضَةً وَمِنْعُوهُنَّ عَلَى الْمُرْسَعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ مَتَّعُوا بِالْعُرُوفِ حَقًا عَلَى الْمُحْسِنِينَ»^(٧) وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فِرِيضَةً فَيُنْصَفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي يَبْلُغُهُ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِتَقْرَئِي وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بِيَنْكُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَا تَعْمَلُونَ بِصَيْرَ»^(٨)

(٦) سورة البقرة الآيات ٢٣٦ - ٢٣٧

فهذا تعميم في بيان حكم المطلقات قبل الدخول بين وقل معاشرهن،
ويتضح منه فرض نصف المهر إذ كان قد فرض لهن مهر، وإن لم يكن لهن عطاء.

٤٢
عَلَّ الْمُرِسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَّ الْعَقِيرِ قَدْرُهُ مَتَّعَا بِالْمَعْرُوفِ حَقَاعَةً
الْمُخْيَّبِينَ ٥٣

وفي الآية التي نحن بصدده تفسيرها تخصيص لبيان حكم العدة لحولا،
المطلقات، وهو ما لم يذكر في آية سورة البقرة، وفيها خص المؤمنات بالذكر مع أن
الكتابيات يدخلن في الحكم للتبية على أن الآية بالسلم أن يتخير لطفته والا
ينكح إلا مؤمنة عفيفة.^{١١}

وروى البخاري عن سهل بن سعد وأبي أسد - رضى الله عنها قالا: «إن
رسول الله - ٥٤ - نزوج أميمة بنت شراحيل فلما أن دخلت عليه بسط يده إلينها،
فكأنها كرهت ذلك، فامر أبا أسد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رارقين (نوع من
الثياب كان مشهورا في ذلك الحين) ويردها إلى أهلها».

• • •

(١) تفسير الكشاف.

» يَنْهَا النِّي إِنَّا أَخْلَقْنَاكَ أَزْوَجَكَ الَّتِي هَاجَرَتْ
 أَجُورُهُنَّ وَمَا مَلَكْتَ يَمْنُكَ إِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ
 عِنْكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَذَلِكَ
 الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَأَمْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَكَ
 لِلنَّجْوِ إِنْ أَرَادَ الَّتِي أَنْ يَسْتَكْحِمَهَا حَالِصَةً لَكَ مِنْ
 دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عِلْمَنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ
 وَمَا مَلَكْتَ أَيْتَهُمْ بِكُلِّ لَا يَكُونُ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ
 غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ * تُرْجِي مَنْ نَسَاءَ مِنْهُنَّ وَتَغْوِي
 إِلَيْكَ مَنْ نَسَاءَ وَمَنْ أَبْتَغَيْتِ مِنْ عِرْلَتْ فَلَا جُنَاحَ
 عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْعَى أَنْ تَقْرَأَ عَيْنَهُنَّ وَلَا يَخْرُنَ وَيَرْضَيْنَ
 إِمَّا أَتَيْنَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ
 عَلَيْهَا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَا يَعْلُمُ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ

رَبِّنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَنْجَبَكَ حُسْنَهُ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ
وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَرَقِيبًا ﴿٤٢﴾

[معاني الكلمات والجمل]

احلنا لك أزواجك : أبحنا لك احتفافا من النساء، وأبحنا لك استبقاء زوجاتك السبع في عصمتك، ولو كن فوق الأربع.

آتت أجورهن : أعطتيهن مهورهن.

أفاء الله عليك : أعطاك من سبي الكفار بعد الغلبة عليهم وامرأة مؤمنة إن وهبت : وأبحنا لك امرأة مؤمنة ثبت نفسها لك حبا في الله نفسها للنبي

أن يستنكحها

خالصة لك : هذه الأحكام السابقة خاصة بك، أما غيرك فلا يزيد على أربع.

ما فرضنا عليهم في أزواجهم : ما أرجنا على المؤمنين في أزواجهم.

خرج : خيق ومشقة.

ترجى من تشاء منهين : ترجنها وتزخرها عن ليتها المحددة لها إلى ليلة أخرى.

وتؤوي إليك من يشاء : تضئها إليك، المراد تقديمها على غيرها.

ومن انتغشت

: ومن طلبت منهين وقربتها بعد تأخيرها.

من عزت لا جناح عليك : أبعدتها وآخرتها عن ليلتها.
 لا حرج ولا مواجهة في خسم من شاء إليك في غير ليلتها.
 تقر عينهن : يكن مطمئنات ومسروقات لعلمهن أنه بحكم الله تعالى.
 لا يحل لك النساء من بعد : لا يحل لك أياً امرأة بعد النسخ الالهى تزوجهن .
 ولا ان تبدل بهن رفيا : ولا يحل لك أن تطلق واحدة وتتزوج بدلا .
 مطلعها ، وشاهدوا لأعمالكم .

الإيضاح

بعد نزول قول الله تعالى :

﴿ فَانِّي كُحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ الْتَّاهِ مُشْفَقٌ وَثَلَاثَةَ وَرِبْعَةَ ٤ ﴾

قال المتفقون : إن عمدا استحل لنفسه ما حرمه على أمته ، فيقىء أنه سبحانه وتعالى ما للرسول الكريم من خصوصيات ، توسيعة عليه ، ورفعا للحرج عنه ، وبين ما يحل له من النساء في قوله : « يا أيها النبى إنا أحلنا لك أزواجاك » وأباح له استيقاء زوجاته ولو كن فوق الأربع مما هو محروم على غيره ، لبرد بذلك على إضلal المتفقين البعض ذوى التقوس الضعيفة .

أصناف من النساء يحل للنبي - ببيبة - الزواج منها :
 يا أيها النبى إنا أبحدنا لك أصنافا من النساء لتزوج منها ، تيسيرا عليك في تبلیغ الدعوة ، ونشر الرسالة . . . ولفظ [أحلنا] لا يستلزم منه الحصول على كل

ما ذكر، لانه يفهم منه مجرد الجوانب ويشير الى أن الحلال ما أحله الله تعالى، وأن الحرام ما حرمته الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْنِي»^(١).

واباح الله لنبيه - ﷺ - الزواج من المهرات اللاتي أعطاهن المهر، كسودة بنت زمعة، وبعائشة بنت أبي بكر الصديق، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وإيماء المهر^(٢) الأفضل من تاجيله، وكان التعجيل به من سنة سلفنا الصالح، وعقد الزواج بصح مع عدم ذكر المهر، ولكن . . . يجب مهر المثل بالدخول.

واباح الله لنبيه الزواج مما ملكت بعثته من أسريات الحرب، ومع أن الله تعالى أباح له معاشرة المعلوكة بالسي في الحرب إلا أنه لم يفعل ذلك، بل كل من ملكهن من هذا النوع أسلعن، واعتقهن وعقد عليهن، ودفع لهن صداقا، كصفية بنت حني بن الخطاب، وجوبيرية بنت الحارث سيد بنى المصططلق.

واباح الله لنبيه - ﷺ - الزواج من نوع آخر من النساء من قرياته القرشيات بنات أعمامه، وبنات عهاته، وقرياته الزهريات^(٣) من بنات أخواله وبنات خالاته . . . من اللاتي اشتراكن معه في الهجرة، وإن اختلف موعدها وزمانها . . . وتقيد الزواج بالقرشيات المهاجرات لبيان الأفضل، ونذكرها للمهاجرات، فإن من هاجر أشرف وأولى من لم هاجر قالت أم هانيء بنت أبي طالب: خطبني رسول الله - ﷺ - فاعتذررت إليه فعذرني فأنزل الله هذه الآية . . . قالت: فلم أكن لأحمله، لأنني لم أهاجر معه، وكانت من الطلاقاء.^(٤)

واباح الله لنبيه - ﷺ - الزواج من أي امرأة مؤمنة صالحة تهب نفسها له جا في الله ورسوله، دون أن تطلب مهرا لو حصل ذلك واراد أن يتزوجها، ولم يكن عند رسول الله ﷺ أحد منهن، وإنما كان يزوجهن للغير، قال ابن عباس: «هو بيان

(١) سورة الأنعام - الآية ٧٥.

(٢) إيماء المهر ليس شرطا ولا قيد في الزواج، ولكنه لبيان الأفضل.

(٣) من بنى زمرة أخوال الرسول ﷺ.

(٤) الطلاقاء هم الذين أنعم عليهم رسول الله بالغفران عليهم يوم قبح مكنة بقوله: (إنما يفتنكم الطلاقاء).

لِحُكْمٍ فِي الْمُسْتَقْبِلِ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ - **يَعْلَمُ** - امْرَأةٌ بِالْجُنْاحِ حَتَّىٰ فَارَقَ هَذِهِ النَّسْيَا، وَبِذَلِكَ يَكُونُ الْمَرَادُ . . . إِعْلَامُهُ بِحُلُولِ الزَّوْاجِ مِنْ هَذَا النَّوْعِ.

خصوصيات للنبي دون سائر المؤمنين :

وزاد الله تعالى في إكرام رسوله - **يَعْلَمُ** - إرغاماً لأنف المنافقين بقوله: «**خَالِصَةُ لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**» فكل ما جاء من كثرة الزوجات ومن قبول الزواج بالمرأة التي تهبه نفسها، خصه الله به، دون سائر المؤمنين، توسيعة عليه، ورفعاً للحرج عنه، لأنَّه ولِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمَنَاتِ جِيَعاً، وَابْنَ اللَّهِ لَهُ ذَلِكُ . . . مع علمه بما فرضه على المؤمنين من أحكام، بالا يزيدوا على أربع، ولا يتم زواجهم إلا بولي ومهر وشهود، ففرض عليهم فيما ملكت أيديهم بيان تكون الأمة اصرت في حرب مشروعة بين المسلمين وغيرهم من المشركين أو أهل الكتاب وهي مشركة، وأن يضرب عليها الإمام الرق، وأن تستبرأ قبل الدخول، ولا تحل لهم امرأة بلغت الحبلة . . . كل ذلك عليه الله وفرضه على المؤمنين، ومنع الله لنبيه - **يَعْلَمُ** - ما لم يمنحه لهم، لئلا يكون عليه خبيث، ولتفريح لأداء الرسالة، ويتحجب للغارقون المحبطون به، ولجعل الجميع أن الله هو الذي أحل له كل هذا «**وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**» يغفر ما يسر التحرز عنه، رحيمًا به لأنه تولاه وصانه من افتراءات المنافقين.

للنبي الحرية في معاملة أزواجه :

وهذا وجه آخر وسع الله به على نبيه - **يَعْلَمُ** - بما منعه غيره، وأعطاه الحرية المطلقة في كيفية معاملة زوجاته . . . فالامر متراكٍ لخياره واختياره، قوله أن يتوخر من بناته عن ليلتها، قوله أن يقدمها على غيرها، ومن آخرها قوله أن يعود إليها حين يشاء، ويلغى إبعادها وبقريها إليه، حسب ظروفه الخاصة قوله أن يراجح بعد الطلاق من يريد كما حدث لفصة بنت عمر . . . ذلك . . . أقرب لراحة قلوبهن، وأطمئنان نفوسهن، فيكون جميعاً قربارات العين راضيات، وبخاصة إذا علمنَّ أنَّ هذا حكم من الله تعالى، الذي يعلم ما في قلوبنا من الميل لبعض النساء مما لا قدرة لنا على

منتهى، روى أحد عن عبد الله بن يزيد عن عائشة قالت كان رسول الله - ص -
يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا قسيبي فيها أملك، فلا تلعنني
فيها تملك ولا أملك» يعني بذلك قلبه في زيادة حبه لبعض دون بعض.

ومع أن القسم لم يكن واجبا على الرسول - ص - فلقد كان شديدا الحرص
على العدل بين نسائه حتى وهو مريض يطلب أن يجعل ليطوف عليهن، وكان في
السفر لا يأخذ من يزيد . . . بل يترع بينهن، فمن خرجت لها القرعة صحبه في
سفره.

والمعلوم أن رسولنا الكريم لم يستعمل كل ما أحله الله له مما جاء في الآيات
الكريمة، عملا بالأفضل، وضبطا لنفسه، وأسوة حسنة لأمة.

إكرام الله تعالى لزوجات النبي - ص :

حين نزول الآية الكريمة، **لَا يَحِلُّ لَكَ أَنْتَأَمّْا مِنْ يَعْدُ** ، كانت النساء اللاتي
في عصمتها تسعوا، فاصبحن في حقه كاريع في حق غيره، وبذلك . . . لا يحل له
الزيادة عليهن، ولا يحل له أن يستبدل بهن غيرهن، فلا يجوز أن يطلق واحدة ثم
يستبدلها بالزواج من أخرى، ولو فرض واعجبه حستها، وروى ابن عباس أنه
قال في الآية: (حَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِنَّ كَمَا حَمَّهُنَّ عَلَيْهِ) . لكن الله تعالى أحل له ما
ملكت يديه من الإناء، على أنه لم يأخذ منهن بعد نزول هذه الآية الكريمة إلا
ماربة القبيطة التي أهدتها إليه المقرقس عظيم القبط بمصر، فسرى بها، وأولدها
إبراهيم الذي مات رضيعا، وكان الله مراقبا لأعْرَافِكم، مطلعًا على كل شيء، فلا
تختروا حلاله إلى حرامه، وحافظوا على أوامره، لأنكم ستحاسبون عليها . . .

والآية توحى بجواز النظر إلى من يراد زواجهما، وقد روى أبو داود أن النبي - ص - قال: «إذا خطب أحدكم المرأة، فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى
نكاحها فليفعل».

واعلنا نلحظ في الآية الكريمة ما يلي :

- ١ - ان فيها تكريم الله تعالى لزوجات الرسول - ﴿فَلَمَّا أَتَاهُنَّ بِهِنَّ بَعْدَ أَنْ شَدَّ عَلَيْهِ رَبُّهُ الْأَيْمَانَ تَزَوَّجُوهُنَّ، بَلْ شَدَّ عَلَيْهِ أَكْثَرُهُنَّ حِينَ قَالَ: «وَلَا أَنْ تَبْدِلْهُنَّ».
- ٢ - لما نزل التحديد بأربع امر الشئ - ﴿فَلَمَّا مَرَّ مِنْ كَانَ عِنْدَهُ زِيادةً عَلَى أَرْبَعٍ زَوْجَاتٍ أَنْ يَطْلُقُهَا، وَلَكُنْهُ . . . أَبَاحَ لَهُمُ الطَّلاقُ مِنْهُنَّ بِشَرْوَطَهُ، وَإِنْ أَسْتَبَدَ بِإِحْدَاهُنَّ غَيْرَهَا أَنْ يَكُونَ بِشَرْوَطِهِ أَيْضًا، وَهَذَا الْحُكْمُ جَاءَنِي لِكُلِّ مُسْلِمٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.﴾
- ٣ - أما رسول الله - ﴿فَلَمَّا حَرَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الزِّيَادَةَ عَلَى أَزْوَاجِهِ، كَمَا حَرَمَ عَلَيْهِ طَلاقَهُ إِحْدَاهُنَّ، وَذَلِكَ . . . بَعْدَ أَنْ خَيْرَهُنَّ . . . كَمَا سَبَقَ فِي آيَةِ التَّخْيِيرِ لِمَا خَتَرَنَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا شَكَ أَنْ فِي هَذَا تَشْدِيدًا عَلَى الرَّسُولِ - ﴿فَإِذَا مَا قَوَرَنَّ بِأَيِّ فَرِدٍ مِّنْ أَفْرَادِ أُمَّتِهِ . . . بِالزِّوَاجِ مِنْ شَاءَ يَشَاءُ فِي دَائِرَةِ الْأَرْبَعِ﴾
- ٤ - ولم يجز في حقه - ﴿فَلَمَّا نَزَّلَ آيَةُ التَّحْدِيدِ بِأَرْبَعِ أَنْ يَطْلُقَ مَا زَادَ عَلَى أَرْبَعِ، لَأَنْ كُلَّ وَاحِدَةٍ كَرِمَهَا اللَّهُ تَعَالَى بَأْنَجَعَهُ لِأَمَّا الْمُؤْمِنَاتِ كَمَا حَرَمَ الزِّوَاجِ مِنْهُنَّ بَعْدَ فَرَاقِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ لَهُنَّ - كَمَا سَيَانٌ - وَفِي هَذَا تَكْرِيمٌ أَخْرَهُنَّ، فَإِنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَجُوزُ لَهُ الزِّوَاجُ مِنْ أُمَّةٍ.
- ٥ - لو كان الطلاق جائزًا في حقهن لكان في ذلك من التغيق عليهم ، فللي أين يذهبن بعد أن حيرن أمهات المؤمنين !!؟
وعلى افتراض أينما جبعوا أو بعضهن كن قد اخترن الدنيا وزخارفها وحدث لها الفراق والطلاق . . . لكان من حقها أن تتزوج ، لأنها لم تكرم حيثًا أم المؤمنين .

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَجِيٍّ عَدُوا مِنَ الْمُجْرِمِينَ

جدير بنا ونحن نتكلم عن زوجات الرسول الطاهرات، ان تردد فرقية وتجهيز كلبة، وتفند زعماً دأب عليه المافقون، والمستشرقون، والخاقدون على الإسلام، ونبي الإسلام ... من الأعداء يستحقون قطع السهم، حين يتحدثون بلسان الشيطان عن تعدد أزواج الرسول - **رسول** - ويقولون: إن مهما كان رجلاً شهوانياً يسروره ملئاته، ولم يكتف بزوجة واحدة أو بأربع، بل عدد الزوجات فتزوج عشر نساء أو يزيد... !!

إنه الخقد الأسود الذي أعمى بصرهم وبصائرهم عن رقية الحق، وأوغر صدورهم على قدسيّة الرسول - **رسول** - وجرأهم شياطين الكفر على النيل منه:

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَجِيٍّ عَدُوا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكُنْ بِرِبِّكَ هَادِيًّا وَنَصِيرًا
الرد على أباطيلهم:

وستنكشف بالحق على باطلهم هذا فيدفعه فإذا هو زاهق، وطم الويل - كل الويل مما تحذّروا به، وستحاول الإيجاز حب ما يسعح به المقام... ليان الأهداف النبوية السامية من وراء ذلك:

١ - لم يعدد الرسول الكريم في زوجاته إلا بعد بلوغه سن الشيخوخة، أي بعد أن تجاوز الخمسين من عمره.

٢ - كانت أولى زوجات الرسول - **رسول** - السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها - الطاهرة الشريفة، العاقلة الحكيمة وكانت أول من آمن به من النساء وقضى معها زهرة شبابه ومكثت معه خمسة وعشرين سنة، ولم يتزوج عليها، ورزق منها بكل أبناءه وبناته - ما عدا إبراهيم، فلم يعدد زوجاته إلا بعد وفاتها، وظل فيها لها في حياتها وبعد عماتها.

٣ - لم يعدد الرسول الكريم في زوجاته إلا بعد الهجرة، وفي العام الذي بدأ فيه القتال بين المسلمين والشركين، وكثير فيه الشهداء من المسلمين، من السنة الثانية إلى السنة الثامنة، والتي تم فيها نصر الله والفتح، وكان إحسانا جيلا من النبي - ﷺ - أن تزوج من لا عائل لها، وفي ذلك ما فيه من نيل المقصود وسمو الهدف.

٤ - قصد الرسول إلى تأليف القلوب، ومصلحة الدين والتشريع، فجذب إليه كبار القبائل، ليوثق بيده ويتهم برباط المتصاهرون، فييدلوا له النصرة والحماية، مثل جويرية بنت الحارث التي كان إسلامها خيرا وبركة على قومها.

٥ - تخللت في مصاهرته لوزيره أبي بكر وعمر رضي الله عنهم - وفاة الصحابة، وتقدير القلوب التي التفت حول دعوته، والتقت على منهجه في إكبار وإجلال.

٦ - القضاء على بدعة التبني التي كانت عقيدة جاهلية ترسّبت جذورها في المجتمع الجاهلي، بتبنّي أحدّهم ولداليس من صلبه، ويلحقه بتتبّه ويجعله في حكم الولد الحقيقي في الميراث والنسب والزواج، وعمرمات الزواج والمصاهرة، وقضى عليها الإسلام بشرعاته السامية، وحلّ نوى الإسلام القيام بإبطالها في زيد بن حارثة الذي كان قد تبنّاه، بل أكثر من ذلك ... تزوج الرسول الكريم زوجة ابنه بالتبني بعد طلاقها ووفاة عدتها، وتم الزواج بأمر من الله تعالى.

٧ - هناك بعض مسائل التشريع الخاصة بالمرأة، وبالحياة الزوجية ... مما يكون بين المرأة وزوجها، بعد أن سارى الإسلام بين النساء والرجال في التكاليف، وفي الثواب والعقاب، وكانت الكثيرات متّهمن يستحبّن أن يسألن رسول الله - ﷺ - عن بعض الأمور الشرعية، وبخاصّة للصيفة بين ... كأحكام الحيض، والغافر، والجناية، وكانت السائلة تغالب حياءها وهي تسأل عن هذه المسائل، فما كان - ﷺ - يجيب على السؤال إلا بذكر الشيء بكتبه،

وقد تفهمها المرأة، وقد لا تفهم المراد منها، وفيه ما فيه من الواقع في المحافير، فلزم تحرير معلومات من زوجات الرسول - ^{عليه السلام} - يعلمون النساء الأحكام الشرعية الخاصة بهن.

٨ - لو كان تعدد الزوجات في حق الرسول - ^{عليه السلام} - جريأ وراء شهوة، أو سيرا مع الهوى والاستماع، لتزوج الآباء في سن الشباب ولم يتزوج العجائز في شيخوختهن . . . والثابت أنه ^{عليه السلام} تزوج زوجاته الطاهرات من الأراميل والثباتات ما عدا السيدة عائشة - رضي الله عنها .

٩ - هذه الأغراض السامة، والمقاصد التبليغ . . . كان تعدد الزوجات في حقه - ^{عليه السلام} - وبذلك بطلت مزاعم الماحدين على تبني الإسلام، ووضحت نراحته، وطهارته، وعفته، وكتب التاريخ والسير تدفع بالرد على هؤلاء الماحدين المغرضين فمن أراد المزيد فليرجع إليها^(١) إن شاء .

١٠ - قال صاحب المزار: إنه - ^{عليه السلام} . . . كان يرعى المصلحة في اختيار زوجاته في التشريع والتآديب، فربط كبار الرجال والقبائل بالصاهرة، وعلم أتباعه احترام النساء والعدل بينهن، وترك بعده منهن من يطمئن إلى نقلهن الأحكام التي لا يطلع عليها الرجال، لأنها من الأمور السرية التي تفع بين المرأة وزوجها، ولكنها يجب أن يعلمهما المسلمون، ولو كان - ^{عليه السلام} - يريد بتعدد الزوجات ما يريد لأهل الدنيا من التمتع بالحلال فقط. لاختار حسان الآباء، ولا جمع في عصمه هؤلاء العجائز من الثبات . . وفيهن ذوات الأولاد حماه الله تعالى مما يفتريه المفترون .^(٢)

* * *

(١) راجع تفسير القرطبي، وتفسير آيات الأحكام للضاوي وزوجات الرسول - ^{عليه السلام} - الطاهرات لحمد محمد الصواف

(٢) تفسير المزار - بشير رضا .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ هُمْ أَمْنُوا ﴾

لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النِّسَاءِ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ
 غَيْرَ نَظِيرٍ لِإِنَّهُ وَكِنْ فِي إِذَا دُعِيْتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعَمْتُمْ
 فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَغْنِيْنَ حَدِيثٌ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ
 يُؤْذِي الَّذِي فَبَسْطَتْهُ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحِي مِنْ
 الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلُوكُمْ مَمْنَعَ قَسْطَلُوهُنْ مِنْ دُرَأَةِ جَنَابٍ
 ذَلِكُمْ اطْهَرُ لِقَلْوَبِكُمْ وَقُلُوبُهُنْ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذِنُوا
 رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَسْكِحُوا أَزْوَاجَهُو مِنْ بَعْدِهِ أَبْدًا إِنْ
 ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تَبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفِوهُ
 فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ يَعْلَمُ شَيْئًا وَعَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَ فِي
 إِبَاضَةِ وَلَا أَبْنَاهُنَّ وَلَا إِخْوَنَهُنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَنَهُنَّ

وَلَا أَبْشِأُ أَخْوَتِهِنَّ وَلَا نَسَاءِنَّ وَلَا مَامَلَتْ أَبْنَائِهِنَّ
وَأَئْقَنَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٤﴾

[معاني الكلمات والجمل]

- | | |
|---------------------|--|
| إلا أن يوفن لكم | إلا إذا دعيمتم إلى تناول الطعام. |
| إلى طعام | إلى تناول طعام في مناسبة ما. |
| غير ناظرين إناه | غير متظربين وقت نضجه. |
| فإذا طعمتم فاتشروا | إذا أكلتم الطعام فانصرفوا أو تفرقوا ولا تحكروا عنده. |
| ولا متناسين لحدث | ولا تحكروا بعد الفراغ من الطعام ليأس بعضكم لحدث بعض. |
| إن ذلكم | إن انتظاركم واستتساركم بعد الأكل يوفى النبي . |
| فيستحب منكم | : ينجعل أن يخرجكم من بيته. |
| لا يستحب من الحق | : لا يترك تقرير الحق وبيانه. |
| سالتمورعن متاعا | : طلبتم منه شيئاً يتفع به. |
| من وراء حجاب | : من وراء ستريسترهن عن الرؤية والنظر. |
| ذلكم أظهر لقلوبكم | : سوالكم للناء من وراء حجاب أكثر نقاطه وظهورها من الرببة وسوء الفتن. |
| وقلوبهن | . |
| ما كان لكم أن تؤذوا | : لا يليق بكم أيها المؤمنون أن تؤذوا رسول الله . |
| رسول الله | |
| ولأن تنكحوا زواجه | : ولا تنكحوا بأزواجه الطاهرات من بعده أبداً. |
| من بعده أبداً | |
| إن ذلكم | : إن أيداهه وزواج ناته من بعده . |

كان عند الله عظيما
لا جناح عليهم في
آياتهن
نائبهن
عنهن .

: فَبِاَكِيرٍ لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ لَكُمْ
: لَا مَوَاجِدَةٌ عَلَيْهِنَّ فِي اَنْ يَكْلُمُنَّ آبَاءَهُنَّ دُونَ
حِجَابٍ .
: النَّاسُ الْمُؤْمِنُاتُ ، اَمَا الْكَافِرَاتُ فِي جَبِ الْاحْجَابِ
عَنْهُنَّ .

الإيصال

أدب من الله تعالى للشقاء :

لما كانت العرب أمة بدأة . . عالج الله أحواهم بالحكمة في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، لينقلهم بالأدب الإلهي الرفيع - تدریجاً - إلى مناخ الحضارة الإسلامية الرفيعة . وكان رجال من المسلمين يتذمرون أوقات طعام رسول الله - ص - فيدخلون عليه في بيته قبل الطعام، و يجعلون إلى أن يتضجع . ثم يتذمرون بعد فراغهم من تناوله ليتسامروا . وكان - ص - يتأنى من ذلك ولشدة حياته لا يصارحهم بها يتأنى منه . . عن أنس رضى الله عنه - قال : « مَا تزوج رسول الله ص زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ، ثم جلسوا يتحدثون ، وإذا هو كانه يتنهى لقيام فلم يقمعوا قليلاً رأى ذلك قام ، فقام منْ قام ، وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبي - ص - ليدخل فإذا القوم جلوس . . ثم إنهم قاما . . فانطلقت . . فأخبرت النبي - ص - أنهم قد انطلقا ، فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل . . فالتفى الحجاب بيني وبينه ، قاتزل الله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَا لَا تَدْخُلُوا بَيْوْتَ النَّبِيِّ . . الْأَيْةُ لِخُرُجِ رَسُولِ اللَّهِ ص فَرَأَاهَا عَلَى النَّاسِ » ^(١) .

وفي الآية الكريمة تُنظِّم لعلاقة المسلمين ببيت النبأة وبناته في حياته وبعد موته ، . . والأدب فيها عامنة لجميع المسلمين ، والتي واضح في عدم دخول

(١) أصل الحديث موجود في المخارق ومسلم .

بيت النبي - ﷺ - بـأي حال من الأحوال إلا إذا دعوا إلى تناول طعام وأذن لهم بالدخول، والإذن وحده لا يكفي، فلا يتبعى أن يدخلوا لتناول الطعام بغير دعوة، وإن وجد صريح الإذن بالدخول ... حتى لا يكون المرء طفلياً يحضر الوليمة دون دعوة سابقة (وكان العرب في جاهليتهم يدخلون البيوت دون إذن سواء لتناول الطعام أو غيره) ولا يليق بالمؤمنين أن يدخلوا قبل تضييع الطعام ويستظروا في بيت النبي، ولكن ... إذا دعوا، وأذن لهم بالدخول وطعموا فليخرجوها ولا يتقلاوا على رسول الله بالجلوس بعد الطعام، ليائس بعضهم لحديث بعض قلن ذلك يؤذى النبي، ويمتنعه حباوه أن يأمركم أيها المسلمون بالانصراف والخروج، ولكن الله لا يستحب من بيان الحق والجهر به، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: يكفيك من الثقلاء أن الله سبحانه لم يتعملهم وأمرهم بالانصراف، وقال آخر: هذا أدب أدب الله به الثقلاء.

مشروعية الحجاب:

ولما ذكرت بيوت النبي - ﷺ - وفيها أزواجه الطاهرات جاء الأمر بالحجاب وعدم الاختلاط ... فإذا سألتموهن شيء أو طلبتم منهن متاعاً يتسع به للدين والدنيا، فاسألوهن طلبيكم من وراء حجاب، ولا تكلموهن إلا أن يكون بينكم وبينهن ساتر يمنع الرؤية والتلذذ، فإن ذلك .. أظهر لقلوبكم وقلوبهن يا بعاديها عن الريبة، ومن شأن الشكوك وأكده في الحصانة وإغلاق الباب على خواطر النفوس **البيتة**.

وروى في الصحيح عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والقاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين أن يخرجن .. فنزلت آية الحجاب «إذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب» (البخاري).

وهذه إحدى المرافقات الثلاث التي تزل القرآن الكريم موافقاً لها لرأى

عمر رضى الله عنه .^(١) ولا يليق بكم أية المؤمنون أن توفوا رسولكم ، وتفعلوا ما يكرهه في حياته من الدخول بغير إذن ، والمكث عقب تناول الطعام لتبادل الأحاديث ، وكلام نسائه بدون حجاب ، ولا أن تتزوجوا أزواجه بعد موته احتراماً له وطن ، لأنهن نساء المؤمنين ، فلا ينبغي أن تفعلوا ذلك أبداً ، فإن ذلکم ذنب عند الله عظيم ، وما أشنع أن يكون عند الله عظيم !! فإن لفاعله العقاب الرهيب

وبعد هذا الإنذار والتخيير من إيزاده الرسول - ^ص - للحافظة على احترامه حياً وميتاً . . . هدد من يخالف هذا الأمر . . . سواء أظهره - كما أعلنه أحدهم عن زواج إحدى نسائه عليه السلام - أو أسره في نفسه ، وإنفه في صدره فإن الله مطلع عليه ، وعلمه به ، بل علیم بكل ما تظہرون وما تخفون ، وسيحاسبكم عليه .

روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رجلاً أتى بعض أزواج النبي فكلمها ، وهو ابن عمها فقال النبي - ^ص - لا تقومن هذا المقام بعد يومك هذا ، فقال يا رسول الله إنها ابنة عمِّي ، والله ما قلت منكراً ، ولا قالت لي ، قال النبي - ^ص - قد عرفت ذلك ، إنه ليس أحد أغير من الله تعالى ، وإنه ليس أحد أغير مني ، فمضى . . . ثم قال : يمتنع من كلام ابنة عمِّي ؟ لا تزوجنها من بعده ، فأنزل الله الآية . . . قال ابن عباس : وندم هذا الرجل على ما حدث به نفسه ، فَشَّى إلى مكة على رجليه ، وَحَلَّ على غترة أفراس في سبل الله ، وأعنت رقيقاً فكفر عنه .^(٢)

(١) جاء في الصحيحين عن عمر قال : وافتت زين عز وجل في ثلاثة . فللت : يا رسول الله لا تحدث من مقام إبراهيم مصل ، هزيل ، وانخدعوا من ملائكة إبراهيم مصل ، وفي الحجاب . . . هزلت آية الحجاب واجتمع شاء النبي . . . آية . . . في العبرة لفتت . . . صررت به إن طلقك أن يدخله أزواجاً غيرها مسكن هزلت كذلك ، رواه البخاري وسلم

(٢) تفسير القرطبي ، وتفسير الرازي .

ويروى أن رجلاً من المتألقين قال حين تزوج رسول الله - ﷺ - أم سلمة بعد أبي سلمة، وحفصة بعد خنساء بن حذافة: ما يبال محمد يتزوج نساعنا!! والله لو قد مات لاجلنا^(١) الشهام على نسائه ... فنزلت الآية.^(٢)

وقال الشافعي - رحمه الله تعالى: وأزواجه - ﷺ - اللاتي مات عنهن لا يجعل لأحد نكاحهن، ومن استحل ذلك كان كافراً القوله تعالى: **وَمَا كَانَ لَكُنْ أَنْ تُؤْذِنَا رَسُولُ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا ازْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ**.
وهذا من خصائصه - عليه السلام - غيرها الشرفه، وتبهاع على علو مرتبته، وسمو قدره.

حرام يجوز كلامهم دون حجاب:
ما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب للرسول الله - ﷺ : أو نحن أيضاً نكلمهم من وراء حجاب^(٣) فنزلت هذه الآية **لَا جناح علَيْهِنَّ فِي آبَانِهِنْ ... وَفِيهَا إِسْتِئْنَاءُ بَعْضِ الْمُحَارِمِ عَنْ يَحْرُزِ النَّسَاءِ النَّبِيِّ** - ﷺ - أن يظهرن عليهم، ويكلمنهم دون حجاب، فلا إنما عليهم في ذلك مع الآباء .. سواء أكان آباً من النبي أم من الرضاع أو أبناء هن نبا أو رضاعاً، أو إخوانهن أو أبناء إخواتهن أو أبناء إخواتهن أو النساء المسلمات، أو ما ملكت آياتهن من العبيد لأنهم يقرون بخدمتهن، وفي حكم ما ذكر بقية المحaram التي ذكرت في سورة النور^(٤) كالعم والخال .. ولم يذكر هنا لأنها بمنزلة الآباء ... ونساء النبي في هذا خير قدوة لجميع نساء المؤمنين.

ومع أن الآيات الكريمة وردت في شأن بيوت النبي - ﷺ - تقديرًا الشأنه

(١) يزيد اقتضانا بالقراءة.

(٢) تفسير المراغي.

(٣) في الآية ٣١.

وعلو مكانه ، فإن الأحكام الواردة فيها عامة لجميع المسلمين والملحدات ، فالامر فيها بعدم الإختلاط بالنساء ، وتفريح سواهن من وراء حجاب نزل بشأن شاء النوى - ينفع - مع أثير الطاهرات أمهاط المؤمنين . فغيرهن من النساء أولى لأن الفتنة بهن متحققة ، وبخاصة في زمانا هذا الذي شاع فيه الانحلال الخلقي لضعف الواقع الديني والتجارب المعرضة اليوم في العالم لا تحتاج إلى تبيان . . . ويتبين ذلك أنه لا يجوز لأحد أن يدخل بيت أحد دون إذنه ، ولا أن يتناول الطعام دون دعوه وإذا بالدخول ، وفيه دليل على تحريم التغافل ، والحفاظ على بيوت الآخرين وساكنيها .

ونختم الآية بتوجيه الله تعالى متنوراً الله عزوجل ومراقبته ، لأنه مطلع على كل شيء ، لا تخفي عليه خافية فما حذر من خالفة أحكامه وأوامره .

* * *

﴿ إِنَّ اللَّهَ

وَمَلِكُكُمْ يُصْلَوْنَ عَلَى النَّبِيِّ بَنَاهَا الَّذِينَ حَانَتْ مَوْلَانَا صَلَوَا
عَلَيْهِ وَسَلَّمَوا نَسِيلَبًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذِنُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
لَعْنُهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعْدَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾
وَالَّذِينَ يُؤْذِنُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يُغَيِّرُ مَا أَكْتَبُوا
فَقَدِ احْتَمَلُوا بِهَنَاءٍ وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴿٥٨﴾

[معاني الكلمات والجمل]

- | | |
|---------------------------------|--|
| يُصْلَوْنَ عَلَى النَّبِيِّ | : يثنون عليه باظهار شرفه ، وتعظيم شأنه . |
| يُؤْذِنُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ | : يرتكبون ما يكره الله ورسوله من الكفر والآثام . |
| لَعْنُهُمُ اللَّهُ | : أبعدهم الله في الدنيا والآخرة عن رحمته . |
| عَذَابًا مُهِينًا | : عذابا فيه غاية الإهانة لهم . |
| بِغَيْرِ مَا أَكْتَبُوا | : بغير جنابة يستحقون عليها الأذى . |
| احْتَمَلُوا | : حلوا مع المثلقة . |
| بِهَنَاءٍ | : كلما قضيوا بهت سامعه وبخيرة . |
| وَإِنَّمَا مُبِينًا | : وذبا وأضحا ظاهرا . |

الإيضاح

نشريف للنبي - بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - لم يعهد له مثيل :

أظهر الله سبحانه وتعالي تشريفه لرسوله بما لم يعهد له مثيل من قبل ، وذلك بيان مكانته في الملا الأعلى ، وعترته عند الله وملائكته ، سواء في حياته أو بعد مماته ، فالصلة عليه من الله تعالى رحمته ورضوانه ، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار له ، ومن أمته الدعاء والتعظيم لشأنه ، وتلك مكرمة كبيرة . . . فإن الله يشفي عليه ، ويغفه عليه رحمته ورضوانه ، وملائكته كلهم الذين شرفهم الله بخاصتهم إلى ذاته العلية يصلون عليه داعين الله له بها يلتق به وهو الرحمة المقربة بالتعظيم . . . وشاء الله تشريف المؤمنين بالاقتداء بجلاله في الصلاة عليه ، وإظهار تعظيمه . مكافأة لبعض حقوقه على الخلق ، لأن الوساطة في كل نعمة وصلت لهم ، ولم تحدث هذه الترفة لمن قبله . . تعظيم لشأنه ، وإظهاراً لشرفه - بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - كي أضاف الله صلاة المؤمنين إلى صلاته ، وتسلیهم إلى تسلیم الملائكة ، ليشرك الكون السفل مع الملا العلوى في الصلاة والسلام على رسوله الكريم . وبما لها من مرتبة عظمى ! ! . . أن يتردد ثناء الله على نبيه في أرجاء الكون ، وحيات الوجود ، وتحفل به الملائكة دعاء له ومحقرة ، ويشرف الله المؤمنين بالاشتراك في هذه العبادة التي تصلهم بالأفق العلوى لينالوا بها رضوان الله تعالى وثوابه .

روى النسائي عن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه «أن رسول الله - بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - جاء والبشرى ترى في وجهه، فقلنا: إنا لنرى البشر في وجهك، فقال: جاءني جبريل فقال: يا محمد إن ربك يفترك السلام ويقول: أما يرضيك إلا بصل عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشراء، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراء».

صفة الصلاة على النبي - بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ :

لا خلاف بين العلماء في وجوب الصلاة والسلام على النبي - بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - ، وذهب

بعضهم إلى وجوبها في الشهادتين من كل فرض صلاة، بل قال آخرون إنها تجب في كل مجلس، وعند ذكره، ورغباً في الإكثار منها من غير تقييد بمكان أو فريضة، فإن أمرها عظيم، وفضلها كبير، وهي من أفضل القراءات.

وصيغ الصلاة والسلام على رسول الله كثيرة، وأفضلها ما يرويه البخاري
بسنده عن كعب بن عجرة قال: قيل يا رسول - ﷺ - أما السلام عليك فقد
عرفناه، فكيف الصلاة؟ قال: قولوا: اللهم صل عل محمد، وعل آل محمد، كما
صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم إنت حيد عيد».

سلام المؤمنين عليه - ﷺ - يكون في الشهادتين في الصلاة، وعند لقائه في
حياته، وعند زيارة قبره الشريف، يقولون: السلام عليك أباها الشَّيْن ورحمة الله
وبركاته.

وإنما ذكر السلام عليه مؤكداً في الآية الكريمة «وَسَلِّمُوا تَسْلِيْمًا»، لأنَّه منسوب
إلى البشر، ولم تُذَكَّر الصلاة عليه مؤكدة لأنَّها منسوبة إلى الله والملائكة، فكانت
غنية عن التأكيد.

ولا شك أن الصلاة والسلام على رسول الله ذكر له - ﷺ - ليحيا في نفوس
أمته بشرعيته وعلمه الحنيفة، فيتقربوا بأمره ويتحلّوا بخلقه، ويقتدوا بأعماله،
ويتبعوا منهجه - ﷺ .

التحذير من النطاؤل بالإيذاء لله ورسوله - ﷺ :

بعد أن شرف الله نبيه، وأعلن احترامه في بيته، وفي الملا الأعلى، حذر من
 بشاعة إيذاء الله ورسوله، وإيذاء الله يكُون بالكفر، ونسبة ما لا يليق إلى الله ..
 كالولد والصاحبة، وعدم الامتثال لأوامره ونواهيه، وإيذاء الرسول يكُون بالصاق
 عب فيه، أو نقص به، أو الطعن في أهل بيته، أو تكليبه، وعدم الامتثال له ..
 .. ويكون في الأقوال كقوله فيه: ساحر، وشاعر، وكاهن، وفي الأفعال ..
 مثل كسر رياعيته، وضع وجهه الشريف يوم أحد، وبالبقاء سل الجزر على ظهره

وهو ساجد في مكة، كي أن اقتران إيمانه الرسول برأيدهم الله يدل على بشاعته وشاعته، ولذلك . . . كان جزاءه العذاب من رحمة الله تعالى، والحرمان من رحابته وفضله في الدنيا والآخرة، ومصيرهم . . . أن هبّا لهم عذاباً مهينا، فيه الملوان لهم، والاستخفاف بهم، والخزي والاحتقار بحالهم.

التحذير من الوقوع في إيمان المؤمنين والمؤمنات:

ثم حذر الله تعالى من إيمان المؤمنين والمؤمنات، لأنهم أتباع النبي - ﷺ - فلا يصح أن يسبّ بهم ما لم يفعلوه بيتانا وزوروا، وبغير جرم ارتكبوه، كجهة الظن بهم، والواقع في أعراضهم، والتقليل من شأنهم أو نسبهم أو حرمتهم، ومن يغترف بذلك فقد احتمل بيتانا كبيراً، وارتكب ذنبًا ظاهراً عظيماً.

والمؤمنون والمؤمنات عرضة في كل زمان ومكان لهؤلاء الأفاقين الذين يتقولون عليهم، وفي كل بيته من الأشرار من توسيع لهم دناءتهم الخوض في إيمان الشرفاء، والتطاول في حقهم والتعدي عليهم بالقول والفعل، ولقد حذر الله تعالى من هذا في مراجع كثيرة من القرآن الكريم، وفي معنى هذه الآية الكريمة قول الله تعالى:

﴿ وَمَنْ يَكْبِرْ خَطَايَةً أُولَئِكَ مِنْ بَرِّهِ بَرِّيَّا فَقَدْ أَخْتَلَ بِهِنَّا رَأْكَ أَمْبَى ١٦﴾

وفي سورة الحجرات وغيرها آيات تؤازر معناها ومحتوها.

روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لابن بن كعب: قرأت البارحة هذه الآية . . . ففرزعت منها «إن الذين يوثقون . . . الآية» فقال له أبي: يا أمير المؤمنين لست منهم، إنما أنت معلم ومقوم .^(١)

(١) سورة النساء - الآية ١١٦

(٢) تفسير القرطبي

وروى أنها نزلت في عل - كرم الله وجهه .. فإن المنافقين كانوا يزدونه
ويكذبون عليه ، وقيل نزلت في أهل الإفك .. كعبد الله بن أبي وناس معه .

* * *

﴿ يَنْأِيْهَا النَّبِيُّ قُلْ

لَا زَوْجَكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُذْهِبُنَّ عَلَيْهِنَّ مِنْ
جَلَبِيْهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَعْرَفَنَ فَلَا يُؤْذِنُ وَكَانَ اللَّهُ

غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ *

[معاني الكلمات والجمل]

يُذْهِبُنَّ عَلَيْهِنَّ	: يسترن بالارحام، والسدل وجوههن وأبدانهن.
جَلَبِيْهِنَّ	: جمع جلباب، وهو ثوب ساتر لجسم المرأة تلبسه فوق نِيَابِهَا.
أَدْنَى أَنْ يَعْرَفَنَ	: أقرب إلى معرفة الحرة الشريفة من غيرها.
فَلَا يُؤْذِنُ	: لا يتعرضن لأذى الفساق والجهال.
غَفُورًا	: ماحبًا إثم ما سلف من عدم الستر باللباس الساتر.
رَّحِيمًا	: رحيمًا بعباده لا يكلفهم ما لا يطيقون.

الإِيْضَاح

بـ حجاب المرأة المسلمة:

بعد أن هدد الله المؤذنين وحذرهم أمر النبي - عليه السلام - أن يرشد المتأذين إلى بعض طرق النجاة من أذى الفساق والمنافقين يستتر نسائهم وبناتهم باللباس المعيز

السابع على جميع البدن.

وكان من عادة العربيات التبذل وكشف الوجه كما تفعل الإمامه، وفي ذلك مذكرة لنظر الرجال اليهن، وتطاول الفساق عليهم.

وروى أن النساء كن يخرجن ليلاً لقضاء حاجاتهن بين النخيل والغيطان في لباس متهد لا يميز الحرة من الأمة، وكان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل فيعرضون للنساء، فإذا رأوا المرأة عليها جلباب قالوا: هذه حرة فكفوا عنها، وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب قالوا: هذه امة فوثبوا عليها، وربما تعرضوا في أثناء ذلك لحرة فإذا رأهم أحد .. قالوا خلتناها امة، فامر الله سبحانه الخرائر من النساء أن يتميزن بالاحتشام وستر الجسم بالجلباب.

الأمر بالمحجوب لعامة نساء المسلمين ونناتهم:

خاطب الله نبيه أن يأمر نساء ونساء المؤمنين بارتداء اللباس الشرعي الساتر للجسم، السابل على جميع البدن، الواقى من النظارات الجارحة، المانع من الكلمات اللاذعة .. وليس في هذا تضييق على المرأة وإنما هو صون لعفافها، وتكريم لها، ومراعاة لضعفها من أصحاب النفوس المريضة والفساق من الرجال.

وخاطب الله النبي في شأن أزواجه وبناته أولاً - ومن الطاهرات العفيفات ..

ليكنْ قدوة لغيرهن من النساء في امثال أمر الله وطاعته، ونساء المؤمنين كذلك عليهن الامتثال لأمر الله فتسترن ويرجعن على أجسامهن كلها حتى وجوههن - إلا ما يرى به الطريق - الجلباب السابع، ولا يبدئن زينتهن، فإن ذلك يميزهن عن الإمامه والخليلات، ويدفع عنهن الأذى ومقالة السوء، وتعرض الفساق لهن ، وذلك أقرب ليكنْ بعيدات عن النية بالفاجرات، ويعرفن بالاحتشام والعفة والتضييف، فلا يطبع فيهن أصحاب القلوب المريضة، الذين يعرضون بالأذى للمبدلاته، فإن المترجم يطبع فيها ضعاف النفوس والقلوب، ويتكون هدفه للإيذاء . وكم من امرأة عفيفة ظهرت في الشارع سافرة فلافت من الأذى ما يندى له الجبين، وبخاصة في عصمنا الذي انتشرت فيه الخللاعة وشائع في الفجور، وكثير المهازيبل والمتحللون،

وأدعية المدنية والأخلاق

وفي اتباع الأدب الإسلامية - ومنها الحجاب الشرعي للمرأة - سعادة للأسرة، وحفظ على شرفها، ومنع لإيذانها . . . والله غفور لما سلف من التغريط في حق اللباس الشرعي، والإخلال بالستر . وكثير الرحمة بعباده فلا يشرع لهم إلا ما فيه خيرهم وسعادتهم، وعليهم الامتثال والطاعة .

صفة الحجاب الشرعي :

كثر كلام العلامة في صفة الحجاب الشرعي ، ولكنهم أقروا إلا يصف أو يشفّ عنها تحت الثياب ، ويغطى الجسم والرأس والجib (فتحة الصدر من الثوب) ولا يكرن ذلك إلا بجلباب كايس ، يشبه الملاعة ، أو العباءة ، أو الرداء ويكون فوق الملابس ، ويكسو كل الجسم . . . ويرى بعضهم أن تغطية الوجه إنما تكون عند الفتنة ، فإذا لم تؤمن الفتنة بحرم كشفه ، واستثروا أيها بعض الحالات يجوز فيها كشف الوجه ، وذلك . . إذا كان الرجل خاطباً للمرأة ، أو كانت في حالة إحرام بالحج فلأنه وقت عبادة والفتنة مأمونة (وفي المراجع متسع لمن أراد المزيد) .

ولكن المرأة في بيتها مع زوجها تلبس ما شاءت ، فلم يفرض الحجاب على المرأة بهذه الصورة إلا حين خروجها إلى الشارع أو رؤية الآجانب من الرجال وفي هذه تكرييم لها ، وحماية للمجتمع من ظهور الفساد ، وإنشار الفاحشة .

وقال عمر - رضى الله عنه - ما يمنع المرأة المسلمة إذا كانت لها حاجة أن تخرج في أطهارها أو أطهار جايتها مستخفية ، لا يعلم بها أحد حتى ترجع إلى بيتها .
وفي صحيح مسلم عن أم عطية قلت يا رسول الله : إحدانا لا يكرن لها جلباب فقال : «تليها أختها من جلبابها» .

ياتك المؤمنين :

إنه لا أمر بعد أمر الله ، ولا تشريع بعد تشريع الله ، ولا حكم أفضل من

حَكْمُ اللَّهِ . . فَلَكُنْ أَبْتَهَا الْمُؤْمِنَاتُ طَائِعَاتٍ ، قَاتِنَاتٍ عَابِدَاتٍ حَمْجَبَاتٍ ، حَافِظَاتٍ لِشَرْفِكُنْ مِنْ أَذْنِ السُّفَلَةِ وَالْفَسَاقِ وَالْمُتَقْوِلِينَ ، وَمِنْ التَّكَعُّبِينَ فِي الشَّوَّارِعِ وَالْعَرْقَاتِ ، وَمِنْ سَخَافَاتِ الْحَمْقَى وَالْمَنْطَلِينَ .

﴿ هَذَا بَلْغٌ لِلنَّاسِ وَلَيُنَذَّرُوا يَهُ وَلَيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَرَبٌّ وَلَيَأْتِيَ أُولُوا
الْأَلْبَابِ ﴾^(١)

* * *

(١) سورة ل Ibrahim الآية ٥٢ .

* لَئِن لَّرَبَتِي الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ
 فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ وَالْمَرْجُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغَرِّنَّكَ رِبَّهُمْ
 ثُمَّ لَا يَجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونُونَ أَيْنَا ثَقَفُوا
 أَخْذُوا وَقْتُلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سَنَةُ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلُوا مِنْ قَبْلِ
 وَلَنْ تَجِدَ لِسْنَةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

[معاني الكلمات والجمل]

والذين في قلوبهم مرض : ضعف إيهان وفسق وفحور،
 والمرجعون في المدينة : المزليون عفاند الناس بإشاعة الأكاذيب والأباطيل
 الملفقة.

لا يجاورونك فيها : لا يقعون في المدينة ولا يسكنونك فيها.
 إلا قليلا : إلا وقتا قليلا جدا بمقدار التغاط متعاهيم
 وجلالتهم.

ملعونين : مبعدين عن رحمة الله تعالى.
 أينما ثقروا : في أي مكان وجدوا.
 أخذوا وقتلوا تقتل : أسرروا وقتلوا أشد قتل لا شفقة معه.
 سنة الله في الذين خلوا : سن الله تعالى ذلك في الأمم الماضية.

الإيذاح

تهديد الله للمنافقين ومرضى القلوب والمرجفين :

إن المنافقين الذين يصررون الأذى الله ولرسوله وللمؤمنين والمؤمنات ويظهرون مرض قلوبهم في الفسق والفحش، وتتبع النساء، والتعرض لهن، وإغرائهم بالفاحشة، ويكتبون لجماعة المسلمين بإشاعة الأكاذيب، وترويج الأباطيل بالإرجاف الذي يقت في عضدهم، ويضعف شوكتهم، ويقتل الحماسة والإقدام - سواء في وقت الحرب أو غيره . إن الذين يقومون بذلك من أهل التفاق ومن عل شاكلتهم . . . أقسم الله تعالى بنفسه مهداه لهم أنه إن لم يكف هؤلاء الذين جمعوا هذه الصفات النعيمية ويتهما عن الاعمال القبيحة، لنحرضنك بهم، ولسلطنك عليهم، وندعونك إلى قتالهم وقتلهم، ونعيهم من البلاد فلا يسكنون معك في المدينة إلا زمانا يسرا، ويتهمني جوارهم لك بالهلاك أو الإخراج .

وهذا الوعيد ينافي من اتصف بصفة واحدة من الصفات الثلاث، فينطبق التهديد على المنافق الذي يتحقق منه الإيذاء لله وللمسلمين سرا، أو من في قلبه مرض فيؤذى المسلمين في سائرهم، أو يقوم بترويج الإشاعات وتلقيق الأكاذيب، وبخاصة زمن الحرب، فيندفع ما يسوء المسلمين من عدوهم . . . بالإرجاف المزيل للثبات، والشكك المضعضع للقوى المعنوية

حكم الله فيهم ومصيرهم .

لقد حكم الله عليهم بأهم معدون عن رحمة حين بقائهم هذا الزمن اليسر يعقدر ما يلتقطون بعض متعهم مناهيin للإجلاء والطرد، وتطهير المدينة منهم، ومن آثار لعنة الله عليهم أن يظلوا أذلة مقهورين مغلوبين، ولا يجدون من يزورهم إذا أخرجوا، وأبسا كانوا يطاردوا، وتهدر دمائهم، وإذا ظفر بهم في مكان قبض عليهم وأسروا، وقتلوا قتلا لا شفقة معه . . جزاء وفاقا .

وقد فعل ذلك بهم رسول الله - ﷺ - فإنه لما نزلت سورة براءة جمعهم وصعد على المنبر، وقال: يا قلن قم فانخرج فإنك منافق، ويا قلن قم . . . فقام إخوانهم من المسلمين وتولوا اخراجهم من المسجد.^(١)
ولا عجب في ذلك . . . ففي زماننا يطارد الجواهيس، والخارجون على الدولة، والتعاونون مع العدو ضد بلدتهم حين ينكشف أمرهم بعد تظاهرهم بالوطنية والأخلاق.

سنة الله لم تتغير في شاهيم

إن حكم الله على هؤلاء باللعنة والشريد والتغليل حيث يظهر بهم . . . هو سنة منها الله تعالى في كل من نافق رسول الله، وسعى في إضعافهم، وتوهين دعواهم بالشائعات والأكاذيب، ولن تبدل سنة الله تعالى في شاهيم إذا استمرا على ذلك، ولم يرجعوا عن غيهم وضلالهم، ولا يقدر أحد على تغييرها، لأنها مبنية على الحكمة الإلهية، وعليها بدور أمر التشريع ومصلحة المسلمين.

وكلام الآية الكريمة فيه إيناس وتسلية لرسول الله - ﷺ - لئلا يحزن على وجود المافقين، فلم يخل منهم زعن من أرباب الأمم الماخية، وبسلط الله عليهم أهل الإيمان لينالوا جزاء تفاقهم . . . كما يظهر مما تقدمها مدى قوة المسلمين في المدينة، واقتدارهم على مواجهة الدسائس، وازرواء المافقين، وكثير منهم خاف وانهني بعد ذلك، ونال جزاءه من أظهر منهم الكفر، ومن يقى منهم عاش مهدا.

* * *

(١) قال المفسرون: وقد أقرى بهم فضل له: شهدوا التحلف والمتبعين، وأطلق عليهم [٩] راجع زاد المسن، والتحريم، ٨٣.

(٢) حاثة الصاوي، وزاد المسن للمحورى، وفيسر الفرضى

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ الْأَسْعَةِ قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ الْأَسْعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعْدَهُمْ سَعِيرًا ﴾ خَلِيلِيْنَ فِيهَا أَبْدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ يَوْمَ تُقْلَبُ وُجُوهُهُمْ فِي الظَّارِيْرِ يَقُولُونَ يَذَلِّلُنَا أَطْعَنَا اللَّهَ وَأَطْعَنَا أَرْسُولًا ﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطْعَنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَاضْلُلُنَا السَّبِيلًا ﴾ رَبَّنَا إِنَّمَا ضِعْفُنَا مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْتَمْ لَعْنَا كَبِيرًا ﴾

[معاني الكلمات والجمل]

- يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ الْأَسْعَةِ : يَكْتُرُ النَّاسُ هَذَا الرَّوْلَ : مَنْتَ تَقْرُئُ الْأَسْعَةَ .
- وَمَا يَدْرِيكَ : وَأَيْ شَيْءٍ أَعْلَمُ بِهِ وَقْتُ قِيَامِهِ؟
- لَعَلَّ الْأَسْعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا : لَعْنَهَا تَقْعُدُ فِي وَقْتٍ قَرِيبٍ .
- لَعْنَ الْكَافِرِينَ : أَبْعَدُهُمْ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ .

سعيلا
ولها ولا نصيرا
تقلب زوجهن في النار : تقلب وجوههم من جهة إلى أخرى كاللحم يشوى
بالنار.

وقالوا	نارا مسيرة شديدة الاتقاد .
أطعنا سادتنا	من يمنع عبده العذاب والخلود فيه .
فأضلوا السبيل	تقلب زوجهن في النار : تقلب وجوههم من جهة إلى أخرى كاللحم يشوى بالنار.
ضعفين من العذاب	.. وقال الأتباع الذين وقعوا في ضلال من اقتدوا بهم .
والعنهم لعنا كثيرا	جمع سيد ، وهو كبير قومه ، ومثلهم العلماء والأمراء .
	فأبعدونا عن طريق المدى .
	أى مثل عذابنا ، لأنهم ضلوا وأضلوا غيرهم .
	الله أنزاع اللعن وانقطعه .

الإيضاح

سؤال الناس عن الساعة وتحذيرهم منها:
 لقد كثر سؤال الناس عن القيمة ، وعن يوم وقوعها . . . بعد أن ترددتهم
 الرسول - عليه السلام - بعذاب شديد يومها . . . ولقد دفعهم إلى كثرة التساؤل استعجالهم
 لها ، وشكّهم في وقوعها واستهزأ لهم من الحديث عنها ، وكان المشركون يسألون عنها
 ساخرين في استعجالهم لها ، والمناقفون يتعتون في السؤال عنها لعلهم بما يحجب
 به الرسول الكريم ، والميهود يحاولون بسؤالهم عنها امتحان رسول الله - عليه السلام -
 واختباره . . . بعد أن عرفوا من التوراة أن علمها عند الله . . . فلعله يُنزع ويُحيي
 بغير ذلك . . . وتكرر السؤال منهم : متى تقوم الساعة ؟! «يسألك الناس عن
 الساعة» عن أصل ثورتها لأنهم كانوا يكررونها - وعن وقت وقوعها . . . والجواب . . .
 لغته الله لنبيه بأن مردّها وعلم قيامها لا يعلم به إلا الله ، فلم يطلع عليها أحد ،
 فلقد استأثر الله بها .

ثم حذرهم من قرها في استههام إنكارى «وما يدرك لعل الساعة
 قريب» وفي الكلام تهديد للمستعجلين لها ، وتبكيت للمحتسين والمتخفين

للرسول ﷺ، وكذلك توبخ للمستبطئين لها الغافلين عنها. وفي معناها قول الله تعالى:

﴿ أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حَابِبُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُغْرِضُونَ ① ﴾

وإنما أخفي الله وقت قيامها، ليكون العبد في نفع دائم لها، وفي استعداد متعمد لفجاتها، وعلى حذر دائم منها، فربما تأخذ الناس على غرة من أمرهم في أي وقت. فما يدركك أبداً السائل لعل زمن الساعة يكون قريباً جداً، فهل عملت ما ينذرك من أهواها؟! . . .

﴿ يَتَتَّعِذْلُ إِلَيْهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَّا إِنَّ الَّذِينَ يُعَارُونَ فِي الدَّارِيَةِ لَنِي خَلَّلَ بَعِيدٌ ⑫ ﴾

حال السائلين عما ينكرون لها:

إن الله لعن الكافرين فأبعدهم عن رعايته، وأقصاهم عن عطفه، وطردهم من رحمته، وهو لم نارا مستعرة متوقفة، فهي معدة جاهزة لهم، يخلدون فيها دائياً، ويمكثون فيها أبداً، وهم عبودون من كل عuron أيسرون من كل نجا، فلا ولن يحفظهم من سعيرها، ولا ناصر يحميه من لظاها، ولا شافع ينقذهم من أوارها، ولا أمل في الخلاص منها بمساعدة ول أو نصير.

النار تفشاهم ويتحسرون على ما كان منهم:

لا يجد هولاً ناصراً يرمي ثقل أجسامهم في النار، وتحول وجوههم فيها من جهة إلى جهة . . كاللحم بشوى، وتبدل عليها الأحوال، وتقلب بها الأحوال كما

(١) سورة الآية الآية الأولى.

(٢) سورة الشورى الآية ١٨.

تُقلب شدة الغليان ما في القدر . . وساعتها تتعلق منهم آفة الندم ، وأنبة الغياب ، ومراة الحرة . . يقوها الرؤساء منحرفين نادرين : يا ليتنا أطعنا الله في الدنيا ، وأطعنا رسوله فيها جاءنا به ، فتخلاص من هذا العذاب (نَدِمَ الْبَغَةُ وَلَا سَاعَةً مُتَدَمِّرًا) ولا استجابة لهم ، فقد فات الأوان ، . . وفي معناها .

﴿وَيَوْمَ يَعْلَمُ بَعْضُ الظَّالِمِ عَلَىٰ يَدِهِ يَقُولُ يَتَبَتَّئِنِي الْمَحْدُثُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾^(١)

اعتذار مصحوب بالنقاوة من الآباء :

ثم ذكر سبحانه ما سيعتلد به الآباء لاقاء التباعة على رؤسائهم الذين أصلوهم ، وهو اعتذار خاتم لا يفيد ، ولا يخلص من العذاب . . قالوا : يا ربنا . . إنا أطعنا سادتنا ، ورؤسائنا ، وأمراءنا ، وعلماءنا ، أطعنا أمنا في الفسالة ، وكبراءنا في الشرك واقتدينا بهم ، فعلمونا الانحراف عن طريق المهدى ، وزينوا لنا الكفر ، وأضلوا عن سراء السبيل . . وفي هذا الاسلوب القرآني زجر عن التقليد الاعمى للآخرين .

ثم يدعون ربهم على سبل النقاوة والتنفس من أورادهم هذا السعير . . ربنا . . عذبهم مثل عذابنا ، مثلاً لأنهم خلوا ، ومثلاً لأنهم أخلوا معهم . ربنا . . أطروهم من رحمةك ، واحزبهم حزناً عظياً ، و﴿أَلَعَنْتُمْ لَعْنَةً كَيْرًا﴾
ومع هذه الإتاحة إلى أده . . فتكلهم في العذاب المهين سواء ، لأنهم عطلوا عقولهم عن الرشاد ، وأغلقوا قلوبهم عن المهدى ، واختاروا طريق الضلال ، وأثروا على طريق الحق المبين . . فالنار مأواهم ، و Gehennم مصيرهم ، وبئس هذا المصير !

﴿ يَنْبَيِّبُ ﴾

الَّذِينَ هَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ هَادُوا مُؤْمِنِي قَبْرَاهُ اللَّهُ
مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ⑥ يَنْبَيِّبُ الَّذِينَ
هَامَنُوا أَتَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ⑦ يُصْلِحُ لَكُمْ
أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ⑧ ﴾

[معاني الكلمات والجمل]

- يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا : المراد بهم النافعون الذين أظهروا الإبان.
- كَالَّذِينَ أَذْوَى مُوسَى : كالذين أرسل إليهم ونسوا إليه عيوبها ونقائص
لبيت فيه.
- فَبِرَأْهُ اللَّهُ : أظهر الله براءته مما تسبوه إليه.
- وَجِيهًا : صاحب جاءه وعزلة عند ربه يجعله مستجاب
الدعوة.
- قَوْلًا سَدِيدًا : قوله صادقاً تشهدون به الحق.
- يُصْلِحُ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ : يرفقكم لصالح الأعمال ويقبلها منكم.

الإيضاح

توجيه من الله ملن أعلن إيمانه :
كان المنافقون والمرجفون في المدينة يتحينون الفرصة للليل من رسول - **ﷺ** ،
وينشرون افتراءاتهم عليه . . . كما في حديث الإفك ، وفي قصة الغافر . . .
وغيرها .

قال صاحب **الظلال** : ويبدو أن زواج الرسول - **ﷺ** - من زينب بنت
جحش - رضى الله عنها - مختلفاً في ذلك عرف الجاهلية التي تعمد الإسلام أن
يُطْلِه هذه السابقة العملية - يبدو أن هذا الزواج لم يسر بسهولة ويسراً ، وأنه قد
انطلقت ألسنة كثيرة من المنافقين ومرضى القلوب ، وغير المثبتين الذين لم يتضعوا
في نعوشهم التصرّر الإسلامي الناصع البيط . . . انطلقت - هذه الألسن - تغمس
وتلمز ، وتزول وتعترض ، وتهمن وتوسوس ، وتقول قولًا عظيمًا . . . وكان بعض
المؤمنين يقع في حبالهم ويسايرهم في بعض ما يروجون . فجاء القرآن الكريم
بحذرهم إيهاد الناس - **ﷺ** - كما أذى بنو إسرائيل نبيهم (موسى) عليه السلام -
ويوجههم إلى سداد القول ، وصالح العمل ، وفي ذلك الفوز العظيم لهم .

التحذير من إيهاد الناس - **ﷺ** - كما أذى اليهود موسى :
يحذر الله من أعلنوا إسلامهم ، وأظهروا إيمانهم ، الا يلذوا الرسول الكريم
بغول يكرهه ، أو فعل يغضبه ، ولا يتباهوا باليهود في إهانتهم لرسوهم (موسى)
عليه السلام - ويضرب المفرون مثل ذلك . . . بأنه - **ﷺ** - قسم غبية ، فقال
رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريده بها وجه الله فذكر ذلك للنبي - **ﷺ** -
فغضب وقال : «يرحم الله موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبره» .^(١)
وإيهاد بنى إسرائيل لموسى ذكره القرآن الكريم في غير هذا الموضع في آيات

(١) رواه الشیخان عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه .

كثيرة ومهو فيها بالسحر والجحود ، وأنه مهين حقير ، وقالوا له : لن نؤمن بألهة حس
نرى الله جهراً ، واذهب أنت وربك ففانلا ، كما جحدوا نعم الله عليهم ، وقالوا :
لن نصبر على طعام واحد . . إنها سلسلة من أمثلة الانحراف والإيذاء لرسول عليه
السلام - يجلد الله المؤمنين أن يكونوا مثلهم في هذا الإيذاء ، وذلك الانحراف .

وللمفسرين كلام كثير في أذية قوم موسى له ، وعندوا آراءهم على حب
العب الذي رصده به . . أهو بدني أم خلقي ؟ فقد روى أن قارون حرض بغيا عليه
فعصمه الله من افترائها وكذبها . . وفيه : إنهم اتهموه بقتل هارون لما خرج معه
إلى الطور ومات هناك . . ثم انفتح لهم أنه مات حتف نفسه ، وقد برأ الله موسى
من قوله بأنه أذر^(١) وأبرص أو به آفة . . حيث كشف عن حجمه فهرا فرأوه سليما
صحيحاً . .

وكان موسى وجوباً وعظياً عند الله تعالى ، وهذا مكانة رفيعة . . فهو كليم
الله ، مستجاب الدعوة ، والله عباده رسوله من كل ما ينسب إليهم ، ومحمد - ﷺ -
أفضلهم وأولى بالبراءة مما ينسب إليه .

وروى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود قال : «أني رسول الله - ﷺ - مال
قصمه ، قال فصررت بربحين وأحد حما يقول لصاحبه : والله ما أراد بقصته وجه الله
ولا الدار الآخرة ، قال : ثبتت حتى سمعت ما قالا ، ثم أتيت رسول الله - ﷺ -
فقلت : يا رسول الله إنك قلت لنا : لا يبلغنى أحد عن أصحابي شيئاً ، وإن
مررت بفلان وفلان ، وما يقولان كذا وكذا . . فاحر وجه رسول الله ، وشق
عليه ، ثم قال : دعنا منك . لقدر أذدي موسى بأكثر من هذا فصبره .

ومن هنا يتبيّن أن إيذاء موسى كان بالقدح في أعماله وتصرفاته ، لا بالعب
في بدنـه كما روى .^(٢)

(١) (عن كبار المعتبرين)

(٢) تفسير الزمخشري

الله يوجه المؤمنين إلى تسييد القول والعمل :

ارشد الله المؤمنين إلى نفوي الله في أعمالهم وأقوالهم، حتى لا يستحقوا عقابه، وعليهم قبل أن يتبعوا المذاهبين والمرجفين في أقوالهم على رسول الله والمؤمنين ... أن يتبنوا ويقولوا قولًا سديدا، قاصدين الحق ... عن طريق صدق الكلمة، واستهداف الصواب، وتحري الحقيقة، ولا يفتروا على الرسول كذبا، ولا يتقولوا عليه قولًا جائرا في زواجه من زينب، إنكم إن فعلتم ذلك ... يصلح الله لكم أعمالكم بسبب تقواكم، ويتقبل حنائكم، ويوفقكم في أعمالكم، ويعذر لكم ذنوبكم، ويسحو سيئاتكم، وكتم بذلك مطاعين الله ورسوله، ومن يطعن الله ورسوله في الأمر والنهي فاز فورًا عظيمًا، وقال خاتمة ما يرجوه في دنياه وأخراه .
وفي طاعة الله ورسوله ، والاستقامة على منهاج الله فوز عظيم ، يكمن في سداد القول ، وحسن الفعل ، واستقرار النفس ، واطهتان القلب ، والتوفيق في الحياة ، والنجاة في الآخرة ... وذلك كله هو الفوز العظيم .

* * *

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأُمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجَبَالِ فَابْتَدَأَنَّ أَن يَعْهِلْنَاهَا وَأَشْفَقُنَّ مِنْهَا وَحْلَهَا إِلَيْنَا إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ⑦٢ ٤ وَيُعَذِّبَ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَالظَّافِقِينَ وَالظَّافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ⑦٣ ٥ ﴾

[معاني الكلمات والجمل]

- عَرَضْنَا الْأُمَانَةَ : نظرنا إلى استعداد السموات والأرض والجبال لحملها.
- الْأُمَانَةَ : ما يتوخى عليه الإنسان من أمور الدين والدنيا، ومعناها هنا الطاعات والتکاليف الشرعية.
- فَابْتَدَأَنَّ أَن يَعْهِلْنَاهَا وَأَشْفَقُنَّ مِنْهَا وَحْلَهَا إِلَيْنَا : اختلفُوا عن حلها، لأن تكوينهن غير مستعد لحملها.

- | | |
|---|------------------------|
| : خفْنَ من هول الوفاء بها . | وأشفُقُنَّ مِنْهَا |
| : تحملُها . . فتكتويته مستعد لحملها . | وحلُّها الإِنْسَان |
| : شدید الظلم لنفسه . | إِنَّهُ كَانَ غَلُومًا |
| : كثير الجهل لطاقته في فهم عواقب الأمور . | جَهْوَلًا |
| : هذه اللام تسع لام العاقبة . . فهُنَّ توصلُونَ إِلَى | لِيُعَذَّبَ اللَّهُ |
| نتيجة ما قبلها ، لأن عاقبة العاصي العذاب . | |

الإِبْصَاح

الطاعة والتکاليف من عظام الأمور:

بعد أن ذكر الله تعالى عظم شأن الطاعة لله ولرسوله ، وفوز صاحبها فوزا عظيما . . أتبع ذلك بيان أن حملها شاق ثقيل على النفوس ، فالتكاليف الشرعية التي اثنع الله تعالى الإنسان عليها تتطلب جهدا كبيرا في أدانها على وجهها الصحيح . وكلفة الله بها لما أودع فيه من الصفات التي ميزها بها عن غيره وكانت منشأ هذا التكليف ، وهي . . جموع العقل المفكر المنتفع ، وحرية الإرادة . . ليتعذر من يسخرها فيها برضي بارنه وخالقه ، ويكون أهلا لهذا الفوز العظيم .

تصویر حقيقة الأمانة :

إِنَّا هَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجَبَالِ فَابْيَنْ أَنْ يَحْمِلُنَّهَا وَأَشْفَقُنَّ مِنْهَا وَحلُّلُهَا إِلَيْنَنْ إِنَّهُ كَانَ غَلُومًا جَهْوَلًا .

هذا تصویر لعظم الأمانة ، ونقل حلها . . وتمثل لحقيقة خيامتها وعظمتها ، وتفخيم شأنها . . فإنها من الثقل بحيث لو عرضت على أضخم المخلوقات من السموات والأرض والجبال وهي من القوة في خايتها لاعتذر عن

حلها، وخففت من هول الوفاء بالتراماتها . . . لو كانت ذات شعور وإدراك .
 فلم يخلق الله السموات والأرض والجبال متعددة لتلقي الأوامر والتواهم
 والتبيّن في عواليها . . . ولكنها تعطى الله في وظيفتها بحكم خلقها وتكوينها . . .
 دون شعور أو اختيار منها . . . فالسموات تؤدي دورها الكروي أداء كاملًا ، والأرض
 تقوم بدورها وفق إرادة الله ، وتखيره لها ، والجبال مع خصامتها وصلابتها تعطى
 رها بلا جهد منها ولا اجتهاد . . . وكلهن أشفقن من أمانة التبعية ، وتحمل المسؤولية .

وحلها الإنسان :

ولكن الإنسان الذي يبدو صغيرا بمحاسب السموات والأرض والجبال ، حل
 هذه الأمانة الضخمة بإرادته و اختياره . . . وهو عارف لثواب فعلها ، وعقاب
 تركها . . . قيل أداءها بعد عرضها عليه ، وتكليفه إليها يوم أخذ الله عليه الميثاق . .

**﴿ وَإِذَا أَخْذَ رَبَّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرْتُمْ هُمْ وَأَنْهَدُتُمْ عَلَىٰ أَنفُسِيْمْ
 الَّتِيْرَكُمْ قَالُوا إِنَّنَا نَسْدَنَا . . . ﴾**

وكانت مخاطرة أن يتحمل الإنسان التراماتها ، والوفاء بها بما ميزه الله . . .
 وكرمه على سائر خلقه ، وجعله مستعدا لتلقيها والقيام ببعتها . . . مع ضعفه . . .
 وقلة علمه . . . وقصر عمره ، وعليه أن يتبع ما يمزويتها بعد أن اختارها دون
 السموات والأرض والجبال . . . إنه كان مفرطا في الظلم لنفسه . . . لتفسيره في الوفاء
 بما تعهد به أمام الله تعالى ، وكثير الجهل بطاقته وقدراته في فهمه لعواقب الأمور ،
 والتزوع عن موجبات الفطرة السليمة ، فلم يعمل ما يقيه من العذاب ، ولم يوف
 بالعهد .

عاقبة حل الإisan الأمانة :

كان اختصاص الإisan بحمل الأمانة مرجحاً لتحمله تبعه اختياره وعاقبة سلوكه، ولذلك هذا الاختيار سبلاً إلى عذاب الذين خاتوا هذه الأمانة . . كالناافقين والمنافقين، والشركين والمرتكبات، لأنهم خانوا الأمانة، وقصروا عن الوفاء بها . . وكان من عاقبتها أيضاً أن يتوب الله على المؤمنين والمؤمنات . . الذين تحملوا الأمانة وقاموا بحقها ونکاليفها، وإن فرط منهم بعض الزلات تحت غضط ما ركبُوا فيهم من نفس وضعف، لأنهم لم يخلعوا ربقة الطاعة، وتداركوا ما صدر من جهلهم وتقصيرهم بالاتابة والتوبة إلى الله تعالى، فيقبل الله توبتهم، وبذلك تتحقق العدالة الإسلامية . . وكان الله عظيم المغفرة، واسع الرحمة لعباده المتفين . . يغفر زلاتهم، ويرسم ضعفهم، ويشفيهم بالغور العظيم على طاعتهم وتوبتهم، ذلك فضل الله بيته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم .

* ولقد جاء في بدء سورة الأحزاب الحديث عن المنافقين، وتوجيهه الرسول - ﷺ -
لعدم طاعتهم والإذعان لهم .

* وجاء في ختامها بيان لسوء عاقبتهم .

* وفي خلاتها . . توجيهات وتشريعات من رب العباد تترتب عليها استقامة الحياة، وفي تنفيذ ما جاء فيها طاعة الله ولرسوله، وتحصل للأمانة ووفاء بالنکاليف . . وفي ذلك فوز عظيم .

* وبذلك . . انسجم استهلال السورة مع وسطها وحسن ختامها،

﴿ وَمَنْ أَصْنَدَّ مِنَ اللَّهِ بِلَا ﴾١٧﴾ .^(١)

(١) سورة النساء الآية ١٧٢

سورة سباء
مكية وأياتها أربع وخمسون

سورة سباء

تقديم :

- ١ - هي إحدى خمس سور من القرآن الكريم بدأت بقول الله تعالى : (الحمد لله)، وسورة سباء من السور المكية، وسميت بذلك لذكر قصة سباء فيها، من باب تسمية الشيء باسم بعضه وكان قوم سباء يسكنون منطقة اليمن، أفاض الله عليهم من جزيل نعمه، فلما كفروا النعمة دعوهن الله بالسيل العر، ومرتفعهم كل عزق، وأصبحوا عبارة لمن أراد أن يعتذر.
- ٢ - وهي ككل السور المكية تهتم بإبراز الحديث عن أساسيات العقيدة . . . من توحيد الله تعالى ، ورسالة الرسل ، واليوم الآخر وبحاجب هذه الأساسيات يأتي الحديث عن قيمة الإيمان والعمل الصالح في ميزان الله ، وعاقبة كفران النعمة ، وبطش الله وقوته .
- ٣ - ويأتي الكلام عن توحيد الله تعالى في مستهل السورة الكريمة ، فهو وحده المن الحق للحمد والثناء ، لأنَّه الخالق المدعاُ الحكيم ، العليم بدقائق الأمور . وكلها من أعظم الدلائل على وحدانية الله وقدرته . وتحدى بعض الآيات الكريمة المشركين في شأن شركائهم ، وثبتت عجزهم وتفسر الشفاعة لهم .
- ٤ - وتنكر الإشارات في السورة عن البعث والجزاء ، وإنكار المشركين لها . . . تارة لمجرد الإنكار ، وأخرى بالاستبعاد ، وثالثة بجهل الميعاد مع بيان الحكمة من البعث ، وتصوير بعض مشاهد يوم القيمة ، وبعض العذاب الذي كانوا به يكذبون : **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِيَنَا الْأَيَّاهُ قُلْ بَلَّ وَرَقَ لَتَأْتِنَاكُمْ** .^(١)

(١) والسور الخمس هي : الأنعام ، والكهف ، وسباء ، وفاطر ، وباختصار الكتاب تغراً ولا يغبراً .

(٢) سورة سباء ، الآية ٣ .

٥ - وتبثت السورة علم الله تعالى وإحاطته ودفته وشموله في أكثر من موضع، ففرد الحديث عنه في مطلعها .. وفي ثناياها .. وقرب خاتمتها «قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقِيْدُ
بِالْحَقِّ عِلْمَ الْغَيْوَبِ».

٦ - وتقرر صدق الوحي والرسالة بالأدلة والبراهين وتوضح موقف المترفين من كل دعوة وتحذر من ينكروها رسالتها بما يحصل لهم يوم القيمة، وتبثت عموم رسالة سيدنا محمد - ﷺ - «وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَّا كَافَةً لِلنَّاسِ بِشِيرًا وَنَذِيرًا» وإن الذين أوتوا العلم يعرفون أنه الحق من ربهم.

٧ - وتقدم صورة مشرقة لا لـ داود الشاكرين الله على نعمه، وفي مقابلها صورة شائهة للبطر والاستعلا، الذي وقع من سبا، وما أصابهم بسبب جحودهم، وعدم رضاهم بنعم الله السابقة عليهم، ثم بعثه بهم، وتنفيذ وعده فيهم «فَعَلَّمْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرْفُثَتِهِمْ كُلُّ مُنْزِقٍ» (٢٢).

٨ - وتقرر قيمة الأدلة والعمل الصالح في ميزان الله دون الأموال والأولاد
**أَمْرُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقْرِبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَ إِلَّا مَنْ كَانَ وَعِيلَ
صَنْلَمَا** ..

٩ - ولقد ختمت قبلها سورة الأحزاب يقول الله تعالى: «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا» فهو واسع المغفرة، وكثير الرحمة، وعميم الفضل بالتنمية على عباده المؤمنين، فاستحق الحمد والثناء لذاته، في الدنيا والآخرة .. فهو مالك السموات والأرض، والحكيم الخبير، والعليم بدقائق الأمور، وهو الغفور الرحيم .. وهذا .. ما يدلت به سورة سبا، فناسب مجئتها بعد سورة الأحزاب واتضح الربط بينها.

(١) سورة سبا الآية ٢٨.

(٢) سورة سبا الآية ١٩.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
 وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْكَفِيفُ الْحَمِيرُ ① يَعْلَمُ
 مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَبْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ
 وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ②

[معانى الكلمات والجمل]

- الحمد لله : الثناء الكامل لله بها هو أهله.
- له ما في السموات وما : له كل ما في الكون خلقاً وملكاً وتصرافاً.
- في الأرض
- وله الحمد في الآخرة : لا يستحق أحد سواه الحمد في الآخرة.
- الحكيم : الذي أحكم صنعه ودببه حسب ما تقتضيه
- الحكمة .
- العلم : الذي يعلم بواطن الأمور وخوافيها.
- ما يلتج في الأرض : ما يدخل فيها من مطر وجدر وبلور وما يخالطها
- من معادن

وَمَا يُخْرِجُ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ نَبَاتٍ وَشَجَرٍ وَرَائِينَ .
وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ : مِنَ الْأَمْطَارِ وَالنَّدَى ، وَالثُّلُوجِ وَالبَرْدِ ، وَالصَّرَاعِقِ
وَالْمَفَادِيرِ وَالْبَرَكَاتِ . . .
وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا : مَا يَصْعُدُ إِلَيْهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَاعْمَالِ الْعِبَادِ،
وَالْأَبْخَرَةِ وَالْغَازَاتِ . . .

الإِيْضَاح

الثَّنَاءُ الْخَالِصُ لِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ :
الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يُلْيِقُ بِجَلَلِهِ وَعَظَمَتِهِ ، وَالثَّنَاءُ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، فَاللَّهُ مُحَمَّدٌ
لِذَاتِهِ ، وَالْحَمْدُ لِهِ تَعَالَى مِنْ كُلِّ الْوَجُودِ .

﴿ قَانِنِ شَقِّهِ إِلَّا يُسْعِحُ بِحُمْرِهِ ﴾^(١)

فَهُوَ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهَا وَالْمُتَصْرِفُ فِي الْكَوْنِ عَلَيْهِ وَسَفْلَهِ
أَحْيَاهُ وَحَادَاهُ . . . لَا مَالِكُ سِرَاهُ ، وَهُوَ سَبَحَانُهُ لِكُلِّ الْقُدرَتِ وَقَامَ نَعْمَلُهُ . . .
يَسْتَحِقُّ الثَّنَاءُ كُلُّهُ فِي الدُّنْيَا ، وَيُخْتَصُّ بِالْحَمْدِ الْخَالِصِ فِي الْآخِرَةِ ، الْحَمْدُ لِذَاتِهِ ،
وَالْحَمْدُ مِنْ عِبَادِهِ وَأَوْلِيَّهِ الْمُؤْمِنِينَ . . . فَالْحَمْدُ لِلَّهِ . . . يَقُولُهَا أَهْلُ الْجَنَّةِ :

﴿ أَلْهَمَدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعَدْنَا وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَبْرَا مِنْ أَبْلَقَنِيَّةِ حَتَّى
ئَاءَهُ ﴾^(٢) وَ﴿ أَلْهَمَدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْعَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾^(٣)

(١) سورة الإسراء الآية ٤٤

(٢) سورة الرعد الآية ٧٤

(٣) سورة خاطر الآية ٣١

﴿ وَأَنْتُ دُعُونَهُمْ أَنْ أَلْحَمَّذُ قَرَبَ الْعَذَابِينَ ⑩ ﴾^(١)

فهو الحكيم في تدبير ملكه في السموات والارض وما بينها، وتصريف شئون الدنيا والآخرة، حسب ما تقتضيه حكمته، الخير بمحكبات الوجود، ليعلم ظاهرها وخوافيها، خيراً بها وبآحوالها محظيا بكل الامور.

علم الله في مجال السماء والارض:

أكمل الله سبحانه علمه الشامل بدقائق الامور . . في كلها قليلة، وحدث هائل عجيب يشمل كل الانحاء . . ولو أن أهل الارض وقفوا جميعا حيالهم يتبعون ومخصوصون ما يقع في لحظة واحدة بها تحت ايديهم من علم الاحصاء والآلة - اقام بعض ما تشير إليه الآية الكريمة - لا عجزهم التبع والإحصاء عن يقين .^(٢)

ف والله تعالى يعلم ما يطلع في الارض وما يدخل فيها من حرب وبذور وجذور، وحشرات ودود وهوام وزواحف، وقطارات ماء، ودقائق اموات، وما يخالطها من معادن، وما يندس في طبقاتها من نفط وكثون، ويعلم ما يخرج منها من نبات يزدهر، وبراكن تتفجر، ونباع تغور، وخلفات الاسم ومصنوعاته وخبر ذلك. ويعلم الله سبحانه ما ينزل من السماء من برkatات على عباده، ورحمات خلقه، وملائكة لتصريف شئون ملكه، وزخات مطر، وقطارات ندى، وأشعة وصواعق، وقضاء، نازل، وارزاق ميسرة . . إن الكثير والكثير مما ينزل من السماء، ويعلم كل ما يصعد إليها وما يعرج فيها، من دعوة مظلوم، وعمل مقبول، وأخيرة حاصدة، وارواح مقيبة، وملائكة مأمورة، واتفاق طالعة، وطير تسبح في الجو، وطائرات تحلق في أجواء الفضاء . . وغير ذلك في علم الله الشامل المحيط بهذا الوجود كله

(١) سورة يونس الآية ١٠.

(٢) في حلول القرآن.

.. زمانه ومكانه، ومطلع على النبات والحواظر التي في الصدور، .. يعلم الله كل ذلك، ولا تأخذه سنة ولا نوم .. ومع شمول علمه، وكثرة نعمه، وساقع فضله.. رحيم بعباده، فلا يعاجلهم بعقوبته، غفور يستر على ذنوب التائبين إليه، النادمين على ما فرط منهم .. وفي ذلك إشارة إلى أن رحمة الله وغفرانه ختصان بعض يدخل الجنة في الآخرة، وأما في الدنيا فرحمته تعالى وسعت كل شيء^(١).

* * *

(١) حاشية الصاوي على الجلايلين.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ

كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا الْأَسْعَةُ ﴿٦﴾ قُلْ بَلَى وَرَبِّنَا لَنَا يَنْهَا عَلِيمٌ
 الْغَيْبُ لَا يَعْزَبُ عَنْهُ مِنْ قَالٌ دَرَرَةٌ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا
 فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَعْجَبُ إِلَّا فِي كِتَابٍ
 مُّبِينٍ ﴿٧﴾ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ هُمْ أَمْنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ شَعَّوا
 فِيَّا يَنْهَا مُعْنَجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّنْ
 رَّبِّهِمْ ﴿٩﴾ وَرَبِّي الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أَتَرَى
 إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ أَكْبَرُ وَهُدِيَ إِلَيْنَا صَرَطُ الْعَزِيزِ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴿١٠﴾

[معاني الكلمات والجمل]

- | | |
|------------------|---|
| الذين كفروا | : المكرون ل يوم القيمة من كفار مكة وغيرهم. |
| لا تأتينا الساعة | : لا قيمة ولا بعث كما تدعى يا محمد. |
| لا يعزُّ عنه | : لا يغيب عنه ، يقال : عزب يعزب ويعرَّب إذا بعد وغاب . |
| مثقال ذرة | : وزن أصغر نملة ، أو هباءة منتشرة في الجو. |
| ولا أصغر من ذلك | : ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها . |
| ولا أكبر | |
| في كتاب مبين | : في كتاب ثام مبين هو اللوح المحفوظ . |
| ليجزي | : اللام لام العاقبة والصيروحة أي لتكون عاقبة الذين |
| رزق كريم | أعموا وعملوا الصالحات الثواب والرزق |
| معاجزين | : رزق حسن لا من فيه ، ولا تعب عليه . |
| رجز اليه | : ظانين عجزنا عن إدراكهم . |
| ويرى | : أشد أنواع العذاب وأسوة . |
| الذين أتوا العلم | : الرؤبة هنا يعني العلم ، وتكون بوئي بمعنى |
| هو الحق | يعلم . |
| صراط العزيز | : هم مؤمنو أهل الكتاب الذين قرءوا التوراة وغيرهم . |
| الحميد | : القرآن الذي أنزل عليك يا محمد هو الحق وفيه |
| | البعث والجزاء . |
| | : الطريق الموصل إلى الله العزيز الذي لا يُغلب . |
| | : المحمد في ذاته وصفاته وأفعاله فلا يليق به صفة العجز . |

الإبضاح

مقالة المكرين للقيامة والرد على باطلهم:

يعد أن بين الله سبحانه وتعالى شمول علمه وقدرته لكل شيء، وهذا يقتضي حتماً قدرته على بعث الخلق يوم القيمة .. ذكر مقالة المكرين ليوم القيمة من كفار مكة وغيرهم، وقولهم أنه لا قيامة ولا بعث لأن نور كما تدعى يا محمد فلا رجعة بعد هذه الدنيا، ولا حساب ولا عذاب لما كا تزعم .. فلا تأتينا الساعة أبداً .. وطلب الله من رسوله أن يرد عليهم قولهم الباطل هذا .. وأن يقسم على أن الساعة آية لا ريب فيها .. وهذه واحدة من ثلاث آيات أمر الله تعالى فيها نبيه أن يقسم بريه العظيم على صدق وقوع البعث والمعاد للكافرين الذين أنكروا ذلك والثانية في سورة يونس

﴿٩﴾ وَيَسْتَعْنُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِنِّي أَنْهَ لَهُنَّ وَمَا أَنْتُ بِمُعْجِزٍ ﴾١﴾

والثالثة في سورة التغابن

﴿٤﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يَبْعَثُنَا قُلْ بَلَّ وَرِيقٌ لَتَبْعَثُنَّهُمْ لَتَنْبُونَهُمَا عَلَيْكُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾٢﴾

وبحسب الساعية يسير على الله، فهو عالم الغيب، و قوله عن حق وعلم ويقين، فلا يغيب عن علمه مقدار أصغر هباءة متشرة في الجو ما يرى خلال أشعة الشمس حين تنحدر من كوة أو نافذة، ولا ينفك علمه الشامل أي ذرة فيها دونها ولا

(١) يونس الآية ٥٣

(٢) التغابن الآية ٧

ما فوقها ، بعدها أو قربت في أي مكان من السموات والأرض ، ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها إلا وهو مجل في كتاب محفوظ تام البيان ، وبارك الله الذي علم عباده أسرار خلقه في قرآن العجز . وبعد تفتيت الذرة ، يجد أن هناك ما هو أصغر منها بكثير وكثير ، بعد أن كان شائعا أنها أصغر جرم ، وأقل جسم في الكون .

إن الله تعالى لا تخفي عليه ذرة في الكون ولا أصغر من الذرة . . . فكيف يخفى عليه حال البشر إيماناً كانت أجسامهم ، أو نفرت أعضاؤهم ، أو نفت عظامهم ؟ فهو تعالى عالم بها وقدر على بعضكم يوم القيمة وعندئه واحدة وقت عبيتها ووقعها .

الحكمة من بعث الخلق وقت القيمة

إن الذين أنكروا الآخرة وما فيها . . . لم يدركوا حكمة الله وتقديره في خلقه ، فلم يترك الله الناس سدى يساوى محنتهم مع مسيئهم ، ومؤمنهم مع كافرهم ، وظالمهم مع مظلومهم . . . بل لا بد أن يأخذ المحسن جزاء إحسانه ، ويتال المس . عقاب إساءاته ، فالآخرة ضرورية لتحقيق عدل الله في خلقه ، ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بغير ان ذنوبهم ، ويكافئهم ويسعدهم رزقاً حسناً كريباً لا من فيه ، ولا تعب عليه في الجنة ، والذين أجهدوا أنفسهم في الصد عن دعوة الله ، وسعوا جاهدين لنكذيب القرآن الذي أنزل على محمد . . . ظانين أننا لن نقدر عليهم ، مقلّبين عجزنا عن إدراكهم ومحاسبتهم في يوم لا بد منه ، هؤلاء المجرمون لهم أشد أنواع العذاب وأسرعه وألله - عذاب من رجز أليم .

اعتراف أهل العلم بالقرآن وما جاء فيه :

ثم أكد الله سبحانه وتعالى بطلان مقالة الكفار الكاذبة عن الساعة باعتراف أهل الكتاب الذين هدوا إلى الطيب من القول ، سواء معنى أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره . . . حين علموا من التوراة ، أو أتوا العلم من الصحابة -

رضوان الله عليهم - ومن جاءه بعدهم من الذين أتوا العلم في أي زمان ومكان ومن أي جيل . . أهل العلم هؤلاء يرون أن القرآن الذي أنزل عليك من ربك ، مثبا لقيام الساعة ، والبعث ، والجزاء ، والحساب ، هو الحق الذي لا شك فيه ، وهو الذي يرشد وصهي إلى طريق الله العزيز الغالب الذي لا يُغلب . . المستحق وحده للحمد على جميع أقواله وأفعاله ، وعلى ما أنزل في القرآن الكريم من منهج أراده للوجود ، ليكون دليل البشر إلى طريق رحمه تعالى وحالهم ، وصراطه المستقيم .

، أَهِدِنَا إِلَيْكَ الْمُسْتَقِيمَ ⑤ صِرَاطَ

الَّذِينَ أَفْعَلْتَ عَلَيْنَا غَيْرَ السَّفَّاحِ عَلَيْنَا

وَلَا الضَّالِّينَ ⑥ سورة الفاتحة

* * *

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدْكُرُ عَلَى رَجُلٍ
 يَنْتَكِرُ إِذَا مُرِقْتُمْ كُلَّ مُرِقٍ إِنَّكُمْ لَنِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑦
 أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ حَنَةٌ بِلَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ⑧ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى
 مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفُهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ تَرَى
 تَحِيفَ زِيرَمُ الْأَرْضَ أَوْ تُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كَفَافًا مِنَ السَّمَاءِ
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ⑨ ﴾

[معاني الكلمات والجمل]

- هل ندلكم
- على رجل
- ينتكم
- إذا مرقتم
- خلق جديدا
- والتفريق.
- : أرادوا بهذا الاستههام السخرية.
- : المراد النبي - ﷺ - تجاهلوه وكأنهم لا يعرفونه.
- : يخدلكم بأعجب الأشياء.
- : إذا تفرقت أجادكم ، وصرتم رفاتا وترابا.
- : ستخلقون خلقا جديدا بعد ذلك التعریق

أنترى عل الله كذبا	: هل اختلف هذا الكذب الذي يدعوه عل الله؟
به جنة	: به جنون يجعله يتواهم وتخيل ما يقول.
بل	: حرف يفيد إبطال ما قبله وإثبات ما بعده.
الفضلال البعيد	: الذي يصعب منه الرجوع إلى الحق.
ما بين أيديهم وما خلفهم	: ما يحيط بهم ومشاهد لهم.
خسف بهم الأرض	: نغفهم في الأرض [كفارون].
كينا	: قطعاً [ك أصحاب الأيكة].
منتب	: راجع إلى ربه بالتوبة والطاعة.

الإيضاح

بعض أسلوب الكفار في الصد عن دين الله والاستهزاء بالنبي - بكتابه:

كان حديث الكفار عن البعث يتربع بين أسلوب مختلقة بعضها للصد عن دين الله وبعضها لإنكار وقوته، وبعضها للتشهير والتهكم والسخرية من صاحب الرسالة، وكلها لا تأخذ طابع الاستكثار، وقال كفار قريش بعضهم لبعض مستهزئين من الرسول وما يقوله عن البعث .. ورغم أنهم يعرفونه جيداً، ويعرفون اسمه، ولكنهم تجاهلوه وقالوا: هل نذلكم على رجل عجيب غريب .. يقول قوله مستغرباً عجيبة، ويعذّث بشيء بعيد الواقع .. إنكم إذا متـمـ وتنقطعـتـ أو حـالـكمـ وـمـزـقـتـ الأرضـ أجـادـكمـ كلـ تـزـيقـ، وـصـرـتمـ رـفـاتـ وـتـراـياـ فـتـحـيونـ وـتـعودـونـ إـلـىـ الـحـيـاةـ مـرـةـ ثـانـيـةـ خـلـقاـ جـدـيدـاـ، وـيـسـمـرونـ فـيـ استـكـارـهـمـ وـسـخـريـتـهـمـ، وـالـتعـجـبـ لـغـيرـهـ .. إنـ هـذـاـ الـكـلامـ لـاـ يـصـدرـ حـسـبـ زـعـمـهـ إـلـاـ مـنـ كـاذـبـ يـخـلـقـ كـلـامـاـ لـمـ يـوـحـ اللـهـ تـعـالـىـ إـلـيـهـ ثـبـتاـهـ، أـوـ مـنـ كـانـ بـهـ مـنـ جـنـونـ يـجـعـلـهـ يـهـدـيـ وـيـتـوـهـ مـاـ يـقـولـ، وـيـهـرـفـ بـهـ لـاـ يـعـرـفـ .. وـرـدـ اللـهـ عـلـيـهـ بـهـ يـحـكـمـ عـلـيـهـمـ بالـضـلالـ وـالـخـيـلـ، وـالـحـرـمانـ مـنـ الـهـداـيـةـ، وـفـتـدـ كـذـبـ وـأـفـرـاءـهـ وـتـشـهـيرـهـ .. كـلـاـ لـيـاـ الـكـافـرـونـ .. لـيـسـ الـأـمـرـ كـيـاـ زـعـمـتـ وـقـلـتـ، بـلـ هـوـ أـصـدـقـ الصـادـقـينـ فـيـاـ أـخـبـرـ

به عن ربه تعالى من شأن الآخرة وما هو يكادف ولا يجرون بل أنتم الذين تصدرون بالآخرة ، فإن من ينكر البعث بلغ الغاية في اختلال عقله ونهاية ضلاله . . . بحث يصعب عليه الرجوع إلى الحق فالكافر وإنكارهم للآخرة في ضلال عن الحق يوجب عذابهم في الآخرة ، لأنهم واقعون في الضلال ولا يشعرون ، وبذلك - بعدها عن الإدراك السليم وهذا متنه الخبل والحمق والاختلال . . . فاستحقوا العذاب جزاء كفرهم وعنادهم (الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ) فالعذاب لتحققه فيهم كائهم واقعون فيه ، فنزل الشـ . المتوقع مرتلة الواقع مع الضلال البعيد المدى الذي لا يرجى معه هداية .

توبخهم على عدم النظر فيما حوصل مع تهديدهم:

هل أصاب الكافرون الكاذبون بالقيامة العمى - قلم يروا ما أحاط ويعطى بهم من بديع صنع الله ودلائل قدرته فيما يشاهدونه حوصل في السموات والأرض ، فيرتدوا عن غيهم ، ويتهوا عن مكابرتهم وإنكارهم ١١٩ إن الله الذي ابدع ما يشاهدونه بين أيديهم ومن خلقهم وعن أيديهم وعن شمائهم هو القادر على إهلاكهم «وتدميرهم ، فلو شاء لخف بهم الأرض وجعلها تغور بهم كما فعل مع قارون ، أو يُسقط عليهم قطعا من السماء تهديدهم كالظلة التي أهلكت أصحاب الأیكة من قوم شعيب . . . وفي الكلام تهديد صارخ للذين يستعدون بمحى الساعة . . . لعلهم يفيقون من خبلهم وضلالهم . . . فالعذاب أقرب إليهم من يعيثها لو أراد الله ذلك» إنَّمَا تَحْسِفُ زَمِنُ الْأَرْضِ أَوْ تُسْقَطُ عَلَيْهِمْ كَعَمَّ أَلْسُنَاهُ «إن في النظر والتفكير فيما يشاهدون حوصل من خلق السموات والأرض ، والتأمل فيما أصاب المكذبين قبلهم . . . والذى يتوقع أن يصيهم . . . من خسف في الأرض ، أو سقوط قطع من السماء عليهم في أي لحظة . . . إن في ذلك لدلالة وعبرة لكل عبد فطن على كمال قدرتنا ، وأية واضحة لكل عبد تائب راجع إلى الله بالطاعة والإيمان يستدل بها على أن الله لا يعجزه شيء ، فمن قدر على خلق هذه

السماء في علوها وارتفاعها، وهذه الأرض في اتساعها وطريقها وعرضها قادر على إحياء الموتى، وإعادة الأجسام، ويبعث الرميم والبرهات.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ﴾^{١٣١}

• • •

(١) سورة غافر الآية ٥٧.

من الآية (١٠) إلى الآية (١١) من سورة سباء

* ولقد آتتنا
دَاؤْدَ مِنَ فَضْلًا يَنْجِالُ أَوْيَ مَعْهُ وَالظَّيْرُ وَأَنَّا لَهُ
الْحَدِيدَ ﴿١١﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَيْفَتِ وَقَدْرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا
صَلْحًا إِنِّي عَمَّا تَعْمَلُونَ يَصِيرُ ﴿١٢﴾

[معانى الكلمات والجمل]

- اللام موطن لقلم عذوف، تقديره: وعزة الله ولقد آتيا داود
- وجلاله لقد أعطينا داود فضلا
- غيرا فضلناه به، فجمعنا له بين النبوة والملك وكثرة المجد
- رجعن معه التسح ورديمه أورب معه والظير
- ودعوا الطير، لتردد معه التسح وأنا له الحديد
- جعلناه ليما في يديه يسهل تشكيله دون تخين بالثار أو ضرب بالمطرقة
- اصنع من الحديد دروعا كاملات، وسابقات: حفة لخدوف تقديره دروعا، فذكر الصفة لأنها تدل على الموصوف أن اعمل سابقات

وقدر في الرد

وحركته وحياته.

: واعملوا بآل داود عملا صالحًا

واعملوا صالحًا

الإيضاح

مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن ذكر سبحانه - أن في خلق السموات والأرض شواهد ناطقة بقدرة الله الباهرة، لمن أراد أن يتب ويرجع إلى ربه - ذكر بعض من آنابوا إلى ربهم، ولم يمحدوا فضل الله عليهم، وحمدوا واهب النعم، وشكروا مالك السموات والأرض... فاعطاهم من الخير والإيمان فضلاً كبيراً، وسخر لنأيدهم بعض الخلق والقوى التي لا تسخر عادة للبشر فقد جمع الله لداود عليه السلام بين التبرة والملك المتمكن بالجيوش والأعوان، ومنحه الصوت الجميل، فكان إذا سمع ربه تجاوبت معه في التسبيح الجبال التي الراسيات، واستجابت لتسبيحة الطيور الغاديات الرانحات، كما ألان الله له الحديد، وعلمه صناعة الدروع... وكلها أدلة واضحة على شمول نعم الله، وكيف قدرته في عطائه لآل داود الشاكرين

فضل الله على داود:

ولقد أتينا داودَ مِنَّا فَضْلًاٌ وعزَّةُ اللهِ وجلالهِ لَقَدْ تَفَضَّلَ عَلَى دَاوِدَ فَاعْطَيْنَا
مَا فَضَّلَنَا بِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْمُلْكِ وَالْحِكْمَةِ، وَعَلَمْنَاهُ الْعِلْمَ الْوَاسِعَ،
وَجَعَلْنَاهُ نَبِيًّا وَسُلَّيْلًا، وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الرِّزْقَوْرَ، وَمَنْحَنَاهُ الصُّوتَ الْجَمِيلَ الْمُؤْثِرَ، فَكَانَ
تَسْبِيْحَهُ اللَّهُ حِينَ يَتَلَوُ مِنْ أَمْرِهِ يَوْمَرُ فِي الْكَائِنَاتِ حَوْلَهُ، وَنَادَيْنَا الْجِبَالَ الرَّاسِخَاتِ أَنْ
تَرْجُّعَ مَعَهُ التَّسْبِيْحَ، وَتُرْدَدَهُ مَعَهُ كَمَا يَفْعَلُ الْمُسْبُحُونَ، وَدَعَوْنَا الطَّيْرَ لِتَشَارِكِهِ ذَكْرَ
اللهِ وَتَسْبِيْحِهِ... وَيَذَلِّكَ... تَلَاقَ بَعْضُ الْكَائِنَاتِ مَعَ دَاوِدَ فِي نَفْعَةٍ وَاحِدَةٍ،
وَتَسْبِيْحَةٍ مُوْحِدَةٍ، تَذَكَّرُ بِهَا خَالقُهَا وَتَمْجَدُ بِهَا رَبِّهَا، وَتَسْرِيْ في كِيانِ الْوِجْدَنِ تِلْكَ

السابع، لتشهد الكائنات عمل فضل بارتها الواحد الأحد، الذي يستحق وحده بالغ الحمد والثناء . . فكان يسمع منها ما يسمع من المبحرين . . معجزة داود عليه السلام.

وَإِنَّا لَهُ مُحْمَدٌ أَعْلَمُ سَبِّقْتُ وَقِيرْفَ الْرَّدِّ

واعطيناه القوة التي يستطيع بها أن يلين الحديد في يديه، وبشكله كما يريد، دون تخين بالنار أو طرق بالمطرقة كما يفعل غيره، وإنما فضله بمعجزة خارجة عن مألف البشر . . أن يصيير الحديد له لينا كالعجين أو الطين المبلول أو الشمع وعلمناه أن يصنع منه الدروع وألات الحرب، ومحكم صنعها، ويتقن في توصيل أجزائها ببعضها، ويقدر رقاتها في حلقات تتضام وتتشابك، لتكون نيجاً واقياً يغطي الجسم بأكمله ومحميء من الطعن، ولا يعيق حركته في الكر والفر أثناء القتال . . وكانت الدروع تصنع قبله على هيئة مفاصح تخيط بالجسم وتتقل حركته، وتصلب أجزاءه . . فالمهم الله داود عليه السلام أن يصييره على هيئة فتية نسجها محكم يجمع بين الخفة والثانية، ويمنع الوقاية للآسيه . . في تناول وقدير لسردتها وتتابع وتضيق وتداخل لأجزائها . . والأمر كله تعلم من الله وإلهامه . . ومن أحسن من الله صنعا؟ فما يعاني عاقل يتبع ذلك على قدرة الله؟

ونخاطب الله تعالى آل داود «واعملوا صالحا». فصالح الأعمال لا بد أن يساعد القوة المادية في السلم وال الحرب، فلا صلاح للحياة ولا استقامة لها إلا بالعمل الصالح، ولا نصر على العدو بالسلاح وحده دون صالح الأعمال ، فإن الله المطلع على خفايا القلوب ونوايا الصدور . . بما تعملون بصير، فيحاسب عليه وبجازى به، وفي الكلام توجيه إلى صلاح العمل والإخلاص فيه . . وفي معناها قول الله تعالى: «أَعْلَمُوا أَلَّا دَاؤُدَ شَرَا»^(١) ومتانى .

قصة داود عليه السلام

يتصل نسب داود عليه السلام إلى يهودا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . وقد ولد قبل الميلاد بحوالي (١٢٣٩) سنة وامتد عمره إلى سبعين سنة ، واستطاع وهو في سن مبكرة من عمره أن يثبت كفاءته العسكرية ويقتل جالوت عدو بني إسرائيل ، وأتاه الله الملك عليهم بعد ذلك ، فجمع شملهم ، ووحد صفوفهم ... بعد أن كانوا أحراياً متافرة ، وأعانته الله على توسيع ملكه ، وثبتت أركان دولته ، وتوجيه سلطانه .

﴿ وَشَدَّدْنَا مُلْكَهُ وَهَادَيْنَاهُ الْحِكْمَهُ وَفَصَلَّى الْحَطَابُ ﴾ ١٦) ١٦)

ثم منحه الله النبوة ، واختاره للرسالة ، وأنزل عليه الزبور وبه قصائد وآناشيد تتضمن تسبيح الله ، وحده والثناء عليه ، وتعرف بمزامير داود ، ويشتمل على الحكم والمواعظ ، وبعض الأحداث التاريخية .

وكان عليه السلام - يرتل مزاميره بصوت أخاذ يفوق في حسنه كل الأصوات ، فسرى نغائمه المسبحة في الكون فترجعها الجبال ، وترددتها معه الطيور ، قال ابن عباس : كانت الطير تسبح معه إذا سمع ، وكان إذا قرأ لم تبق دابة إلا استمعت لقراءته وبكت لبكائه ، وقال وهب بن منبه : ثم يأخذ هو في تلاوة الزبور بين ذلك بصوته الحسن ، فلا يرى الناس منظراً أحسن من ذلك ، ولا يسعون شيئاً أطيب منه ١٧)

وقيل : كانت الوحوش والطيور تطرب لحسن صوته . . . فتفق ساكنة في مكانها حتى تؤخذ من أعناقها فلا تجاد تحمس . . .

﴿ إِنَّا هَذَّنَا أَلْبَالَ مَعَهُ يُسِّحَنُ بِالْعَيْنِ وَالْإِثْرَاقِ ﴾ ١٨) وَالْطَّيْرُ مُخْرُجٌ ١٨)

(١) سورة ص الآية ٢٠

(٢) زاد المسير .

كُلْ لَهُ رَأَوْا بَتْ (١٦) »

وفي الصحيح أن رسول الله - ﷺ - سمع صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يقرأ من الليل . . فاستمع لقراءته ثم قال: «لقد أوصى هذا مزماراً من مزامير آل داود».

وألان الله الحبيب لداود عليه السلام وعلمه صنع الدروع بالفأم الملي، وكان يعيش في عصر تقع فيه الحروب، ويقال: إنه لما ملك بنو إسرائيل لقى ملكاً، وداود بعنه إنساناً، لقيه بعد أن خرج متذمراً يسأل عن نفسه وسيرته في بن إسرائيل . . فـالله داود: ما رأيك في هذا الملك المسمى داود؟ فقال له الملك: نعم العبد لولا خلة فيه، قال داود: وما هي؟ قال: يرزق من بيت المال، ولو أكل من عمل يده لـتم فضائله فـرجع فـدعا الله أن يعلمه صنعة ويسهلها عليه . . فـعلمه صناعة الدروع وأـلات الحرب، وأـلان له الحبيب، فـكان يـصنع الدرع في يوم وليلة وـئـمـة الف درهم، حتى اـذـخـرـ منها كثـيرـاً، وـتوسـعـتـ معـيـشـةـ متـزلـهـ، وـتـصـدـقـ عـلـ الـفـقـارـ والمـساـكـينـ، وـكانـ يـنـفـقـ ثـلـثـ مـالـهـ.^(٢)

ولـقدـ قالـ الفـرـسـونـ: إنـ فـيـ الـآـيـةـ الـكـرـيـةـ دـلـلـاـ عـلـ تـعـلـمـ أـهـلـ الفـضـلـ الـعـنـائـعـ، وـانـ اـخـذـ الـحـرـفـ لـاـ يـتـفـصـلـ مـنـ فـضـلـهـ، بـلـ يـعـطـيـمـ ذـلـكـ مـعـنىـ التـواـضـعـ فـيـ اـنـفـسـهـ، وـالـاسـتـغـنـاءـ عـنـ غـيرـهـ بـالـكـبـ الـحـلـالـ.

وـكانـ نـبـيـ اللهـ دـاـودـ بـجـانـبـ فـروـسـيـهـ وـقـوـنـهـ وـبـرـاعـتـهـ، وـرـحـاـ تـقـيـاـ، وـكـانـ يـتـبعـ نـظـامـاـ لـاـ يـتـعـدـاءـ فـيـ تـقـيـمـ وـقـتـهـ وـأـيـامـهـ، فـقـدـ قـمـ الـدـهـرـ أـرـبـاعـاـ: وـاحـدـ لـنـفـسـهـ، وـأـخـرـ لـعـابـدـهـ، وـثـالـثـاـ لـلـفـضـلـ وـالـقـضـاءـ بـيـنـ النـاسـ، وـالـرـابـعـ لـبـنـ قـوـمـ يـعـظـهـ وـيـرـشـدـهـ إـلـىـ سـوـاءـ الـبـيـلـ . . وـفـيـ تـفـيـرـ بـعـضـ آـيـاتـ «سـوـرـةـ الـأـنـبـيـاءـ» وـ«سـوـرـةـ صـ» جـوـانـبـ كـثـيرـةـ مـنـ حـيـاةـ دـاـودـ عـلـيـهـ السـلـامـ . . فـمـنـ أـرـادـ الـمـزـيدـ فـلـيـرـجـعـ إـلـيـهـ.

(١) سورة ص الآية ١٨ ، ١٩ .

(٢) راجع تفسير القرطبي .

» وَسَلَّيْمَانَ الْرَّبِيعَ
 غَدُوْهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَاسْأَلَاهُ رَبُّهُ عَنِ الْقِطْرِ وَمَنْ
 أَلْحَنَ مِنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدِيهِ يَلَدِنْ رَبِّهِ وَمَنْ يَرْغُبُ مِنْهُمْ
 عَنْ أَمْرِنَا نُذَقُهُ مِنْ عَذَابِ الْسَّعِيرِ ⑯ يَعْمَلُونَ لَهُ
 مَا يَسْأَءُهُ مِنْ تَحْزِيبٍ وَتَكْثِيلٍ وَرِجْفَانٍ كَالْخَوَابِ وَقَدْ وَرَ
 رَأْسِيْتُ أَعْمَلُوا هَالَ دَاؤُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ
 الْكُوْرُ ⑰ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمْنَا عَلَى
 مَوْتِهِ إِلَّا دَآيَةً أَلَارِضٍ تَأْكُلُ مِنْ سَاهِرٍ فَلَمَّا خَرَّبَنَا
 أَلْحَنَ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَيْشُوا فِي الْعَذَابِ
 الْعُيْنِينَ ⑱ «

[معاني الكلمات والجمل]

وَسَلَّيْمَانَ الْرَّبِيع : سحرنا الريح لسلیمان تسیر بامرہ.

خُدوها شهر	: جرها بالغدة ميرة شهر، وقت الغدة من أول النهار إلى الظهر.
ورواحها شهر	: جرها بالرواح ميرة شهر، والرواح: اسم للوقت من الظهر إلى الغروب.
أشنا	: أدبنا.
عين القطر	: التحاس المذاب.
بِإذن ربه	: بأمر الله وتسخيره.
ومن يزع منهم عن أمره	: ومن يحرف عن طاعة أمرنا بسبب عصيانه لسيان.
ندقه من عذاب العير	: ندقة عذاب النار المستمرة.
خاريب	: جمع خراب، وهو البناء المرتفع كالقصر ومنه خراب الصلوة، لاته يرفع ويعظم.
وتماثيل	: جمع تمثال، صورة مجسمة من نحاس وغيرها، وكان جائزًا في شريعتهم وحرمه الإسلام بشرطه.
جفان كالجواب	: جمع جفنة قصاع كبار كحياضن من الماء العظيمة.
وقدور راسيات	: واحدتها قدر، وهو ما يطيخ فيه وراسيات: ثابتات على الموقد لا تنزل لعظمتها.
اعملوا آل داود شكرًا	: اعملوا بطاعة الله وشكراً على نعمه.
قضينا عليه الموت	: حكمتنا عليه به ونفذناه.
دبابة الأرض	: دابة أكل الخب وتسمى (الارضة).
مشائنه	: عصاء.
تبينت الحن	: وضوح وظاهر لها.
لبثوا	: مكثوا وأقاموا.
العذاب المهين	: الأشغال المتعبة الشاقة التي كلفوا بها.

الإيضاح

أفضال الله على سليمان:

لا زالت أفضال الله تترى على آل داود الشاكرين لرهم ، القائمين بصالح الأعمال كما أمرهم ، ومنهم سليمان عليه السلام الذي ورث الملك عن أبيه داود ، ودعا الله أن يهبه ملكا لا ينبع لاحد من بعده ، واستقر الأمر له بعد حياة أبيه التي كانت فيها بعض المعارك الخروية حيث أهله الله صنع الدروع وألات الحرب ليواجه عدوه ، ويعيش من عمل يده .

ويبدو من الآيات الكريمة أن عهد سليمان كان عهدا بناء وتعظيم فإن الله أنعم عليه بأفضال تفوق مأله البشر . . . ولا حرج على فضل الله ، فإن المقام مقام تأييد بالمعجزات التي من آناء الله ، فلقد سخر الله له الريح يجوب بها أنحاء ملكه الواسع الثابت الأركان . . . فكانت الريح العاصف تُقْلِع بها كان يركبها هو وأعوانه وجندته ، والريح الرخاء تسير به حيث أصحاب ، وب بواسطتها يستطيع أن يقطع مسيرة الراكب المرع مدة شهر من الزمان في غدوة من أول النهار إلى وقت الظهرة ورواحها في اتجاه الريح من وقت الظهر إلى الغروب فيقطع مسافة مسيرة شهرين في سحابة نهار فقط ، فكانت الريح تأثر بأمره ، وتغدو به من دمشق . . . فيصل إلى (اصططخ)^(١) وقت الظهر ، ثم تروح به منها إلى (كابل)^(٢) "البيت فيها ، وبين كل من بلد الإقلاع إلى بلدة الوصول مسيرة شهر في ذلك الزمان وكأنها الطائرة الفتاة .

وأسأل الله لليمان عين القطر في اليمن ، يخرج نحوها مذاببا يصلح للصناعة ، قيل : جعله يسيل له كالماء المتغير من العين ، وقيل : علمه كيف يذيبه بحيث يصبح قابلا للصب والتشكيل كما ألان الحديد لوالده من قبله - وعين القطر

(١) بلدة بخارى .

(٢) عاصمة أفغانستان الان .

يعني ذات التحاس وهو المعدن المعروف، ولم يكن قبل سليمان يلين بشار ولا غيرها، فتصنيع الناس للتحاس وإذاته بالنار ... من آثار كرامة الله له، وفضله عليه.

وسرّر الله له طائفة من الجن يعلمون بأمره ياذن الله، والجن كل مستور لا يراه البشر، وهم خلق من خلوقات الله تعالى سخر بعضهم ليعملوا بين يدي سليمان فيما يأمرهم به في مظاهر التعمير والبناء وغيرها، ومن يعدل عن طاعته ويُنحرف، ويزغ عن أمرنا في طاعة سليمان .. نذقه من عذاب النار المستمرة في الآخرة، .. وفي الكلام دليل على أن الجن معروضون للعقاب عندما يزيفون عن أمر الله كالبشر تماماً، وكان بعض المشركين يعبدونهم من دون الله.

وتعلّم الجن سخرة لسليمان ما يشاء فتبشّي المحاريب تحت إشرافه، وتشيد المباني المرتفعة، وأماكن العبادة الرفيعة القدر، وتصور التأثير الجسمة من التحاس والزجاج والرخام لبعض الساعي والطير وغيرها، ولم تكن هذه النصائر محظمة في شريعة سليمان، ومن المنتوعات التي سخر الجن في صناعتها .. الجفان الكبيرة كال أحواض يوضع فيها الطعام، وقدور ثانية راسيات لا تتحرك من أماكنها لضخامتها، لطبع الطعام.. وتكتفى الحفنة الواحدة لإطعام ألف رجل ويصعد عليها بالسلام...، وكلام المفسرين هنا لتوسيع ضخامة هذه الأشياء وتصويرها للأفهام، ولكنها في حقيقتها معجزات أيد الله بها سليمان، وثبت بها ملكه، وأنعم عليه من فضله، كي أنعم على أبيه من قبله، ولذلك .. وجه الخطاب إليهم .. يا آل داود: اعملوا طاعة الله وشكراً له على هذه النعم السابقة في الدين والدنيا.. ومن منحه.. الله مثلها فليعمل الله شكرًا وليس للتباكي والتعالي بها سخرة الله، فأفضل الله ونعمه.. يقل القادرون على الوفاء بشكرها، وتقصر هم المتعدين بها عن بذلك جهدهم ووسعهم في حمد الله وشكره.. وحتى لو بالغوا في الحمد والشكر.. فهم مقصرون.. في بالك بالغافلين عن شكر الله تعالى !!

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى

نضر فداء، فقلت له : أنتصع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر
فقال : أفلأ أكون عبدا شكورا^(١)

وروى الترمذى أن النبي - ﷺ - صعد المنبر قتلا هذه الآية «اعملوا آل داود
شكرا...» ثم قال : «ثلاث من أوثقهم فقد أوثق مثل ما أوثق آل داود فقلنا : ما
هن؟ فقال : العدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى، وخشبة أهله في
السر والعلابة».

وعطاء الله لبيان لم يقف عند هذا الحد. بل علمه منطق العظير، وسخرها
له نظلله في سيرته، وناتي له بالأخبار، وحديثه مع المدهون معروف في سورة
«النحل» وكذلك قصته مع النملة في وادي النعل بين «جحرون» و«عسقلان»،
وتدل على أن الله عالم لغة الحيوانات والحيشيات، كما سخر له الشياطين تشيد
المبانى وتغوص على الالائى في البحار.

وروى أن ملكه وسط هذه الفيوضات من النعم دام أربعين سنة... فما
شكر يعدها أو يعادها؟ وماذا يملك المخلوق الإنسانى المحدود الطاقة على إلا
الله ونعمه وهي غير معددة ولا محدودة!!

﴿ وَإِن تَعْدُوا بِقَعْدَةَ اللَّهِ لَا تُخْصُوْهَا ﴾^(٢)

ولعلنا بهذا تدرك روعة مطلع السورة الكريمة، وصدق استهلاها، وبقين
بذرتها.

الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض ولله الحمد في الآخرة
وهو الحكيم الخبير ①

فالحمد لله والشكر له والثناء المطلق على الله واهب النعم في الدنيا والآخرة.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه

(٢) سورة النحل الآية ١٨

كيفية موت سليمان:

لما قضينا على سليمان بالموت، وحكمنا عليه به، ووافاه أجله المحتوم . . لم تعرف الجن حقيقة موته . . روى^(١) أن الجن كانت تعمل حينئذ سخرة من الله تحت إشرافه . . تخدو وتتروح متقلة بالأعمال الشديدة، وكان واقفاً متكتعاً على عصاه في وضع يجعله يحفظ توازن جسمه في وقوف وهو ميت . . فلم يسقط ولم تدرك الجن أنه مات وهي مستمرة في العمل، وما دهم على موته إلا حشرة الأرض التي أكلت أسفل عصاه فوقع سليمان على الأرض . . وعندئذ فقط علمت الجن موته وبين لهم جهلهم بعلم الغيب لا كي كانوا يزعمون، واستبيان للناس حقيقة جهلهم بعلم الغيب ولو كانوا يعلمون الغيب ما أقاموا في عذاب التحير، وما مكتوا في العمل الشاق لحظة بعد موته، وكان عمره حين وفاته الأجل ثلاثة وخمسين سنة، بعد أن أجز حرفة عمرانية في البناء والصناعة وثيد القصور والمعابد وانتهى من بناء هيكله العظيم، وبيت المقدس في أصح الروايات.^(٢)

ولم يتضح من الآية الكريمة المدة التي قضتها ميتاً وهو متكتعاً على عصاه . . واجتهد المفسرون في استجلاء حقيقة هذه المدة، وقيل في ذلك الكثير، وروى الفصاخون أنها سنة . . . ومثل ذلك يحتاج إلى دقة توثيق، والذى يجب أن يلاحظ أنها مدة تليق بنبي مرسل، وملك عظيم، له من الأعون المعاذين والخدم الكثير . . يربون أوقات حاجاته، وقضاء مصالحة، وتنفيذ أوامره، واستجابة إرشاداته . . فكم من الوقت يمضي دون أن يجادله أحد؟! وهل من المعقول أن يترك ملكه الواقع مدة سنة دون تدبير لشئونه، أو رعاية لصالح رعيته؟! اللهم إلا إذا كان قد عودهم على الاعتزال للمعبادة والخلوة إلى نفسه ليؤدي شكر الله مثل هذه المدة دون أن يتصل بأحد أو يتصل به أحد، لتفقد مع الذين فسرواها وحددوها سنة بالأسانيد المروية عنهم، وما يروى عن ابن عباس في هذا أنه قال: أقام

(١) راجع تفسير الفرطى

(٢) راجع في ذلك تفسير الفرطى

سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام حولا لا يعلم بعوته وهو متكن على عصاء، والجبن منصرفه فيما كان أمرها به، ثم سقط بعد حول، فلما خر بيته الإنسان أن لو كان الجن يعلمون الغيب ما لبتو في العذاب المهين، وفي الخبر أن الجن شكرت ذلك للأرضة فآيتها كانت يأتوها بالماء والطين.^(١)

والمعروف في السودان وفي صعيد مصر أن هناك نوعا من حشرة الأرض أو (سوسة الخشب) تختلف أضخم خثبة في سرعة عجيبة، وهي أحجاما تلتهم أسقف المنازل الخشبية وأبوابها ونوافذها وقوائمها بشهادة فظيعة.^(٢) ولم يتبه سليمان حين بدأ هذه الحشرة تأكل مائة^(٣) . . فقد وافته المنية . . فانكسرت العصا ووقع على الأرض فعلمت الجن وبين ما كذبها في معرفة علم الغيب والله أعلم.

* * *

(١) راجع في ذلك تفسير الغزوي

(٢) في طلاق القرآن

(٣) العصا بلغة الحبشة أو اليمن

لَقَدْ كَانَ لِبَّا فِي مَسْكِنِهِمْ هَا يَةً جَتَّانِ
 عَنْ يَمِينِ وَشَمَائِلِ كُلُّوْمِنْ رِزْقِ رِيْكَرْ وَأَشْكَرْ وَالْهُرْ بَلَدَةَ
 طَبِيَّةَ وَرَبْ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَاعْرَضُوا فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ
 الْعَرِمَ وَبَدَلْنَاهُمْ بِجَنَّتِهِمْ جَنَّتِنِ دَوَانِي أَكْلِي خَعْطَ وَأَثَلِ
 وَشَنِي خِنْ مِنْ سَدَرْ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ بَرْزَنِهِمْ عَمَّا كَفَرُوا
 وَهَلْ بُحَرْزِي إِلَّا الْكُفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
 الْقُرَى الَّتِي بَرْزَكَنَا فِيهَا قُرَى ظَهِيرَةً وَقَدْرَنَا فِيهَا آلَيْرِ
 سِيرُوا فِيهَا لَبَابِي وَأَيَامًا مَاءَ امِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَلَعْدَ بَيْنَ
 أَسْفَارِنَا وَظَلَمْوَا أَنفُسَهُمْ بِمَا عَلَنَّهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرْقَنَهُمْ
 كُلَّ مُحَرَّقَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآكِنَّتٍ لِكُلِّ حَبَارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾
 وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنْ

الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَنٍ إِلَّا يَتَعَلَّمَ
 مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ إِنَّمَا هُوَ مُهِمَّٰهٗ فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ
 شَكٍّ وَحَيْثُ ﴿٢﴾

[معانى الكلمات والجمل]

سأ	: قبيلة سأ.. نسبة إلى سأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان.
في مسكنهم	: موضع سكنهم في «مارب» من بلاد اليمن، بينها وبين صنعاء نحو مائة كيلومتر.
آية	: دليل على قدرة الله القاهر، أو عبرة وعظة.
جتنا	: بستانان، أو مجموعتان من البساتين.
بلدة طيبة	: بلدهم بلدة طيبة الهواء والمناخ، خصبة، كثيرة الشوار.
فاغرضا	: فانصرقوا عن طاعة الله وشكروا..
سيل العرم	: سيل سد العرم الذي كان يجمع وراءه مياه الأمطار.
ذوات	: صاحبتي (مثنى ذات)..
أكل خط	: ثمر مر حامض تعاقه النفس، وقيل كل شجر له شوك وليس له ثمر.
وائل	: نوع من شجر الطرفاء كبير الحجم، ثمرة حب أحمر لا يزكل.
وش	: شـ من سدر قليل لا يغنى في الأكل ثمرة، وقيل: لا شعر له ويسـ الفضـال.

ذلك جزيناهم
وهل نجازى
لإنجازى.

القرى التي باركنا فيها : هي قرى الشام، وقيل قرى الشام، ومكة المكرمة.
قرى ظاهرة : قرية من بعضها فلا يكادون يخرجون من واحدة
حتى تظهر لهم الأخرى.

وقدروا فيها السير : جعلنا السير على مراحل مقدرة، بحيث لا يحتاجون
في سفرهم لحمل زاد.

آمنين : من كل مكره،
يأخذ بين أسفارنا : ثروا بعد السفر، وبعد المسافة بين كل قرية وأخرى
حتى لا يستطيع السفر إلا الأغنياء منهم.

وظلموا أنفسهم : عرضوها للتعذيب.
وجعلناهم أحاديث : وجعلناهم أحباماً يتحدث بها الناس من بعدهم.
ومرقناهم كل عزق : فرقناهم أشد تفرق بعد تدمير مساكنهم وخراب
ياتيهما.

لكل صار شكور : عبرة لكل صار عن العصبة، شكور للنعم.
صدق عليهم إبليس ظنه : تحقق ظن إبليس في إغواتهم حين أقسم «لأغويتهم
أجمعين».

سلط وقهراً واستيلاً عليهم سلطان

الإِبْصَاح

منية الآيات لما قبلها:

تتصل هذه الآيات بما قبلها اتصالاً نفسياً وعضوياً لما يلي:
بعد أن ذكر الله تعالى آل داود وما أنعم عليهم من الفضل العظيم،
ومقابლتهم ذلك بالشكر والإثابة والثاء والحمد لواهب النعم - جل وعلا - أعف

ذلك بقصة الحجوة والبطر من أهل سا... الذين انكرروا فضل الله عليهم وجحدوا
نعمه وكفروا بطبيات رزقه... وهذا... تجتمع جنبا الى جنب قصتان: إحداهما
لشكر النعمة، والآخرى لكفرانها، لتكتمل صورة الموعظة والعبرة لغريش وغيرهم
من يأتى بعدهم، كما أن فيها تحذيرا الكل من يكفر بالنعمة، ويعرض عن النعم.

وإذا كان شكر النعمة يضمن دوامها وزيادتها **﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَا زِيَادَةَ نَكْرٌ﴾**
فإن كفرانها يكون سا في زوالها... فقد أنعم الله تعالى على أهل سا بنعمتين
عظيمتين، فلم ينكروه كما فعل آل داود الشاكرون... فتأمل بهم حزاء ذلك
نقطتين مهلكتين كما سيأتي بيانه.

وما حل بسا حديث بعد رقد العيش، وهناء الحياة التي أسرها في وضع
أيها الملكة «بلقيس» وشأنها مع سيدنا سليمان عليه السلام جاء في سورة
النمل.^(١) وفي عهدها تم بناء أول سد يدخل الماء خلقه لوقت الحاجة إليه... على
هيئة خزان أسوان في مصر وذلك... بعد أن كان قومها يقتلون على ماء وادهم،
وقد بُني هذا السد بين جبلين مرتفعين فحجز مياه السيل والأمطار وضمن لهم
بقاء الماء بوفرة على مدار العام، وتصريفه حسب الحاجة إليه، عن طريق فتحات
بعضها فرق بعض، تغلق وتفتح في شكل هندسي وترتيب معياري وبناء بالصخور
والقار... وهذا هو أشهر السدود، وسي سد مارب، الذي حدث منه سيل
الغرم... ثم كثرت الدود بعد ذلك، فإن اليمن لیت بلاد أنهار ومن وراتها عم
الرخاء، وتوافرت المياه، وانتشر النعيم وطالبت لهم الحياة... إلى أن كان شأنها مع
سليمان عليه السلام... وظلوا بعدها يتمتعون بغيرهن من خيرات الله، إلى أن
حدث لهم الليل في عهد ملوكهم (ذى الأذعار بن حسان) في الفترة التي بين
عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

(١) سورة العنكبوت الآية ٧.

(٢) الآيات ٤١ - ٤٩.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قُلْبٌ أَوْ أَنَّقَ الْأَعْمَ وَهُوَ شَيْءٌ ⑤ ﴾

آيات الله تعالى في مَاكِنْ سَا:

لقد كان لقوم سَا، الذين ينتهي نسبهم إلى (سَا بن يشجب) في مارب موضع سكنهم بالبيعن . . آية وعلامة على قدرة الله تعالى ، تذكرهم ذاتها بفضل الله عليهم ، وتكرريه لهم ، وإنعامه عليهم . . في عمومتين من الباتين المزهرة المثمرة ، تحيطان بعديتة مارب إحداهما عن بعيتها ، والآخرى عن شباها ، وفي مظهرها خصب ومتنة ورخاء ، ومن ثمارها البانعة للذة العيش ووفرة الخير ، واسس الحياة . . وقد طلب إليهم على لسان رسولهم أن يستمتعوا بهذا النعيم وأكلوا من رزق الله ثمرات ناضجة ، وقطروا ذاتية ، وعليهم أن يشكروه ويوحدوه ، وبعدهم ، فإنه جعل بلدتهم حلبة الشوار والهواه كثيرة الحيرات والبركات والذي انعم عليهم بذلك رب غفور ، ستار لذنوبهم ، كثير العفو عنهم ، فما الذي يبعد بهم عن حمد وشكرا ، بعد أن جمع لهم بين مغفرة ذنوبهم ، وطلب بلدتهم ، ولم يجمع ذلك الجميع خلقه ١١٥

اعراض عن الشكر وكفران بالنعمة:

ولكن القوم أعرضوا عن شكر واحب النعم ، وانصرفوا عن حمد وجوحدوا فضلهم عليهم ، ولم يتبعوا اوامر رسله ، فأرسلنا عليهم السيل الحارف المدمر . . الذي يحمل الحجارة الكبيرة لشدة تدفقه من السد الذي كان يمحى الماء ويوفره لهم . . وأذاقهم الله وبال أمره ، فأهللت حرثهم وزرعهم ، واندفعت المياه تطغى على كل شيء وتغرقه ، وتخررت الباتين التفرقة ، وتبدل صحراء تثار فيها الأشجار البرية الخشنة ذات ثمر مر المذاق ، بشع الطعم كالخطف شجر الأراك ، أو كل

(١) سورة ق الآية ٣٧ .

شجر له شوك ، والاثل وهو يشبه الطرفاء تمره يظهر في بعض الأوقات لا يتكل ولا يغش من جوع ، وشىء قليل من سدر (شجر النبق) وكان أحسن أشجارهم ، فلم يبق منه إلا القليل الذي لا يستقيم بشمره ولا يصلح ورقه للقسوة ، ويسمى الصال ،^(١) والأرض التي فيها الحصط والاثل والسدر لا تسع الجنة ، ولكنها تعير يتضمن التهكم بهم ، وسا صار إليه حالم ، فقد بدل الله أقراحهم أحزاننا ويعيمهم بوتا ، وعزهم عورا وفقراء

سبب إنزال العذاب بهم :

ذلك الذي حل بهم ، ووقع عليهم . . من حفاف ساقتهم ، ودمار حدائقهم را هلاك زرعهم وحرثهم . . كان جزاء وفاقا على كفرتهم لنعم ربه ، وانصرافهم عن توحيد وشكره وعبادته ، والله لا يجازى بمثل هذا الجزاء العظيم إلا الكفور للنعمة ، ولا يعاقب بمثل هذا العذاب المتأصل إلا الجحود لفضل الله عليه ، فاعترروا يا أولى الأنصار .

نعم الله عليهم في أسفارهم :

يُنَبَّأُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مَا تَفْضِلُ بِهِ مِنْ نَعْمَةٍ عَلَى أَهْلِ سَبَأٍ فِي مَا كَانُوا
بِهِ هُنَّا النَّعْمَانُ مِنَ الْكُفَّارِ ، وَمَا حَاقَ بِهِمْ نَتْيَةً لِذَلِكَ مِنْ خَسْقٍ فِي الرِّزْقِ وَخُسْنَةٍ
فِي الْعِيشِ وَتَبَدِيلٍ لِلنَّعْمَ . . نَمَّ بَيْنَ نِعْمَةٍ أُخْرَى عَلَيْهِمْ فِي أَسْفَارِهِمْ وَنِحَارَتِهِمْ ،
وَظَهَرَتْ هَذِهِ النِّعْمَةُ فِي الْعَرَانَ التَّعْلُلَ بِهِمْ وَبَيْنَ الْقَرَى الْمَارِكَةِ فِي الشَّامِ ،
وَمَكَّةَ ، فَقَدْ كَانَ الْبَعْضُ مَا تَرَالَ عَامِرَةً فِي شَرَالْ بَلَادِ سَبَأٍ ، وَمَنْصَلَةً بِالْقَرَى الَّتِي
بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا ، سَوَاءً فِي الشَّامِ وَبَيْتِ الْمَقْدِسِ ، أَوْ مَكَّةَ الْمَكْرُمَةِ فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ،
وَمَا يَكَادُ السَّافِرُ يَخْرُجُ مِنْ قَرْيَةٍ فِي الْغَدَاءِ حَتَّى يَقْبَلُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى ، وَبِرُوحٍ بَعْدِ
الظَّهَرِ لِيَسِّيْتُ فِي الْمَاءِ فِي قَرْيَةٍ ثَالِثَةَ ، وَقَلَّا لَهُمْ : سَبِّرُوا فِيهَا لَيْلًا وَتَهَارًا أَمْنِينَ مِنْ

(١) حلبة الصاري

خاوف السفر من جوع وعطش، أو خطر بهددهم، أو تعب بحملهم . . . وبذلك كان السفر مقدر المسافات، محدود الأبعاد، مأمون الطريق، ومحطات الراحة والتزود متوازنة ومتقاربة، لتزدهر تجاراتهم، وتشط حركتهم وتنهض صلامتهم ومصالحهم . . ولكنهم بطرروا النعمة، وملوا التعيم، وتنعوا في دخيلة أنفاسهم أن يساعد الله بين كل قرية وأخرى . . فتعلول الأسعار والمسافات، . . فلا يقدر على السفر إلا الغني المنطع . . فتحصر التجارة في أغصانهم الجشعين، وقالوا في حق وبطري: رينا باحد بين أسفارنا، وهذا . . ظلموا أنفسهم، وعرضوها للعذاب . . فحققت عليهم كلمة الله وقت فيهم، وجعلناهم أحاديث للناس يرددونها ويتناقلونها، وفرقناهم في الأرض كل تفريق، وبددنا شملهم، ومرقنا جمعهم كل هرق . . الخامسة في الشام، وانيار إلى بتراء، وحذام إلى تهامة، والأرد إلى عمان . . وبذلك تفرقوا في البلاد، وصارت العرب تضرب بهم المثل في التفرق فيقولون: تفرق القوم أيدي سبا.

إن في كل ما ذكر - من شأن قوم سبا - آيات ملية بالغير لكل مؤمن صبار في الآباء، كثير الشكر على النعاء، والذكرى تنفع المؤمنين.

وروى مسلم في صحيحه عن سهيب (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله - ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن . . إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صر فكان خيراً له». ^(١)

أسباب الضلال:

ثم توضح الآيات الكريمة الحكمة المتخالفة من قصة قوم سبا، وما ينطوي فيها من تدبير إلهي يعم كل الناس، سنته الله في خلقه فلقد ظن إيليس أن كل الضالين له قدرة على إغواهم، فصدق غنه فيهم حين إغواهم فاستجابوا له، وووجههم مرتعًا خصياً لوسوته. «فأتباهوا إلا فريقاً من المؤمنين» قلة مؤمنة . . استعانت على إيليس في غوايته لهم، وتحصلوا بطاعة الله، واستمسكوا بحبل الله

المرى، وفي معناها:

﴿إِنَّ عَبْدِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ إِلَّا مَنْ أَتَبْعَثُ مِنَ الْغَاوِينَ﴾^(١) .
سواء أهل سَا أو غيرهم:

وما كان لإبليس من سلطان قاهر عليهم ليس في مقدورهم أن يتخلصوا منه، فلما سيطرة له عليهم ، فالشيطان سبب في الإغراء فقط ، وشاءت حكمة الله وعلمه أن يسلطه عليهم للاختبار، فثبت على الحق من يثبت ، ويزيف عن الهدى من يزيف ، وليظهر من يؤمن بالآخرة . . فيحفظه الله بسبب إيمانه وخوفه من لقائه للحساب ، من يشك في أمرها وامر وقوعها ، ولا يؤمن بها عن يقين . . فلا رقابة عنده الله ، ولا إيمان بيوم الحساب ، والله يعلم كل شيء قبل وقوعه وظهوره للناس ، ولكن سبحانه يرتب الثواب والعقاب على ما يقع من خلقه في عالمهم ودنياهם ، (وربكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ خَبِيرٌ) فهو عالم بكل شيء ، ورقيب على عباده . . يحفظ عليهم أسمائهم ، ويعلم نياتهم ، ويعقظ أولياءه من مكاييد الشيطان.

وفي الكلام إزام العاصين بالحججة حين يقولون: لقد أغروانا الشيطان وأضلنا ، فلما جعل الله لإبليس سيطرة عليهم ، ولكنهم هم الذين أطاعوه . . قال الحسن البصري: والله ما ضرهم إبليس ببعض ما كان منه إلا أن حُنْ لهم شهواتهم فاجابوه . . وفي معناها:

﴿وَقَالَ الشَّيْطَنُ لِمَا قُضِيَّ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْنَاكُمْ فَاخْلُفُوكُمْ وَمَا كَانَ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَنٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْنَاكُمْ فَاتَّجَبْتُمْ لِي فَلَمَّا تَلَوُمُونِي وَلَوْمًا أَنْفُكُمْ مَا أَنَا بِعُصْرٍ خَكْرٍ وَمَا أَنْتُ بِعُصْرٍ بَنِي إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلٍ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢) .

(١) سورة الحجر الآية ٤٢.

(٢) سورة Ibrahim الآية ٢٢.

» قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَعْمَتُ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 لَا يَعْلِمُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ
 وَمَا هُمْ بِإِيمَانِكُمْ شَرِكٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نِعْمَةٍ مِنْ طَهِيرٍ ﴿٢٦﴾
 وَلَا تَنْفَعُ الْشَّفَاعَةُ عِنْهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا
 فَزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ
 الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٧﴾ * قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ
 وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ
 مِنْنَا ﴿٢٨﴾ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَبْرَمْنَا وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا
 تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ قُلْ بِجُمْعِ بَيْنَارِبَنَامِ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ
 وَهُوَ الْفَتَاحُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ لَحْقُتُمُ بِهِ
 شَرَكَةً كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣١﴾

[معاني الكلمات والجمل]

ادعوا	: نادوا
زعمتم	: أى ادعيتم أنهم آله دون حجة أو دليل
ستقال فرفة	: مقدار وزن ذرة من نفع أو ضر.
ماله فيها من شرك	: لا يشاركه - سبحانه وتعالى - أحد في ملك السموات والأرض أو خلقها أو تدبیر أمرها.
وماله منهم من ظهير	: ليس له سبحانه معيين أو مساعد على خلق السموات والأرض وتدبیر أمرها.
الشفاعة	: طلب العفو من الله تعالى.
فرغ عن قلوبهم	: أزيل الخوف عن قلوب الشفاعين والمشفع لهم.
الحق	: القول الثابت الصحيح الذي لا مروية فيه.
اجرمنا	: ارتكبنا من المعااصي والذنوب.
يجمع بيتا ربنا	: يخترنا جميعا للحساب في وقت واحد يوم القيمة.
يفتح بيتا بالحق	: يقضى بيته، ومحكم بالعدل.
الفتاح	: الحكم العدل الذي لا معقب لحكمه.
اروبي الذين أخذتم	: اعلمونى بالحجج والدليل صحة زعمكم أنهم شركاء
به شركاء	: الله.
كلا	: كلمة تقال زجرا للمخاطب، لقول أو فعل صدر عنه.

الإبضاح

إبطال دعوى المشركين حول المتهم المزعومة:

تترجم الآيات الكريمة إلى مشركي مكة الذين عاندوا وأصرروا على الشرك، ورفضوا دعوة التوحيد قائلة لهم: ما دعتم قد اعرضتم عن دعوة التوحيد، ورفضتم

نداء الإيمان باليه تعالى وحده، فادعوا أولئك الشركاء الذين عبدتموهم من دون الله، لترى ماذا يملكون لكم أو لأنفسهم، وماذا يملكون من أمر هذا الكون الفسيح، فهم لا يملكون شيئاً من أمر السموات والأرض استقلالاً أو على سبيل المشاركة. فالله تعالى وحده خالقها ومالكيها، ومدير أمرها حتى الدرة الصغيرة التي لا تكاد ترى بالعين لا يملكون من أمرها قليلاً أو كثيراً.

وقد كشف العلم الحديث من أسرار تركيب الدرة الشفيف، الكثير من دلائل قدرة الخالق جلت حكمته مما لا طاقة لخلق عل الإيمان بمثله، ولا يزال العلم التجريبي يكتشف كل يوم حديداً معجزاً من أسرار هذا الكون ودلائل القدرة الإلهية.

وإذا انتفت هذه المشاركة التي زعمتموها فقد انتفى أيضاً أن يكون هذه الآلة المزعومة قدرة على مشاركة الخالق جل وعلا في أمر الخلق والإيجاد، أو الحفظ والتدبر، لأن هذه الآلة المزعومة لا تملك من أمر نفسها شيئاً والأدلة على ذلك قائمة ناطقة دالة على بطلان زعمكم :

أمر الشفاعة كلام الله تعالى :

وإذا كتّمتم تقولون: إنكم المخدتم هذه الآلة المزعومة لتكون شفيعة لكم عند الله فإن هذا الرعم لا يقل بطلاناً وضلالاً عن سابقه . . . وتصور الآيات الكريمة هذا الموقف تصويراً بليغاً . . . إذ تقرر أن الشفاعة أمرها الله تعالى وحده، فهو سبحانه الذي يأذن بها حسب مشيّته، كما قال تعالى في آية أخرى:

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْعَىٰ عَنْهُ وَإِلَّا يَرَاهُنَّهُ ﴾^(١)

وورد في الحديث النبوي الشريف أن رسول الله - ﷺ - وهو من هو منزلة عند الله تعالى حين يقوم المقام المحمود الذي أعطاء الله ليشفع في الخلق كلهم

(١) سورة القراء الآية ٩٣٥

يقول: «فَأَسْجُدْ لِهِ تَعَالَى فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ أَنْ يَدْعُنِي، وَيَفْتَحْ عَلَيَّ بِمُحَمَّدٍ لَا
أَحْصِبُهَا إِلَّا نَّ

تَقْعُدُ»^(۱).

وفي هذا الموقف الحق يوم القيمة موقف الفرع الأكبر، حينما يزول الفزع عن
قلوب الخلق يسائل الخليق . . ماذا قال ربكم؟ فيكون الجواب - قال الحق . .
وهو أنه لا شفاعة عنده إلا بإذنه ولا تكون الشفاعة إلا من شاء الله من المشفعين
وهم الملائكة وغيرهم . . والمشفع لهم هم وهم المؤمنون . فهو سبحانه العل الكبير
صاحب السلطان الغالب فله أن يحكم في عباده بما يريد، وليس لأحد معه سلطان
أو شركة في أمر هذا الكون خلقاً أو تدبيراً أو قضاء في يوم الحساب .

كل مقدرات الحياة بيد الله تعالى :

وتفصي الآيات الكريمة في تفتيش مزاعم المشركين، وبيان ما هم عليه من
ضلال، وما هم فيه من وهم لا حقيقة له: فتوجه إليهم بالسؤال تلو السؤال مما لا
جواب له إلا الإقرار بالآلية لله تعالى وحده، فتقول لهم: من الذي يدير أمر
السموات والأرض؟ ومن الذي أبدع هذا النظام المحكم العجيب من ليل ونهار
وسماحات وغيار، وحر وبرد ورياح؟ ومن الذي أوجد الأرض على هذه الحالة التي
تسافق فيها مع نظام السماءات فجعلها صالحة لإثبات المزروعات في الفصول
المختلفة تتعدد منافعها وأشكالها وألوانها ومواقيت ظهورها، ودوره حياتها؟ إن أحداً
لا يستطيع أن يدعى أن له في ذلك بدأً أو حولاً أو قوة . . إنه سبحانه الذي خلق
الحيوانات وجعل منها فصائل متعددة لكل فصيل نفعه، ونظام حياته، ومن الذي
ركز في الأرض معادتها وترواحتها الطبيعية التي لا قوام للحياة بدونها إن الجواب الذي
تنطق به الفطرة السليمة هو أنه الرزاق ذو القوة الكفين .
فهل يستقيم بعد ذلك في منطق العقول أن يدعوا إنسان مع الله تعالى آلة .

آخر؟

(۱) مختصر تفسير ابن كثير.

أي الفريقين على طريق الهدى؟

وبعد أن تحدد موقف كل من المؤمنين والشركاء وقامت الحجة تلو الحجة، وجاء الدليل ينبعه الدليل على بطلان مزاعم الشركاء حيث لا تقاوم بين الإيمان والشرك، ولا جامدة تربط المؤمنين بالشركاء، فإن الآيات الكريمة تفضي إلى أبعد الغايات في أدب الحوار وأساليبه، فتقرر أن أحد الفريقين مستقيم على طريق الهدى، والأخر غارق في تيه الضلال، ولا يمكن بعد هذا البيان القرائى المعجز إلا أن يكون المشركون هم أهل الضلال والغواية، وإن المؤمنين هم أهل الهدى والرشد.

حرية الاختيار وحنيمة التبعية:

وما دام الحق قد اتضحت، والحجة قد قات، فإن كل إنسان مسئول عن اختياره، وعلىه تحمل تبعية هذا الاختيار، فلن تسألوا أياً المشركون عن تبعية أعمالنا ولن نسأل عن تبعية أعمالكم، فالله سيجزي كل إنسان بعمله، إن حيرا فخير وإن شرًا فشر. وليس حرص الرسول على دعوتكم للإيمان مرة بعد مرة إلا لإرادة الخير بكم، فلن يلحقه ضرر من كفركم وشرككم

وسوف يجمع الله تعالى بيته يوم الحساب، ومحاسب كل من اعمل عمله،
فيقضي سبحانه يوم القيمة بيته وبينكم قضاء الحق والعدل، لينال كل جزاء عمله، فهو القاضي بالحق، العليم بأحوال حلقه حيما.

مزاعم الشرك كلها باطلة:

نم تفضي الآيات الكريمة في استقصاء عجزهم وبيان زيف دعواهم فتطلب منهم أن يثبتوا إن كان هذه الأحتام والأوثان التي رعموها آلة قادرة على خلق شئ أو تقديم نفع أو دفع ضر، لستقيم لهم دعوى الشرك الزائفة، وما دام شئ من ذلك لم يكن، ولن يكون، فإن الإله المعبد بحق هو الله القوي الذي لا يغلب، الحكم في كل ما أمر به

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ

إِلَّا كَافَةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يُورِمُ لَا تَسْتَغْرِفُونَ عَنْهُ
سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

[معاني الكلمات والجمل]

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَةً :	أَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ كُلَّهُمْ ، فِرْسَاتُكَ عَامَةٌ باقِيَةٌ إِلَى
لِلنَّاسِ :	قِيَامُ السَّاعَةِ .
بَشِيرًا وَنَذِيرًا :	مُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ لِمَنْ أَطَاعَ وَمُنذِرًا بِالنَّارِ لِمَنْ عَصَى .
هَذَا الْوَعْدُ :	مَوْعِدُكُمْ لَنَا بِقِيَامِ السَّاعَةِ .

الإِيْضَاح

علوم رسالة محمد - ﷺ :

بعد أن تناولت الآيات السابقة أمر التوحيد، وأقامت الأدلة عليه، وأبطلت مزاعم المشركين ودعواهم الباطلة جاءت هذه الآيات تبين أمر الرسالة رسالة محمد - ﷺ - وأنها عامة شاملة، فأوضحت أنَّه - ﷺ - مرسل من الله تعالى للناس جميعاً، وأن رسالته عامة لجميع البشر في كل زمان ومكان، وأن الله تعالى أرسله

مبشر بالجنة لمن أطاعه فآمن بالله، ومنذر بالنار لمن عصاه فكفر وأشرك بالله، وكان أكثر الناس .. وقت بعثته - ﴿إِنَّمَا يُنذَرُ الظَّالِمُونَ﴾ - مشركون خاليين، وقلة منهم فقط هم المؤمنون الذين اهتدوا بترور الرسالة، أما الكثرة فقد حملهم جهلهم وعنادهم على الإصرار على ما هم فيه من شرك وضلال، فكان الكفار من عنادهم وضلالهم يتجلون يوم القيمة تحدياً للمؤمنين وجهلاً وغروراً قال تعالى:

﴿بَتَعْجِلُ إِلَيْهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ أَمْنُوا مُتَفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ إِلَّا إِنَّ الَّذِينَ يُكَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَنْفَضَّلُوا بَعْدَهُ﴾^(١٦)

وليس الأمر متعلقاً بهواهم أو مشتبههم ، فما ذه نحال قد جعل لكل شيء وقته ، وقدر له موعده ، ولذلك كان الرد على تساويفهم هذا قاطعاً واضحاً . . . فموعد البعث لا يتقدم ولا يتأخر تبعاً لأهواء المشركين أو لرغباتهم ، فعند البعث يعلمون أن الساعة حق وأنها آية لا ريب فيها .

فدعوا السؤال عن وقت قيام الساعة فهي آية لا شك فيها ، وأولى بكم أن تسألوا عن أحوالكم ومصيركم حين تقفون حائرين مذهولين من أحوال يوم القيمة .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ نُؤْمِنَ
 بِهَذَا الْقُرْءَانِ وَلَا يَأْلِمُنَا بَيْنَ يَدِهِ وَلَوْرَئِ إِذَا الظَّالِمُونَ
 مُوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ بِرِجْعٍ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ أَقْوَلُ
 يَقُولُ الَّذِينَ أَسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ أَسْتَكِبَرُوا وَلَا إِنْتُمْ لَكُمْ
 مُّؤْمِنُونَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ أَسْتَكِبَرُوا لِلَّذِينَ أَسْتُضْعِفُوا
 أَنْحَنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذَا جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ
 مُّجِرِّمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ أَسْتَكِبَرُوا
 بَلْ مَنْ كُنُّا أَلْتَهِي وَالنَّهُ أَنِّي تَأْمُرُ وَنَنْهَا أَنْ تَكْفُرُ بِاللَّهِ
 وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَاسْرُوا أَلْثَادَةَ لِمَا رَأَوْا أَلْعَذَابَ
 وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يَجِزُونَ
 إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

[معاني الكلمات والجمل]

- | | |
|---|--|
| <p>: أى لن نؤمن بما سبق القرآن الكريم من الكتب السياوية كالتوراة والإنجيل.</p> <p>: عبادون في موقف الحساب أمام الله تعالى لا يستطيعون فكاكا.</p> <p>: بحاصرون ويتجادلون يريد بعضهم عمل البعض الآخر.</p> <p>: هم الأتباع المرهوسون الذين يأتخرون بأوامر رؤسائهم.</p> <p>: هم القادة والرؤساء الذين يصلرون الأوامر.</p> <p>: أى كتم مصرين على الكفر والشرك بدافع من أنفسكم.</p> <p>: المكر: الاحتيال والخداع ، والمراد حديثكم لنا المتصل ليل نهار وإنما حكم علينا دون انقطاع بتزيين الشرك وتقييم التوحيد.</p> <p>: أثابها ونظراء.</p> <p>: أى أظهروا الندامة ، وهو من الأخذاد ويكون في الإخفاء والإبداء.</p> <p>: جم غل وهو طوق من حديد. إذا وضع حول الرقبة فهو غل، وإذا وضع حول اليدين أو الرجلين فهو قيد ..</p> | <p>ولا بالذى بين يديه</p> <p>موقوفون عند رتهم</p> <p>يرجع بعضهم إلى بعض القول</p> <p>الذين استضفوا</p> <p>الذين استكبروا</p> <p>بل كتم مجرمين</p> <p>مكر الليل والنهر</p> <p>أندادا</p> <p>أسرروا الندامة</p> <p>الأغلال</p> |
|---|--|

الإيضاح

موقف الندم والندمة للمشركين يوم القيمة:
تكشف هذه الآيات الكريمة ما انطوت عليه قلوب مشركى مكة من إصرار

على الشرك ورفض لدعوة الإيمان، ونكر للدليل تلو الدليل، وكلها تشهد بصدق دعوة محمد - ﷺ - وصحة رسالته، وكان أهل الكتاب قد أخبروا مشركي مكة بصفة الرسول - ﷺ - كما تحدثت عنها الكتب السماوية السابقة، فلما عرف المشركون صدق هذه الصفات بعد مناقشتهم الرسول - ﷺ - كبر عليهم أن يسلموها بهذا الدليل الجديد، وقالوا: لن نؤمن بهذا القرآن الذي جاء به محمد ولا بالكتب السماوية التي نزلت قبله، وهو موقف يدل على عنادهم وأصرارهم على الكفر، وأنهم في جدالهم لم يكونوا طلاب حق أو هداية.

ثم تعرض الآيات الكريمة موقفهم المخزي المتداعي يوم القيمة أمام الله تعالى، إذ يلقى جمهور المشركون تبعة شركه وكفره على فريق الرؤساء والقادة، وأنه لو لا ما كان يأمرهم به الرؤساء من الشرك، ويزينونه لهم عن طريق المكر، والخداع لكانوا مؤمنين. فيرد الذين استكبروا هذا الانهاب باسلوب استنكاري شعبي، مؤكدين هؤلاء الأتباع المستضعفين أنهم هم الذين اختاروا الشرك على الإيمان، وفضلوا الفضلال على المدى.

ثم تكون النهاية المحتومة لكل من التابعين والمتبعين مثلثة في تلك الصورة الهيئة بوضع الأغلال في أعناقهم كما توضع في أعناق الدواب والبهائم ثم يساقون جميعاً إلى النار جزاء كفرهم وشركهم وإعراضهم عن دعوة الله، وهذا جزاء عدل على ما قدموا في حياتهم الدنيا.

وهذا شأن أهل الفضلال الذين لم يستجيبوا للنداء الإيمان قلم يتذيرروا آيات الله في الكون، ولم يعقلوا ما جاءهم به الرسل من المدى ودين الحق، وقد صور لنا القرآن الكريم موقفاً مشابهاً بهذا الموقف في حوار بين الشيطان وأوليائه في قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَنُ لِمَا فِي الْأَمْرِ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُو رَبِيعَ الْحَقِيقَ وَوَعَدْتُكَ فَأَخْلَقْتُكَ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَنٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكَ فَلَا تَنْجِبُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي ﴾

وَلَوْمَةً أَنفُكُمْ مَا أَنَا بِعَصِيرِ خَكْرٍ وَمَا أَنْتُ بِعَصِيرِنِي إِنِّي كَفَرْتُ بِهَا أَشْرَكْتُمُونِ
مِنْ قَبْلٍ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٢

وفي هذا الموقف وأمثاله تعلم و إرشاد للذى العقول والآباب ، و تأكيد على
أن كل إنسان يتحمل تبعه عمله ، وأنه محاسب على ما قدم في هذه الحياة الدنيا ،
ولن يعنيه - في موقف الحساب - إلا ما قدم من عمل صالح . وفيه دعوة إلى إعمال
العقل والنظر في الأدلة والبراهين فذلك يجده الطريق المستقيم الذى يصل
بالإنسان إلى شاطئ الأمان والأمان في الدنيا والآخرة .

فعل المسلم أن يعمل عقله ، ويتحرج وجه الحق ذاتياً ويسلك طريقه متى
تبين له وجه الصواب ولا يسلم زمام أمره لغيره دون أن يكون عمل بينة مما يدعوه
إليه

* * *

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٢

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْبَةِ مِنْ

نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتَرَفِّهَا إِنَّا بِمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ③٤

وَقَالُوا تَحْنُّ أَكْثَرُ أَمْوَالَهَا وَأَوْلَادَهَا وَمَا تَحْنُّ بِمُعَذَّبِينَ ③٥

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِعَنِ يَسَاءٍ وَيَقْدِرُ وَلَا كِنْ

أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ③٦

أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقْرِبُونَ كُمْ عِنْدَنَا زُلْقَنْ إِلَّا مَنْ ظَاهَرَ وَعَمِلَ

صَالِحًا فَأَوْلَئِكَ هُمْ بِرَأْءَةِ الْعَصْبَىٰ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ

فِي الْغُرْفَاتِ ءَامِنُونَ ③٧

وَالَّذِينَ يَسْعَونَ فِي ءَابَنِنَا مُعْجِزِينَ أَوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخْضِرُونَ ③٨

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِعَنِ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ

وَمَا أَنْفَقَ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ بِخَلِفِهِ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ③٩

[معاني الكلمات والجمل]

من ثلث

مترفوها

: من نبي أو رسول مرسلاً من قبل الله تعالى . . .
: أغناها ورؤساؤها أصحاب الشرف والجاه
والسلطان .

يُسطِّر الرزق

ويقدر

: يوسعه ويزيله .

: يضيق ويقلل .

تقرِّيكم عندنا زلف : أي لبس الشرف التي في أيديكم ولا كثرة الأولاد دليلاً
على علو مراتبكم عند الله تعالى وفريكم منه .

جزاء الضعف

: الجزاء المضاعف ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعينات
ضعف وإلى ما شاء الله تعالى من الفضل والزيادة .

الغرفات

: منازل المؤمنين في الجنة .

يسعون في آياتنا معاجزين : أي يذلون جهدهم في الصد عن سبل الله ، وعن
ابداع رسالته وعن التصديق بآياته .

فهو يخلفه : أي ما أنفقتم في سبيل الله ، وفي وجهه الخير فالله
تعالى يخلفه عليكم في الدنيا أضعافاً مضاعفة ،

ويعززكم عنه في الآخرة ثواباً متصلًا ونعيماً مقيناً .

الإيضاح

ما من نبي بَعَثَ في قرية إلا كَذَبَه مترفوها :

تقرر الآيات الكريمة أن موقف زعماء الشرك في مكة وهم كبراؤها وسادتها
وأصحاب السلطة والشرف والجاه من الرسول - ﷺ - ومن دعوته ليس أمراً فريداً أو
جديداً في مسيرة الحياة الإنسانية ، فقد كان هذا موقف نظرائهم حيال الأنبياء
والمرسلين السابقين ، فقد كذبوا الرسول ، ويدلوا بكل ما وسعهم من جهد للصد عن
سبيل الله ، ووضع المستضعفين من عامة الناس من اتباع الرسول بإصلاحهم تارة

والسخرية منهم تارة أخرى، وتهديدهم والتنكيل بهم إذا أصرروا على الإيمان باهله
وابتاع رسنه.

الرسول ليس يدعا بين الرسل في تكذيب المعاندين له :

كان هذا موقف قوم نوم حينما قالوا:

﴿ وَمَا تَرْكَ أَتَبَعْكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بَادِيَ الْأَرَأِيِّ وَمَا تَرَى لَكُنْ حَلَبَانَ مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظَرْكُنْ كَلَبِينَ ﴾

و كذلك قوم شعب حبها قالوا له :

﴿ مَانِفَقَهُ كَثِيرًا إِنَّمَا تَنْهَىٰ وَإِنَّا لِنَرْثَكَ فِيَّ مَنِيعًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَتَكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾^{١٣}.

كثرة المال والولد لا تدل على تفضيل أصحابها:

وكانت حجتهم في ذلك أنهم أصحاب شرفة واسعة وذرية كثرة العدد . . .

وما دام الله قد أعطاهم هذه الثروة ، ووعبهم كثرة الولد ، فإنه راض عنهم ولذلك لن يعذبهم في الآخرة فاتخذوا من سعة الرزق وبسطته في الدنيا وكثرة الولد دليلا على تفضيل الله تعالى لهم ، ومن ثم فلن يعذبهم في الآخرة ، هل سيكونون مكرهين متعمقين كما كانوا في الدنيا .

وَيَرِدُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْمَانِهِمْ وَأَيْمَانُهُمْ نَحْنُ نَحْتَمِنُ فَسْعَةَ الرِّزْقِ
أَوْ فَضْلَقَهُ فِي هَذِهِ الْجَاهَةِ الدُّنْيَا رَهْنٌ بِعِثْنَتِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَيْسَ هَذَا دَلِيلًا عَلَى تَفْضِيلِ
أَصْحَابِ الْأَشْرَفَةِ وَالْجَاهَةِ عَلَى غَيْرِهِمْ مَنْ لَمْ يَثِنْ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُبَطِّلَ لَهُمُ الرِّزْقَ فِي هَذِهِ

۲۷۴۹ سیده میرا

الله يحيى (ت)

الحياة الدنيا، وقد أكد القرآن الكريم بطلان هذا الرزум في أكثر من آية قال تعالى:

﴿ إِنَّهُمْ لَا يَحْسَنُونَ أَعْمَالَهُمْ يَرَوْهُ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ۚ ۖ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَسْعُونَ ۚ ۷۱﴾

والذي أوقعهم في هذا الوهم هو جهلهم، وعدم علمهم بحقيقة مشيئة الله تعالى لأنهم لا يتأملون آيات الله تعالى في الكون من حولهم ولا في أنفسهم، وتفضي الآيات الكريمة مزكدة هذا المعنى وهو أن الأموال التي أعطاكم الله إياها ليست دليلاً على قربكم من الله تعالى ولا عنواناً على تفضيله سبحانه وتعالى لكم، إنما يكون القرب من الله تعالى وبلغ منزلة الفضل بالإيمان والعمل الصالح نهائياً الميزان الصحيح لمنزلة الإنسان عند ربه، وبهذا تستقيم أمور الحياة، وتتظم العلاقات السليمة بين الناس.

وقد كان الترف والمترفون سبباً في هلاك أقوام كثيرين، يقرر ذلك القرآن الكريم في أكثر من موضع. قال تعالى:

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ تُهْلِكَ قَرْيَةً أَمْرَنَا مُرْتَبِقَهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَنَّ عَلَيْهَا الْقَرْبُ فَدَمَرْنَاهَا تَدِيرِمًا ۚ ۷۲﴾

الجنة متع المتقين والنار جزاء المعاذدين الكافرين:

ولشن فات المزمنين شيء من متع الدنيا - وهي ومتاعها إلى زوال - فلان لهم جزاء ليهانهم وعملهم الصالح نعيها مقيماً في الحياة الآخرة وسيجزيهم الله بما عملوا من الصالحات في الدنيا أضعافاً مضاعفة في الحياة الآخرة، فلهم الأمان في منازلهم

(١) سورة المؤمنون الآيات ٥٥، ٥٦.

(٢) سورة الأسراء الآية ١٦.

بابلنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

أما الذين امعنوا في الضلال وسعوا في الصد عن سبل الله ، وتصدوا لرسله الكرام بالكذب والإنكار فضلوا وأضلوا فاولئك لا نجاة لهم من العذاب يوم القيمة .

وعد الله للمنافقين في سبله لا يختلف :

وتتابع الآيات الكريمة مؤكدة أن أمر الرزق - سعة وضيقاً في هذه الحياة الدنيا - بيد الله تعالى وحده بمحりه وفق مشيته وحكمته ، ومع أن الرزق كله من عند الله تعالى فإنه تعالى فضلاً منه وكرماً بمحري من ينفق مما أعطاه الله فإن يختلف عليه في الحياة الدنيا أو يدخل له ثواب ما أنفق ليتعم بجزائه في الحياة الآخرة ، فهو سبحانه خير الرازقين لأنه يعطي عباده ابتداء دون مقابل وتحزان عطائه لا تقدر . ومن أخرج من عدم إلى الوجود فهو الرزاق على الحقيقة كما قال تعالى :

﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾^(١)

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْعَتِيْنُ ﴾^(٢)

* * *

(١) سورة التحلية الآية ٩٦.

(٢) سورة الذاريات الآية ٥٨.

(٣) تفسير القرطبي الجزء الرابع عشر .

وَيَوْمَ يُحْشِرُهُمْ جِبِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمُلْكَةِ أَهْتُرُلَاءِ إِبَاكُرَ
 كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِنْ دُونِنَا
 بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ أَنْجَنَ أَكْثَرُهُمْ زَرِيمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾
 فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًا وَنَقُولُ
 لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْنَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا
 تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

[معاني الكلمات والجمل]

- بحشرهم : يبعثهم من قبورهم ويسوقهم لوقف الحساب يوم القيمة.
- سبحانك : تعاليت وتقدست عن ان يكون لك شريك او معلم إله آخر.
- انت ولينا من دونهم : نحن عبادك ولا صلة لنا بها يقول هؤلاء ونحن براءاء مما يدعون.
- الذين ظلموا : المتركون المكذبون للرسل عليهم السلام.

ذوقوا عذاب النار
الذى كتم به تكذيبون

الإيضاح

موقف الخزي والخuran للمرتكبين يوم القيمة :
و يوم القيمة يحيى الله تعالى الموتى من قبورهم ويحشر الخلائق جميعاً موقف
الحساب، ويناقش هؤلاء جميعاً فيما قدموه لهذا اليوم ، فيخاطب سبحانه وتعالى
الملائكة : أهؤلاء الذين أشركوا في حياتهم الدنيا كانوا يعبدونكم من دوني كما
يدعون؟ إذ كانوا يعبدون صوراً وتماثيل يدعون أنها على صورة الملائكة . فترد
الملائكة وهم عباد مكرمون بسبحون الليل والنهار لا يفترون فاتلين : سبحانك ربنا
تعاليت عن الشرك والتظير أنت ربنا ونحن عبادك ، فلم نوال هؤلاء المفترين
الكافرين بل كانوا يرافقون الشياطين ، لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأسماء
فأضلوك عن طريق الهدى والرشاد كما قال تعالى :

﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَ وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا تَبْيَكُهُمْ رَبِّهِمَا ﴾ لعنة الله
وَقَالَ لَا تَجِدُنَّ مِنْ عِبَادَكَ نَصِيبًا مُّغْرِبًا ﴾ ١١٦ ﴾ .

والآن لا يملك لكم ما كتم تعبدونه من الأنداد والأوثان من الله وتفعلوا ولا
ضرار في يوم الحساب الذي كتم ترجون فيه نفع هؤلاء العبودين .
ويقول الله تعالى للمرتكبين في ذلك اليوم : ذوقوا العذاب الذي كتم به
تكذيبون حينها جاءكم رسول وحدركم من تلك العاقبة الوبيلة ، ويقال لهم ذلك
تقريراً وتوبيناً واستهزاء .

(١) سورة النساء الآيات ١١٧ - ١١٨ .

« وَإِذَا شَرَكُوا عَلَيْهِمْ مَا أَيْتَنَا بِيَنْتَرُ قَالُوا
 مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّ كُلَّ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ
 إِلَّا أَنَّا وَمَنْ كَفَرَ مِنْ أَهْلَهُ
 وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرٌ وَقَالَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا بِحَرْثَيْنِ (٤٣)
 وَمَا أَتَيْنَاهُمْ مِنْ كِتْبٍ يَذَرُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ
 قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا يَلْفُو
 مُعْتَارًا مَا أَتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِيْ فَكَيْفَ كَانَ
 نَكِيرٌ (٤٥) »

[معاني الكلمات والجمل]

- | | |
|----------------|-------------------------------------|
| بيانات | : واصحات دالات مرشدات. |
| ما هذا إلا رجل | : يعني الرسول - ﷺ. |
| يصدكم | : يصرفكم وتحول بينكم وبين معبداتكم. |

ما هذا إلا إفك مفترى : الإفك : الكذب والافتراء : الادعاء بغير دليل -
يعنون أن القرآن الكريم ليس من عند الله ، وليس
ما جاء به صدقاً وحقاً.

الحق : القرآن الكريم وما فيه من دعوة إلى التوحيد .
سحر مبين : أي تخيل لا حقيقة له .
كتب : المراد ما نزل عليهم قبل القرآن كتاب سماوي (وهم
مشاركة مكة) .

نذير : رسول الله من عند الله .
معثار : العثار: العشر وقيل هو جزء من ألف جزء .
نكير : عقاب ونكال .

الإيضاح

دعوى المشركين كلها كذب وبهتان :

تحدث الآيات الكريمة عن دعواي المشركين الكاذبة وحجتهم الباطلة ،
فقد كانوا إذا سمعوا من الرسول - ﷺ - آيات القرآن الكريم غصة طرية تنزل
لأول مرة قالوا : إن حمداً هذَا يربد أن يصرفكم عن دين آبائكم ، فلدين آبائهم
عندهم هو الحق ، وما جاءهم به محمد هو الباطل في زعمهم ، فقد قالوا إن القرآن
الكرييم ليس من عند الله وإنما هو من اختراع محمد وافترائه .

وحيثما تهاوت حجتهم الباطلة بخلافاً إلى حجة أخرى هي ادعاؤهم أن حمداً
ساحر ، وأن ما جاء به سحر ، وهي دعوى أكثر خلالاً ، وأشد بطلاناً من سابقتها .
فالقرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ثم فصلت ولم يستطع أحد منهم ولا
من غيرهم أن يقترب ولو قليلاً من روعة بيانه وقوته إعجازه وشدة أسره وتأثيره ، قال
تعالى :

﴿ قُلْ لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُونَ وَأَلْجَنَ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِيَعْتَلَ هَذَا الْقَرْبَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بِعِصْمِهِ لِبَعْضٍ طَهِيرًا ﴾ ①

لم يكن العرب أهل كتاب، وما أرسل إليهم رسول قبل محمد ②: شاءت إرادة الله تعالى إلا ينزل على هؤلاء القوم كتاباً سموا به كما أنزل على بعض الأمم السابقة، وألا يرسل إليهم رسولاً قبل محمد ③ - فقد كانوا يتعلمون ذلك، ويقولون: لو أنزل علينا لكننا أهدى منهم، ولو جاءنا تذير لامنا، فلما أنزل الله عليهم الكتاب وجاءهم التذير، كذبوا وتجحدوا وعاندوا وأصرروا على شركهم .. ولم يكن حال هؤلاء المشركين بدعا في حياة الأمم، فقد كذبت أمم سابقة لهم ولصلحهم، وكانوا قد بلغوا من القوة مترفة لا يتوافر لشريك مكة واحد من مائة منها، فأنزل الله تعالى بهم عقابه الشديد، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر قال تعالى:

﴿ أَلَمْ يَرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنْقَةُ الدِّينِ مِنْ قَبْلِهِمْ دَهْرٌ أَلَهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِ مِنْ أَمْثَلُهَا ﴾ ④

فيه تهديد ووعيد لشريك مكة وللتكافر في كل زمان ومكان.

* * *

(١) سورة الإسراء الآية ٨٨.

(٢) سورة محمد الآية ١٠.

﴿٤٦﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُم بِرُوحَةٍ أَنْ تَقُومُوا
 بِاللهِ مُشْتَنِي وَفُرَادَى ثُمَّ تَفَكَّرُوا مَا يَصْبَرُوكُمْ مِنْ جِنَّةٍ
 إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ ⑯
 قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرٍ إِلَّا عَلَى اللَّهِ
 وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⑰ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْدِيرُ
 بِالْحَقِّ عِلْمُ الْغَيْوَبِ ⑱ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّي
 أَبْيَطُلُ وَمَا يُعِيدُ ⑲ قُلْ إِنْ صَلَكُتُ فَإِنَّمَا أَضْلَلُ
 عَلَى نَفْسِي وَإِنْ أَهْنَدِبُ فَهَا بُرْحَانٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ

قریب ⑳

[معاني الكلمات والجمل]

أعظمكم بواحدة : أصلح لكم بخصلة واحدة وادلكم عليها

أن تقوموا الله	: أن تفكروا جيداً وتجدوا في طلب الحق خالصاً لوجه
مشى وفرادي	: مجتمعين ومنفردین .
صاحبكم	: محمد ﷺ .
جنة	: جنون .
ندير	: مخدر لكم من عاقبة ما أنتم فيه من شرك وضلالة .
ما ساتكم من أجر	: إن سألكم أجرًا على تبليغ الرسالة فهو لكم فهر لكم
شهيد	: مطلع عالم بكل شيء .
يقذف بالحق	: بين الحجة ويفظها .
حاء الحق	: جاء الإسلام .
واما يبدئ الباطل وما	: ما: نافية: أي لا يستطيع الشيطان ولا أولياؤه أن يخلقا شيئاً أو يعيدها خلقه .
يعيد	

الإيضاح

دعوة للإنصاف والتجرد لوجه الحق :

يلع القرآن الكريم بهذه الآيات البينات تمام الحجة على المشركين وغاية الإنصاف لوزراء القرم، فيطلب من الرسول ﷺ أن يقول لهم: إنني ناصح أمين لكم، أدعكم إلى التروى والتفكير قبل المبادرة بالتكليم عناداً أو استكباراً وهو أن تتجددوا لطلب الحق، فتعملوا فكركم وعقلكم مشى وفرادي.

وفي هذا الإرشاد الإلهي بيان لأسلوب التفكير السليم الذي ينأى فيه طالب الحق عن صخب المجتمعات الكبيرة وما يصاحبها من الخلط والتهويض وقلة الإنصاف وكثرة الخصوفة . . وهو أسلوب الحوار الهدى في صور مجموعات

صغيرة، أو في خلوة مع النفس بعيداً عن تسلط الكبراء والرؤساء أصحاب الهوى والمصالح الدنيوية الخاصة، وعندما تتقابل الآراء في هدوء، وحيثما تصفو النفس في خلوة خالصة لوجوه الحق فإن الحقيقة سوف تتكلّف لكم ولسائل بعضاكم بعضاً، وسائل كل منكم نفسه. هل جربتم على صاحبكم كذباً أو جنوناً؟ هل جربتم عليه أنه صاحب هوى أو طالب جاءه أو منصب؟ وسيأتيكم الجواب أنه لا هذا ولا ذاك، فهو منكم يعايشكم منذ مولده، ويتعامل معكم. وقد أسميت هذه الصادق الأمين قبل أن يأتيكم بالرسالة لرجاحة عقله، وصدق قوله، وطهارة نفسه، وكمال حفاته.

وإذ استبان لكم بالدليل العقل والتجربة الذاتية أنه ليس بالجنون فيها يقول ولا بالكاذب فيها يدعوكم إليه فيكون صادقاً في كل ما دعاكم إليه. وهو ينذركم بعقاب الله تعالى حين تقدمون عليه جزاء كفركم وعصيائكم.

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال: يا أصحابه، فاجتمعوا إليه قريش فقالوا: مالك؟ فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصيّحكم أو يمسكم، أما كنتم تصدقوه؟ قالوا: بل، قال ﷺ: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو طه: نبالك بهذا جتنا؟ فأنزل الله عز وجل «تبّ يدا أبي طه وتب»، ولما نهى عن الرسول ﷺ حفة الجنون الذي وصمه به المشركون كذباً وافتراء، وأثبت له النبوة، أكد صحة نبوته. وصدق رسالته بوجه آخر من وجوه التأكيد بقوله تعالى:

، قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَبْرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَّثَيْدٌ .

أي قل لهم يا محمد: إنني لا أريد منكم عوضاً ولا مالاً على أداء رسالتك، ونصحى لكم، وإرشادكم إلى ما فيه مصلحتكم ونجاتكم وهو عادة الله تعالى، وترك عادة الأصنام، وإنما أجري على الله، وهو العليم بما ظهر وخفى من أمرى معكم، فيعلم صدقى معكم، وخلوص نبتي في إرشادكم، فيكون ما دفع خدماً على ركوب الأخطار واقتحام الصعاب في سبيل الدعوة إلى الله ليس أمراً دنيوياً،

واباها هو الانصياع لأمر الله تعالى كما قال تعالى :

﴿ فَاصْدِعْ بِمَا تُؤْمِنُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(١)

الحق كله من عند الله :

وأخبرهم أيضا يا محمد أن الحق كله من عند الله فهو سبحانه الذي ينزل الوحي على من يشاء من عباده فيختار للرسالة من هو أهل لحملها وتحمل تعانها، لأن الله سبحانه العليم بكل ما كان وما سيكون من أمر الغيب الذي لا سبيل لكم ولا لغيركم إلى علمه.

وقد جاء بالهدى وهو القرآن الكريم ، الكتاب الذي فيه الحجج والبراهين ، ولا يستطيع الشيطان أو أحد من أتباعه المطلعين أن يخلق شيئاً ابتداءً أو يعيد خلقه ، وكذلك أمر الإسلام الذي هو الحق من عند الله تعالى فإنه غالب ومتصدر على الباطل وهو الشرك الذي أنتم عليه .

وفي هذا إشارة إلى غلبة الإسلام وانتشاره ، وانحسار الشرك وزوال دولته . روى البخاري وسلم : « أنه لما دخل رسول الله - ﷺ - المسجد الحرام يوم الفتح ووجد الأصنام منصرية حول الكعبة جعل يطعن الصنم بيضة قوسه ويقرأ : « وقل جاء الحق وذهب الباطل إن الباطل كان زهوقا - قل جاء الحق وما يهدي الباطل وما يهيد » .

الرسول ﷺ يتحمل تبعه ما يدعوه إليه :

وبعد أن أبطل القرآن الكريم دعوى المشركين الزائفه أمر الله تعالى رسوله الكريم أن يقول لقومه إنني أتحمل تبعه ما أدعوه إليه ، فإن قلت إنني خالفت ما كان عليه قومك ، فضللت السير على طريقهم - كيما تزعمون - فإنني متحمل تبعه

(١) سورة الحج الآية ٩٢

ما أدعوك إليه ، وإن ما أدعوك إليه هدى ونور فهو ليس من عندي وإنما هو وحي من الله تعالى . وهو السميع لمن دعاه . قرب الإجابة ، فهو يسمع قوله وقولكم . ومحازى كلاً ما بها يستحق فالخير كل الخبر فيها دعوة لكم إليه وفيها أنزل الله على من الهدى والرشاد

• • •

وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَّ عُرْفَالاً فَوْتَ وَأَخْذُوا
 مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ⑤٦ وَقَالُوا إِنَّا يَهُ وَإِنَّهُمْ
 أَنَاوِشٌ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ⑤٧ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلٍ
 وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ⑤٨ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ
 وَبَيْنَ مَا يَسْتَهِنُونَ كَمَا فَعَلَ بِأَشْيَايِهِمْ مِنْ قَبْلٍ إِنَّهُمْ
 كَانُوا فِي شَكٍ مُرِيبٍ ⑤٩

[معاني الكلمات والجمل]

- | | |
|---------------------|---|
| الفرج | : الانفاس والخوف من الأمر المخيف. |
| فلا فوت | : فلا مهرب ولا نجا. |
| وأخذوا من مكان قريب | : أي أخذوا إلى النار من مكان قريب منها وهو موقف الخسر. |
| التناوش | : تناول الإنسان ونبيل مطلبهم بسهولة. |
| من مكان بعيد | : هو عمل الإيمان في الحياة الدنيا لأنهم الآن في الآخرة. |
| يقدرون بالغيب | : أي يرجون بالظنون والشكوك التي لا علم لهم بها. |

بأشاعهم : أى باشاهتهم ونظرائهم في الكفر، جع : ثبع.
في شك مرتب : إنهم كانوا في شك من أمر البعث والحساب والجزاء
أرقعهم في الريبة.

الإيضاح

موقف الفزع والسرقة للكفار يوم القيمة :

تصور هذه الآيات الكريمة موقف الكفار يوم القيمة حين يغزون من العذاب الشديد، فلا يستطيعون هرباً، ولا يجدون ملحتاً ينجيهم من العذاب، حيث ي Roxذون قهراً من موقف الحساب إلى موقع العذاب في نار جهنم. ولا ينتفعون في ذلك إعلان إيمانهم بالله تعالى وبمحمد ﷺ وبما جاء به، فقد كان ذلك متاحاً لهم في الدنيا وأنّى لهم ذلك في الآخرة فقد مفتت الحياة الدنيا، ولم يعود إليها من سبل أو رجعة فهم الآن في الآخرة وهي دار حساب وجزاء، ولم يعد إيمانهم مقبولاً. لأن الآخرة ليست دار تكليف أو عمل. وكيف يتلقى لهم الإيمان في الآخرة، وقد كفروا في الحياة الدنيا وكذبوا الرسول في كل ما دعاهم إليه، وكانوا يرمون الرسول بمعطاعن ليس لها سند من حجة أو منطق، فتارة كانوا يقولون إنه شاعر، وأخرى يقولون إنه ساحر، وثالثة يقولون إنه مجنون، وما إلى ذلك من المطاعن الباطلة، فضلاً عن تكذيبهم أمر البعث والثواب والحساب والجزاء.

آمنات مستحيلة لا سبل إليها :

يتمنى الكفار يوم القيمة أن يعودوا إلى الدنيا، فيؤمنوا ويعملوا عملاً صالحاً، ولكن هذه آمنات مستحيلة لا سبل إلى تحقيقها. كما قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بِالْأَنْوَاءِ مَا كُلُّوا مَا نَهَا يَأْتِيهِ وَحَدَّمْ وَكَفَرُوا بِمَا كُلَّا يَهُوَ مُتَّسِرٌ كَيْفَ ﴾

فَلَمْ يَكُنْ يَنْقُصُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَعَلَّا أَوْ أَبَانَ^{١١} سُنْنَةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ^{١٢}
وَخَسِرَ هُنَّا لِكَ الْكَافِرُونَ^{١٣}

وكذلك الأمر مع أشيائهم من سقوتهم بالشرك ونكذب الرسل والانصراف
عن دعوة الحق التي جاءوا بها.

سورة فاطر
مكية وآياتها خمس وأربعون
نزلت بعد سورة الفرقان

سورة فاطر

تقديم :

سميت هذه السورة الكريمة سورة «فاطر» أو «الملاك»، لاتضمنه مطلعها من الحديث عن الخلق والملائكة. وقد تضمنت هذه السورة - ككل سور المكية - أرباء الأصول الثلاثة للعقيدة الصحيحة وهي : التوحيد، والرسالة، والبعث. فتحدثت عن الالوهية والقدرة البدعة النعمة المنخفضة التي ثبت أن أمر الخلق كله - إيجاداً وتدبرًا - راجع إلى الله تعالى ، وأنه سبحانه المنعم الرازق واجب الحمد والشكر ومستحق كل ثناء .

كما تحدثت عن الأمم السابقة ومواففهم مع رسول الله تعالى وآياته وما ألم به أمر كل منها، ثبيناً للرسول - ﷺ - وتسليه له ، وعظة وعبرة لقرمه المعاذين المكابرین ، ومثلًا للناس جميعاً من بعده .

وأكملت بالأدلة القاطعة أمر البعث والحساب والثواب والعقاب في الدار الآخرة وعاقبة المؤمنين المصدقين والشركين المكذبين ، وما سوف يلقاه كل فريق منهم يوم القيمة من حزاء على عمله في حياته الدنيا .

وتسوق السورة الكريمة كل ذلك في بيان معجز مؤثر تتوالى إيقاعاته ، فتهز القلوب ، وتوقظ النغوس وتبه العقول لتدبر آيات الله في هذا الكون البديع الصنع ، ونطاع في آفاقه آيات القدرة الإلهية خلقاً وإبداعاً ودقة وتنظيم ، فتندو في جلاء وحدة الخلق ووحدة القانون الذي يحكم هذا الكون كله .

ولا يستقيم هذا كله ولا يتنظم وجوده إلا إذا كان أمره خلقاً وإيجاداً وتدبراً بيد قدرة علية حكمة رحمة تخضع لثبيتها كل المخلوقات إلا وهي قدرة الله تعالى رب هذا الكون المستحق وحده للعبادة فلا عذر بعد ذلك لمن أصله الشيطان فعن عن الحق واتبع هواه بعد ما تبين له المدى من الفسال على يد الأنبياء والمرسلين .

سُبْلَةُ الْمُكَبِّكَةِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ
 رُسُلًا أُولَئِنَّ أَجْنَحَةً مَتَّنِي وَثُلَاثَ وَرْبَعَ تَزِيدُ فِي الْخَلْقِ
 مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① مَا يَفْتَحَ اللَّهُ
 لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا يُمْسِكُ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا يُرِسِّلُ
 لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ② يَنْهَا النَّاسُ
 أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلِيقٍ غَيْرُ اللَّهِ يُرْزُقُكُمْ
 مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنْ تُؤْفِكُونَ ③

[معانى الكلمات والجمل]

- الحمد لله : الثناء والشكر لله تعالى بالقلب واللسان والجوارح
- فاطر السموات والأرض : خالقهم ابتداء على غير مثال سابق ، والمراد بالسموات والأرض الكون كله
- جاعل الملائكة رسلا : أي حاصل الملائكة وسائط بينه تعالى وبين خلقه يبلغون رسالته لأنبيائه ورسله
- أولى أجنبة متعددة بعضهم له جناحان : دوى أجنبة متعددة بعضهم له جناحان

ثلاث ورباع	: وبعضاهم له ثلاثة وبعضاهم له أربعة .
يفتح	: يعطي ويمنع .
يمك	: يمنع ويفس .
فأنى تؤنكون	: فكيف تتصرفون عن توحيده تعالى إلى الشرك؟ والاستفهام بقصد الإنكار والتعجب .

الإيفاض

ـ تعالى القدرة الكاملة والمثبتة المطلقة النافذة:

تنهل السورة الكريمة آياتها البيانات بالحمد لله تعالى والثناء والشكر، فهو سبحانه وحده المستحق للحمد المطلق ، لأنَّه سبحانه الذي خلق الكون كله ابتداءً على غير نظام سابق ، وأحكم تدبيره وتصرifice على أتم نظام وأكمله ، فقد خلق جلت قدرته الملائكة وكلفهم ليكونوا رسلاً إلى خلقه ، فأنزلهم بالوحى على آياته ورسله ، وجعل لهم أجنحة متعددة ، لكلِّ منهم عدد منها ، والأجنحة في عالمنا المادي المشاهد تساعد على الطيران والتنقل دون قيود ، وفي عالم الغيب تشير إلى سرعة الاستجابة في تنفيذ أوامر الله وتبيين رسالته .

وفي هذه إشارة إلى أنَّ الملائكة تتفاوت أقدارهم وقوامهم عند الله تعالى بحسب استعداد كلِّ منهم ووظيفته التي خلقه الله تعالى وهيأه لأدائه .

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه «أنَّ النَّبِيَّ ﷺ رأى حربيل عليه السلام - ليلة المعراج وله ستمائة جناح» .

وإطلاق المثلثة في قوله تعالى «يزيد في الخلق ما يشاء» يشير إلى أنَّ هذه الزيادة عامة مطلقة ، وليس نصراً على الملائكة وحدتهم ، لأنَّ لفظ الخلق يشمل جميع المخلوقات ، فتفاوت حظ الخلاائق في الصورة والشكل والمرزق والأجل ورحمة العقل وغنى النفس كله بمشيئة الله تعالى لأنَّه تعالى وحده هو القادر على كلِّ شيء ، وهذه نعمة كبيرة أنَّ جعل الله تعالى أمرَ الخلق والتدبير بيده تعالى

وَحْدَهُ لِتُشَيَّعُ فِي النَّفْسِ الْطَّمَانَةِ وَالْأَمْنِ وَالرُّخَا، فَيُعْضُى النَّاسُ فِي حَيَاتِهِمْ
مُطْمَثِينَ إِلَى أَنْ أَمْرَ الْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ وَمَا فِيهِ مِنْ تَفاوتٍ فِي الْقُوَى وَالْخَصائِصِ مَرْجِعُهُ
إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ .

الله وحده مصدر العطا :

وَكَمَا تَبَدُّلُ قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَمْرِ الْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ فَإِنَّهَا تَبَدُّلُ كَذَلِكَ فِي رَحْمَتِهِ
الَّتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ إِذَا لَا تُسْتَطِعُ أَيْ قُوَّةً فِي هَذَا الْكَوْنِ أَنْ تَحْوِلَ دُونَ وَحْشَوْلَ
رَحْمَتِهِ تَعَالَى لِأَيِّ مِنْ خَلْقَهُ، كَمَا لَا تُسْتَطِعُ أَيْضًا أَنْ تَفْعَلْ مَا لَمْ يَرِدْهُ اللَّهُ تَعَالَى
فَالْأَمْرُ كُلُّهُ بِيَدِ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ .

وَهَذَا يَطْعَمُنَ الْفَرَدَ كَمَا يَطْعَمُنَ الْجَمَاعَةَ إِلَى يَتَابِعُ هَذِهِ الرَّحْمَةَ فَيَكْتُبُ الْفَرَدُ
حَسَلَاتِهِ، وَيَكْتُبُ الْجَمَاعَةَ قَوْمَهَا فِي مَوَاجِهَةِ مُتَغَيِّرَاتِ الْحَيَاةِ دُونَ أَنْ يَهْزِئَ إِيمَانَهُمْ أَوْ
تَضَعُفَ عَزَّاتِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُغْلِبُ، وَالْحَكِيمُ الَّذِي نَجَّرَى
الْأَقْدَارَ وَفَقَ حِكْمَةَ بَعْلَمَهَا وَإِنْ خَفِيتَ عَنِ الْإِنْسَانِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ .

الخالق الرَّازِقُ هُوَ الْمُسْتَحْقُ لِلْمُعْبَادَةِ :

وَتَعْضُسُ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ تَخَاطِبُ النَّاسَ جِيَعاً وَتُطْلِبُ إِلَيْهِمْ أَنْ يَذَكِّرُوا نِعَمَ
الله تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِالْمُتَّهِمِ إِعْلَانًا عَنْ هَذِهِ النِّعَمِ، وَيَقْلُوْهُمْ إِلَيْنَا وَيَقْنَا
وَإِخْلَاصًا، وَيَأْعِيَاهُمْ وَفَاءً يَحْقِقُ هَذِهِ النِّعَمَ يَصْرُفُهَا فِيهَا حَلْقَتْ لِأَجْلِهِ، وَتَسْخِيرُهَا
فِيهَا يَرْضِيُ اللَّهُ تَعَالَى، وَالْبَعْدُ بِهَا عَمَّا لَا يَرْضِيُ، تَسْتَوِي فِي ذَلِكَ النِّعَمِ الْكَثِيرَةِ
كَخَلْقِ الْإِنْسَانِ فِي أَحْسَنِ نَقْوِيمٍ وَتَزْوِيدِهِ بِالْعُقْلِ وَالْحَوَاسِ، وَالْعَوْاطِفِ وَسَائِرِ
الْقُوَى الْمَادِيَةِ وَالْمَعْنَوِيَةِ، وَالنِّعَمُ الَّتِي لَا تَخْصُّ فِي الْكَوْنِ مِنْ حَوْلَنَا .

﴿ وَتَعْزِيزُ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ بِجَمِيعِ مَا إِنْتُمْ^{تَعْلَمُونَ} ﴾

فَلَا خَالِقٌ سَوَاءٌ، وَلَا رَازِقٌ إِلَّا هُوَ بَحَانُهُ فَهُوَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمُدَبِّرُهَا

(١) سورة الحياتية الآية ٣ -

ومالك أمرها، فلا يستقيم أن يكون أحد غيره تعالى يملك شيئاً من أمر الرزق
الذى أوجده الله تعالى أسبابه، ويسْرُ سبله من خلال هذا النظام المحكم البديع
في حركة هذا الكون وتصریف خلقه فالشمس والهباء والماء والليل والنهر وباقي
الكائنات التي يتفع بها الإنسان كلها مسيرة بأمره تعالى. فكيف تكفرون به
تعالى، وتشركون غيره سبحانه في عبادته، وتقصدونه بالطلب والدعاة.

«فَإِنْ تُؤْفِكُونَ» أسلوب استهمام يستذكر موقف الكفر والشرك في أي صورة
من صوره الظاهرة أو الخفية، وهو استكار لوقف كفار قريش من دعوة التوحيد
التي جاءهم بها الرسول - ﷺ - في كل عصر وفي كل مكان من حمد عن دعوة
التوحيد.

• • •

«وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ وَإِلَّا أَنَّهُ
 تُرْجِعَ الْأُمُورُ ④ يَنْبَيِّهَا إِنَّ اللَّهَ حَقٌّ فَلَا
 تَغْرِيَكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغْرِيَنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ⑤
 إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُلُّ عُدُوٍّ فَاتَّخِذُوهُ عُدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ
 لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السُّبُرِ ⑥ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ
 شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُنْ مَغْفِرَةٌ
 وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ⑦ أَفَنْ زَرِّنَ لَهُ سُوْءَةٌ عَمِلَهُ فَرَأَاهُ حَتَّى
 فَإِنَّ اللَّهَ يُضْلِلُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذَهَّبْ
 نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسِيرٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ⑧ ۚ»

[معاني الكلمات والجمل]

: تصوير إليه سبحانه أمور الخلاائق كلها في الآخرة . ترجع الأمور

وَعْدُ اللَّهِ حَقٌ

: الْمَرَادُ أَنَّ الْبَعْثَ وَالْخَشْرَ وَالْحَسَابَ وَالْجَزَاءَ وَاقِعٌ
لَا شَكَ فِيهِ.

فَلَا تَغْرِيْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا : فَلَا تَخْدُعُنِّكُمُ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا مِنْ هُوَ وَمَنْعَمٌ عَنْ أَمْرِ
الْآخِرَةِ.

الغُرُورُ : الشَّيْطَانُ الْبَالِغُ الْمُكْرِرُ فِي الْخَدَاعِ وَالْأَحْتِيَالِ وَالْإِغْوَاءِ.
حَزْبُهُ : أَتَابَعُهُ ، وَالْمَرَادُ مِنْ اسْتِجَابَرَا لِغُرْوَةِ الشَّيْطَانِ
وَضَلَالِ اللَّهِ.

أَصْحَابُ السَّعِيرِ : الَّذِينَ جَعَلَ اللَّهُ مَصِيرَهُمْ جَهَنَّمَ الْمُلْتَهَى بِالنَّارِ
الشَّدِيدَةِ.

فَلَا تَنْذِهْ بِنَفْكَ : الْحَسْرَةُ : الْغَمُ عَلَى مَا فَاتَ وَانْفَضَسَ ، أَيْ فَلَا تَرْهَقْ
نَفْكَ يَا مُحَمَّدُ بِالنَّحْرِ عَلَى قَوْمَكَ لِإِصرَارِهِمْ عَلَى
الْكُفْرِ.

الإِبْصَاحُ

مَوْقِفُ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الرَّسُولِ وَاحِدٍ ، وَجَزَاؤُهُمُ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ :
تَوْجِهُ الْأَبَابُ الْكَرِيمَةُ بِالْخُطَابِ لِلرَّسُولِ - يَسْأَلُهُ - تَبَيَّنَ لَهُ عَلَى الْحَقِّ ، وَبِيَانِ
لِأَمْرِ أَوْلَيَاءِ الشَّيْطَانِ وَأَتَابَعُهُ عَلَى مِرْعِ الْعَصُورِ ، فَإِنْ كَانَ مُشْرِكُو مَكَّةَ قَدْ كَلَبُوكَ يَا
مُحَمَّدًا فَلَا يَبُونُكَ نَكْذِيْبُهُمْ ، فَقَدْ كَذَبَتِ الرَّسُولُ مِنْ قَبْلِكَ ، وَلَا قَوْمُهُمْ مَا
لَاقُوا مِنَ الصُّدُودِ وَالْإِيْذَاءِ ، فَإِنَّا عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ، وَإِنَّمَا أَمْرُ هُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَغَيْرِهِمْ
فَمُرْجِعُهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي يَوْمِ الْحِسابِ ، لِتَجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَبَّتْ.

ثُمَّ يَتَوَجَّهُ الْخُطَابُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى النَّاسِ جِيَعاً مُؤْكِداً لَهُمْ أَنَّ مَا جَاءُهُمْ مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ هُوَ الْحَقُّ ، وَإِنْ مَا يَعْرِضُ لَهُمْ فِي حَيَاةِ الدُّنْيَا مَا
يَرِيهُ هُوَ النَّفْسُ أَوْ انْحِرَافُ الْعُقْلِ أَوْ تَغْرِيْبُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِيَّتْهَا أَوْ وَسْوَةُ
الشَّيْطَانِ وَغَوَّابَتْهَا مَا هُوَ إِلَّا باطِلٌ لَا يَغْتَبِيْهُمْ عَنِ اللَّهِ شَيْئاً.

والشيطان الذي يزين لكم الشرك والغواية عدو لكم، وأخذ على نفسه
عهداً بإضللكم.

﴿ قَالَ فَيُعِزْنَكَ لَا يَغُرِّنُهُمْ بِهِمْ إِلَّا عِبَادُكَ مِنْهُمُ الظَّاهِرُونَ ﴾^(١)

فعلمكم أن تحدروه ولا تقادوا له، ولا تستجيبوا لوسوته، لأنّه يريد أن
يضلّكم، فتكونوا من أولئكه وأتباعه. فيودي بكم في مهاوي التهلكة ويفيدكم إلى
عذاب النار وبئس المصير جراء شرككم وكفركم لأن الشرك أقبح الذنوب جميعاً
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُتَرَكَ يَوْمَ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾^(٢)

اما أهل الإيمان والعمل الصالح فإن الله تعالى يسعهم في رحمته، فيغفر لهم
ما فرط منهم من ذنوب في حياتهم الدنيا حتى تابوا ورجعوا إليه تعالى ويشبعهم في
الدار الآخرة نعياً مقىها حاليين فيه فإذا ذرر لهم جراء لعائهم وعملهم الصالح في
الحياة الدنيا.

وأهل الشرك خندقون يتهون في وهم كاذب، إذ يرون ما هم فيه من ضلال
أمراً حتا، كي كان مشركي مكة ومن على شاكلتهم يتوهون أنهم على حق، وأن
ما يعلونه من عبادة للأحسان وموالاة للشيطان هو الصواب، نتيجة تزيين الشيطان
لهم، وطاعة أنفهم الأمارة بالسوء. فمهما اجتهدت في دعوتهم فلن ينتدروا إلى
طريق الرشد والسداد، لأن الأمر ليس بيده، وإنما الأمر في مجال المداية والضلال
في يد الله تعالى وحده فهو سبحانه العليم بما انطوت عليه نفوسهم، وبما سيصير
إليه أمرهم، بعد أن منحهم سبحانه حرية الاختيار وانعم عليهم بنعمة العقل
ونعمة إرسال الرسل.

(١) سورة ص / ٨٣، ٨٤.

(٢) سورة النساء الآية ٤٨.

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَبَرَّحَ سَحَابًا فَسَقَتْهُ إِلَى بَلْدَةٍ مَيْتَ
 فَأَحْيَيْنَا يَوْمَ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِنَا كَذَلِكَ الْشُورُ ⑩
 مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلَهُ الْعِزَّةُ جَهِنَّمُ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلْمُ
 الْطَّيْبُ وَالْمَعْلُ الصَّالِحُ يُرْفَعُ وَالظَّنَّ يُمْكَرُونَ
 الْسِّيَّئَاتِ هُنْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَنْ كَرِهَ أَوْلَاهُكَ هُوَ بَيْرُ ⑪
 وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا
 وَمَا تَحْيِلُّ مِنْ أَثْنَى وَلَا تَضُعُ إِلَّا يُعْلَمُهُ وَمَا يُعْرَمُ مِنْ
 مَعْرِرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ حُمْرَةً إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ
 عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ⑫

[معاني الكلمات والجمل]

أرسل الرياح : أوجدها وصرفها ووجهها إلى حيث يريد.

فثير محايا

: تعمل على تكثيف الحب وتحمّلها وحملها من

مكان إلى آخر.

: أرض محبة لازرع فيها.

بلد محب

: أي أوجدنا فيها الزرع والثمر والماء العذب مما يجعلها
صالحة للحياة.

أحياناً به الأرض

بعد موتها

: البعث من القبور للحساب والجزاء.

النشر

: الشرف والسيادة والكرامة.

العزّة

: أي فلنطلبها من الله تعالى لأنّه لا يملكها غيره
سبحانه.

فلله العزة جيّعا

يصعد الكلم الطيب

والعمل الصالح يرفعه

: الصعود الرفع : وهو هنا كناية عن القبول
والكلم الطيب الذكر والدعاء وغيرهما والعمل

الصالح يزيد الكلم الطيب قبولاً عند الله تعالى .

: يذيرون وينطعون للأعمال السيئة مثل تدبير الكفار

يعکرون البنات

خد النبى - ﷺ .

بيور

: يفسد ويبطل وهلك .

الإيضاح

كل مقادير الخلق تمري بمحنة الله تعالى وقدرته :

بعد أن بنت الآيات السابقة جزاء كل من الكافرين والمؤمنين في الحياة
الآخرة جاءت هذه الآيات الكريمة تضرب مثلاً محسوساً من واقع الحياة يدل على
إمكان البعث ووقعه وقدرة الله تعالى على إحياء المدى فهذه الرياح التي خلقها
الله تعالى وصرفها بقدرته تحمل بخار الماء المتتساعد في الجو وتكون منه بمحنة الله
تعالي قطعاً متراكمة من الحب ، ثم تسوق هذا الحب إلى حيث يريد الله
تعالي ، فيسقط المطر على الأرض الجرداء القاحلة الموات ، فتتبعت فيها الحياة

التمثلة في إيات النبات ونسوه وتعدد أنواعه والتوانه وثماره .
اليس من فعل ذلك بقادر على إحياء الموتى ؟
بل إنه على كل شيء قادر، فهو الذي بيداً الخلق ثم يعيده وهو أهون
عليه .

وعن أبي رزين العقيل قال : قلت يا رسول الله ، كيف يحيى الله الموتى ،
وما آية ذلك في خلقه ؟ قال : « أما مررت بوادي أهلك محلاً ثم مررت به يفتر
خضرا » قلت : نعم يا رسول الله قال : « فكذلك يحيى الله الموتى وتلك آيته في
خلقه »^(١) ثم تفاصي الآيات مبينة أن العزة كلها لله تعالى وحده فمن أراد العزة
فليطلبها في طاعة الله وعبادته لا في عبادة الأصنام والشركاء الذين يدعونهم آلهة
من دون الله شركاء له قال تعالى :

﴿ وَلَا يَحْدُو أَيْمَانُ دُونِ أَهْلِهِ إِلَّا هُمْ يَكُونُوا لَهُمْ عِزًا ⑥ ﴾
﴿ يَعْبَادُهُمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضَلَالًا ⑦ ﴾

فلا عز إلا في طاعة الله تعالى ، والله تعالى يقبل الكلام الطيب ، كالذكر
والدعاء والتصح الصادق وسلامة القرآن الكريم ، كما يقبل سبحانه الأعمال
الصالحة وهي الأعمال المخلصة ، ويثيب على القول والعمل ، أما الأعمال
والآقوال التي يشرها الرياء ، ومخالفتها عدم الإخلاص فإن الله تعالى لا يتقبلها ولا
يثيب عليها ، كما قال الله تعالى :

﴿ فَوَتَّلَ لِلْمُتَّصِلِينَ ① الَّذِينَ هُمْ عَنْ سَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ②
﴿ الَّذِينَ هُمْ يَرَأُونَ ③ ﴾

(١) تفسير القرطبي الجزء الرابع عشر ص ٣٦٧ طبعة دار الكتب .

(٢) سورة مرثيم آيات ٨١ ، ٨٢ .

(٣) سورة المائدة آيات ٦ ، ٥ ، ٤ .

وأولئك الذين يمكررون المكر السر بالإسلام والملائكة لهم عذاب شديد جزاء مكرهم، وحيث طويتهم، ومكرهم هذا ينكشف أمره ويظهر زيفه لأولى الصالات من المؤمنين، فإنه ما أسر أحد سريرة سرية إلا أخْلَهَا الله تعالى وكشفها بحيث تبدو في أي تصرف من تصرفاته وبمحاجزها عليها أشد الوان الحزن والموان في الدنيا والأخرة. ثم تسوق الآيات الكريمة دليلاً آخر على صحة البعث ووقوعه من ردِّ الإيمان نفسه وأطوار حياته، فقد خلق الله تعالى آدم آيا البشر من تراب، ثم جعل منه زوجه، وتواتي نسل الإنسان بعد ذلك ذكراً وأنثى من الطففة التي هي أصل الخلق، وتجلت قدرة الله تعالى في ذلك التوازن الدقيق بين أعداد الذكور وأعداد الإناث من بني الإنسان بحيث تبدو النسبة بينها متقاربة حفظاً للنوع، وتحقيقاً لاستمرار الحياة كما أرادها الله تعالى :

وبحرى أمر العمل والولاية بعلم الله تعالى وتدبره قال تعالى :

﴿ إِنَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهْبِطُ مِنْ بَيْنَ أَنْسَا
وَيَهْبِطُ لِمَنْ يَشَاءُ الْذُكُورَ ① أَوْ يَرِدُ وِجْهُمْ دُعْكَانًا وَإِنَّا رَبُّمْ جَنَّاتٍ
بَيْنَهُمْ عَقِيبًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ② ﴾

وكذلك الأمر بيد الله تعالى في طول عمر الإنسان وقصره فكل ذلك مسجل في اللوح المحفوظ عند الله تعالى ، فلا أحد يعلم على وجه اليقين والقطع كم عمر الإنسان بعد ما يولد ، فدورة الحياة والموت وطول العمر وقصره بيد الله تعالى ، حتى يتنظم العمران ، ويستمر حفظ التوازن على وجه الأرض وهذا التدبير المحكم والنظام البديع ، هين عمل الله تعالى :

﴿ مَا خَلَقْتُكُمْ وَلَا يَعْشُرُكُمْ إِلَّا كَنْتُمْ وَاحِدَةٍ ③ ﴾

وَمَا يَسْتَوِي الْبَعْرَانُ هَذَا عَذَابٌ
 فَرَأَتِ الْمَاءَ سَاعِدًا شَرَابَهُ وَهَذَا مَلْحٌ أَجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ نَاسٍ كُلُونَ
 لَهُمَا طَرِيقٌ وَتَسْتَخِرُ جُونَ حِلْبَةَ تُلْبِسُهَا وَتَرِي الْفُلْكَ
 فِيهِ مَوَاحِرٌ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ⑯
 يُولَجُ الظَّلَلُ فِي النَّهَارِ وَيُولَجُ النَّهَارَ فِي الظَّلَلِ وَسَخَرَ الشَّمْسُ
 وَالقَمَرُ كُلُّ يَجْرِي لِأَجْلِ مَسْئَى ذَلِكُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْعَلْكُ
 وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَعْلَمُونَ مِنْ قِطْمَبِيرٍ ⑰
 إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُونَ دُعَاهُكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا أَسْتَجَابُوا
 لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَنْكُفُرُونَ بِرِسْكُكُمْ وَلَا يُنْتَكُ مِثْلُ

خَبِيرٍ ⑱

[معاني الكلمات والجمل]

- | | |
|--------------------------------------|---|
| وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ | : فِي تَكْوِينِ كُلِّ مِنْهَا وَفِي مَنَافِعِ النَّاسِ مِنْهَا. |
| عَذْبُ فَرَاتِ | : حَلْوٌ شَدِيدٌ الْعَذْوَةُ يَذْهَبُ حَدَّةُ الْعَطْشِ. |
| سَانِعُ شَرَابِهِ | : سَهْلُ الشَّرْبِ لَخْلُوَةُ مِنَ الْمَلْوَحةِ الَّتِي تَعَافَهَا النَّفْسُ. |
| أَجَاجُ | : شَدِيدُ الْمَلْوَحةِ. |
| لَحْمُ طَرِيبَا | : لَحْمُ الصَّمَكِ وَالْأَحْيَاءِ الْبَحْرِيَّةِ الْأُخْرَى، وَهِيَ عَلَى
أَحْلِ اللَّهِ أَكْلَهُ. |
| حَلْيَةُ تَلْبِسُهَا | : هِيَ مَا يَسْتَخْرُجُ مِنَ الْبَحْرِ وَيَعْتَرِي الْمَاءَ مَا يَتَحَلَّ
بِهِ الْإِنْسَانُ مُثْلِلُ الْلَّوْلَوِ وَالْمَرْجَانِ. |
| نَرِيُ الْفَلَكُ فِيهِ مَوَارِخُ | : تَشَقُّ صَفَحَةُ الْمَاءِ فِي جِرَاهَا فِي الْإِنْجَاهَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ.
وَالْفَلَكُ يُطْلَقُ عَلَى الْمَقْرَدِ وَالْجَمْعِ وَالْمَرَادُ هُنَّ الْجَمْعُ. |
| لَبَتَهُوا مِنْ فَضْلِهِ | : لَتَحْصِلُوا الْمَنَافِعَ مِنَ التِّجَارَةِ الْمَحْمُولَةِ فِي الْفَلَكِ وَمَا
يَسْتَخْرُجُ مِنَ الْحَلْيَةِ، وَيَصْطَطَادُ مِنَ الْمَأْكُولاتِ. |
| بَوْلُعُ الظَّلَامِ فِي النَّهَارِ | : يَدْخُلُ وَقْتُ احْدِهِمَا فِي وَقْتِ الْآخَرِ بَأَنْ يَكُونُ الظَّلَامُ
مِنْ جَهَةِ وَالظَّيَاءِ مِنْ جَهَةِ اخْرَى. |
| وَبَوْلُعُ النَّهَارِ فِي الظَّلَامِ | : جَعَلَ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ تَحْرِي عَلَى نَظَامِ وَقَانُونِ دَقِيقٍ لَا
تَسْتَطِعُ خَالِفَتِهِ. |
| سَخْرُ | : لَذَّةُ دُورَتِهِ فِي مَدَارِهِ الَّذِي قَدَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ. |
| لِأَجْلِ مَسِ | : الْمَرَادُ الْأَحْسَانُ وَغَيْرُهَا مِنَ الشَّرَكَاءِ الَّذِينَ عَبْدُوهُمْ مِنْ |
| تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ | دُونَ اللَّهِ. |
| قَطْعَبِيرُ | : الْقَثْرَةُ الرَّقِيقَةُ الْبَيْضَاءُ الَّتِي تَكُونُ بَيْنَ الشَّمْرَةِ وَالثَّوَّا. |
| يَكْفُرُونَ بِشَرِكَكُمْ | : يَتَبَرُّمُونَ وَيَجْحُدُونَ إِشْرَاكَكُمْ إِيَّاهُمْ فِي الْعِبَادَةِ مَعَ اللَّهِ
تَعَالَى. |

الإيضاح

تقيم هذه الآيات الكريمة أدلة حسنة فاطحة الدلالة على وحدانية الله تعالى، وقدرته، وفبرده بالخلق وتدبير أمر هذه الكائنات في نظام حكم بديع. فهذا الماء من جنس واحد، ولكنه تعالى جعل منه الماء العذب الذي يشرب الإنسان والحيوان والثبات مع تجده ومتعدد دورانه لا تذهب عنبرته ولا صلاحيته وجعل منه الماء الملح الذي لا يصلح للشرب أو للري إلا بعد معالجته لفصل الملوحة عنه.

ومن الأنهار وبمجاري المياه العذبة والبحار المالحة يستخرج الإنسان الأسمك وغيرها من المأكولات البحرية الطازجة فتكون له غذاء نافعاً شهياً، كما يستخرج الإنسان اللالئ التي يتحلى بها من جوف هذا الماء برقة نقية محفوظة بقدرة الله تعالى. وهذه الأنهار والبحار شرائين متلازمان تغمر السفن عبادها فتصل أجزاء اليابسة بعضها ببعض، فتبسر للناس سبل التنقل والحركة وتبادل المنافع، لعلكم تعرفون حفرق هذه النعم التي تفضل الله تعالى بها عليكم فتقرونون بحق شكرها بتوحيد الله تعالى وعبادته وحده، وإداء حق الآخرين فيها من زكاة وصدقات.

وهذا مثل يضربه الله تعالى لبيان أن المؤمن والكافر لا يستويان وإن اشتركا في أصل الخليقة، وفي بعض الصفات الإنسانية مثل الشجاعة والكرم.

ومن هذه الأدلة الحسنة تبادل الليل والنهار جميع أنحاء الكرة الأرضية في حركة مستطردة لا تتغير يتساويان حيناً ويتفقسان أحدهما بمقدار ما يزيد الآخر أحياناً ومرجع ذلك إلى دوران الأرض حول محورها وحول الشمس في الوقت نفسه، وحركة الشمس والقمر والأرض مع الكواكب الأخرى التي نعلمها والتي قصر علمنا عن اكتشافها، تسير وفق نظام حكم لو اعتراه أدنى خلل هلكت المخلوقات التي تعيش على وجه الأرض، ولما أصبحت صالحة للحياة وفي هذه الآيات وما يجاورها دليل واضح على إعجاز القرآن الكريم الذي ساق هذه الحقائق العلمية قبل أن يكتشف الإنسان بعض مظاهرها بأكثر من ألف عام، والذي خلق ذلك كله وديره

واحکم صنعته هو الله وحده ، المستحق للعبادة ولا رب لكم سواه ، ألم اما تدعونهم
آلهة من دون الله من الاصنام وغيرها من اشركتهم في العبادة مع الله تعالى هؤلاء
لا يملكون من الامر شيئا ، فهم خلوقون مثلكم عاجزون .

* * *

* يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ
 وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ١٥ إِنْ يَشَاءْ يَذْهِبُكُمْ وَيَأْتِ
 بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٦ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ فِي ١٧ وَلَا تَرْدُ
 وَازِرَةٌ وِزْرَ اخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةً إِلَى حِلْبَاهَا لَا يُحْمَلُ
 مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ١٨ إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْرُجُونَ
 رَبِّهِمْ بِالْغَيْبِ وَاقْفَامُوا الْصَّلَاةَ وَمَنْ قَرْكَى فَإِنَّمَا يَقْرَكَى
 بِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْعِصِيرُ ١٩

[معاني الكلمات والجمل]

- | | |
|-------------------------|--|
| الحمد | : الحمد على كل حال. |
| يذهبكم | : يفتككم. |
| خلق جديد | : بآناس آخرين بدلاً منكم. |
| عزيز | : بأمر شاق أو ممتع. |
| ولا تردد وازرة وزر أخرى | : ولا تحمل نفس آئمة مذهبة إثم نفس أخرى. |
| مثقلة | : هي النفس التي أثقلتها الذنوب والأوزار. |

- الى حلها : الى تحمل اوزار وذنوب نفس اخرى .
 لا يحمل منه شيء : لا تقبل تحمل وزر غيرها ، لأنها مشغولة بحمل ذنبها .
- ولو كان ذا قرئ : اي لو كان المدعاو قريبا حتى لو كان ابا او ابا او زوجا
 اتها تدل : اتها يتقبل إدراك ويستجيب لدعوتك .
 تزكي : تطهر من الذنوب والمعاصي .

الإيضاح

القدرة المطلقة لله تعالى :

توجه الآيات الكريمة بالخطاب للناس جميعا ، لتبين لهم أن الله تعالى عالي عن عبادتهم ، وأنه تعالى لا تنفعه طاعة طائع ولا تضره سبحانه معصية عاص فالكل محتاج إليه في كل شيء وفي كل لحظة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّازِقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾

فهو سبحانه حين يرسل إليكم الرسول يدعونكم إلى حلاسه وعبادته إنما يفعل ذلك رحمة بكم في الدنيا والآخرة ، وإرشادا لكم لما فيه سعادتكم ونجاتكم .
 وهو القادر على أن يهلككم ويتأتى بأناس آخرين ، فامر الخلق والإلقاء بيده تعالى وحده فهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وأمره تعالى نافذ لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

وفي هذا تهديد للمشركين وبيان لعاقبة الكفر والعصيان وتحذير من التبادي في خالفة أمر الله تعالى .

(١) سورة الذاريات الآية ٥٨

(٢) سورة يس الآية ٨٣

مصير كل إنسان في الآخرة مرهون بعمله في الدنيا

و يوم القيمة يقيم الله تعالى ميزان الحق والعدل فتحاسب كل إنسان على عمله وما كتبه في حياته الدنيا من الطاعات أو المعاشي ، ويعرف كل إنسان جزاءه فلا يتحمل أحد وزر غيره ولو كان أقرب الناس إليه كما قال تعالى :

﴿ يَوْمَ يَغْرِيُ النَّاسَ إِنَّمَا يَغْرِيُ أُولَئِكَ مَنْ يَتَّبِعُ هُوَ وَمَنْ يَنْهَا فَلَا يُغْرِي أَمْرِيَّهُمْ يَوْمَ الْحِسَابِ إِنَّمَا يُغْرِي هُوَ وَمَنْ يَنْهَا ﴾

فإذا طلب إنسان من آخر في هذا اليوم أن يتحمل عنه بعض ذنبه فإنه سيبترا منه ، ولا يستجيب له ، لأنّه هو الآخر مهموم بما يحمل من ذنوب ، يطلب النجاة لنفسه من هول ذلك اليوم ثم تترجم الآيات الكريمة بعد ذلك بالحديث إلى الرسول - ص - تسلية له وتنبيهاً أمام عناد قومه وصدّهم عن دعوته مبينة أن التصح والإرشاد إنما يجدي لدى من يخشون الله تعالى ويخافون أهوال يوم القيمة من غير معاية منهم لما في ذلك اليوم ، لإيمانهم وتصديقهم بما جئت به عن ربكم فهؤلاء الذين تنفعهم دعوتك وموعظتك ، لأنّهم يتوذرون الصلاة ويفسدونها حق إقامتها فتطهر نفوسهم وتذكر وليس أولئك الذين طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون ولا يستجيبون لدعوة الله .

ثم تقرر الآيات الكريمة أن من يتطهّر من دنس الشرك والمعاصي فإن نفع ذلك يعود عليه ، وهي دعوة إلى الإقبال على الطاعة والعبادة لما فيها من نفع يسلك بصاحبه سبل النجاة في يوم الحساب .

وامر الخلق تلقى جميعاً عائداً إلى الله تعالى ، لتجزى كل نفس بما عملت إن خيراً فخير ، وإن شرًا فشر .

(١) سورة عبس الآيات من ٣٤ - ٣٧ .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَانُ
 وَالْبَصِيرُ ⑯ وَلَا الظُّلْمَاتُ وَلَا النُّورُ ⑰ وَلَا الظُّلْمُ
 وَلَا الْحَرُورُ ⑱ وَمَا يَسْتَوِي الْأَجْنَاءُ وَلَا الْأَمْنُ
 إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُنْعِجٍ مِّنْ
 فِي الْقُبُورِ ⑲ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ⑳ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ
 بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَمَنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَّ فِيهَا نَذِيرٌ ㉑
 وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَهُمْ
 رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالْأَزْبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْعُنْيَرِ ㉒
 ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ ㉓ ﴾

[معاني الكلمات والجمل]

الاعمى والبصير : المراد والله أعلم - بالاعمى : يقال الذي لم يتعرف
بالدعاة إلى الله ، وبالبصير الذي أبصر الحق
فامتدى وأمن .

ولا الظلام ولا النور : ولا الباطل ولا الحق .

ولا الظل ولا الحرور : ولا الجنة ولا النار .

وما ينتهي الأحياء : وما يستوي المؤمنون والكافرون .

ولا الاموات إن الله يسمع من يشاء : إن الله يهدي إلى الحق من أراد هدايته من شئت
تفوسهم لساعته .

وما أنت بسعك من في القبور : أي ما أنت ب تستطيع هداية من أصر على الكفر فهو
أشبه بالموت في قبورهم .

وإن من أمة لا خلا فيها نذير : ما من أهل عصر من العصور الماضية .

بالبيات وبالزير : إلا جاءهم من ينذرهم من الأنبياء والرسل .

وبالكتاب المثير : بالمعجزات واللحجج الدالة على صدق رسالتهم .

أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير : واحدها زبور وهو الكتاب مثل مصحف إبراهيم .

وبالكتاب الباقي الراسخة مثل التوراة والإنجيل .

عاقبت الكفار جزاء كفراهم .

فكيف كانت عاقبة إنكاري عليهم ما هم عليه من الكفر .

الإيضاح

أمثلة للمهتمين والشالين :

تعرض هذه الآيات الكريمة أمثلة محسومة للهدي والضلال في موادتها بين

أهل الإيمان وأهل الكفر بين الفارق الكبير بين هؤلاء وأولئك ، فلا يتساوى المعرض عن دين الله الذي عصى عن الحق . والمؤمن المصدق الذي أبصر طريق الرشد فاتبع دعوة الله واهتدى بنور الهدایة فانتفع بها جاء به الرسال ^{هـ} ما نزلت به الكتب الساوية ، كي لا تستوي الجنة ذات الطلال الوارفة المتعددة ، والنار المستعرة ذات الحرارة اللاصفحة ، فالكافر هو النار وهو يؤدي إليها والإيمان هو الجنة وهو يؤدي إليها . وتشبه الآيات الكريمة المؤمنين بالاحياء لأنهم يستمعون إلى الدعوة إلى الله ويستجيبون للداعي ، وتشبه المشركين بالأموات لأنهم صموا آذانهم عن سماع دعوة الحق منهم والمorts سواه .

وكما أنت يا محمد لا تسمع من في القبور من الموتى فكذلك لا تستطيع هداية هؤلاء لأنهم أمام دعوة الحق - هم والمorts سواه ، وما عليك إلا البلاغ والإذار والدعوة أما الهدایة والضلال فامرها بيد الله تعالى .

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْيَتْ وَلَكِنَّ أَهْمَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾^(١)

يوفق الله للهداية من أرادها ولا يوفق من أغرض عنها وابع هواه .

وقد أرسلناك بالدين الحق ، مبشرًا المؤمنين بالجنة ، ومنترا الكفار بالنار فما أنت إلا رسول ، وما عليك إلا البلاغ ، فللت مثولاً عن ضلال من صد عن دين الله ، وما من أمة سبقت إلا جاءهم تنفير من الرسال أو الآباء أو من دعوة الحق والهدایة ، فتلك سنة الله تعالى في خلقه ، وحكمته البالغة من إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة منه سبحانه وتعالى في أنه لم يتركهم دون أن بين لهم طريق المدى من طريق الضلال قال تعالى :

﴿ وَمَا كَلَّا مُعَذِّبِينَ حَقَّ نَبَتَ رَسُولاً ﴾^(٢)

(١) سورة القصص الآية ٦٥.

(٢) سورة الاسراء الآية ١٥.

تبنيت الله تعالى لرسوله - ﷺ :

وتحى ، الآيات الكريمة بعد ذلك ثبتت الرسول - ﷺ - على دعوته في مواجهة تكذيب قومه ، فقد سبق قومك أقوام كثيرون قد بوا رسالهم الذين جاءوهم بالأدلة الواضحة والمعجزات الظاهرة والكتب المترفة عليهم من السماء - مصحف إبراهيم والتوراة والإنجيل والزبور - الدالة على صحة رسالتهم وصدق دعوتهم فتكذبواهم وأعرضوا عن دعوتهم ، فعاقبهم الله تعالى لکفرهم وتکذبیهم فانظر كيف كانت عاقبة إنكاری عليهم ما هم فيه من ضلال وكفر؟ وكيف حل بهم عقاب بلاهلاکهم وقد عذبواهم؟

﴿ قَرِئُوكُمْ مِنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاسِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخْلَهُ الصِّبَحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَفَّتْ أَيْدِيهِ
الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِبَطْلِيَّهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسُهُمْ
بَطَّالِيُّونَ ⑭﴾ ^(١٦)

• • •

(١٦) سورة العنكبوت الآية ١٠

﴿ أَرَ

رَأَنَ اللَّهُ أَزَلَ مِنَ السَّمَاوَاتِ مَا كَانَتْ جَنَابَهُ تَحْرِنُ
 مُخْتَلِفًا الْوَنْهَى وَمِنَ الْجَبَالِ جَدَدْ بَيْضٌ وَحِرَاءٌ مُخْتَلِفٌ
 الْوَنْهَى وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِ
 وَالْأَنْعَمِ مُخْتَلِفُ الْوَنْهَى كَذِيلَكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ
 مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَائُوا إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ
 الَّذِينَ يَتَلَوَّنَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا
 رَزَقَنَهُمْ مِرْأً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ بَحْرَةَ لَنْ تَبُورَ ﴿٢٩﴾
 لِيَوْمِ فِيهِمْ أَجُورُهُمْ وَرِزْيَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ

شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

[معانى الكلمات والجمل]

ألم تر	: الم تعلم عن طريق الرؤية والمشاهدة.	ثغرات مختلفاًألوانها	: ثغرات متعددة الألوان.
ومن الجبال جدد	: ومن الجبال طرق وصخور مختلفة الألوان في تكوينها.	وغرائب سود	الدوااب
	: صخور متناهية في السود كالغراب.	إنها تخشى الله من	عبداته العلية
	: كل ما يدب على الأرض بالقوائم.	العلاء، لأنهم يدركون بديع صنعه في الكون	تجارة لن تبر
	: إنها يستشعر حقيقة الخوف والعظمة لله تعالى فيخافون عقابه ويخشون عذابه.	ليوفيهم أجورهم	شكور
	: تجارة كابة ليست عرضة للكسر والخسارة.	ـ	ـ
	: ليوفيهم ثواب أعمالهم.	ـ	ـ
	: يثبت عباده على الطاعة القليلة بالأجر الجزيل.	ـ	ـ

الإيضاح

دلائل القدرة الإلهية في مشاهد الكون والمخلوقات:

بعد أن بين الله تعالى اختلاف أحوال الناس، قرر أن الاختلاف أمر عام في كل مخلوقات الكون، فالثمار متعددة الألوان والأجسام، والجبال متعددة الألوان في الصخور والشعب، وكذلك الناس والدوااب والأنعام. كل هذه المخلوقات المشاهدة... تدع القلب مأخوذاً متأثراً بكمال قدرة الله تعالى وخلقه الأشياء المتعددة المختلفة في الشيء الواحد.

الاختلاف في المخلوقات من دلائل قدرة الله.
أيها المشاهد لم يبدع صنع الله في الكون... ألم تر الماء الذي أنزلناه من السماء

لما خرجنا بسببه من التجرات ثمرات مختلفات في الألوان والطعم والروائح والأصناف والحبثيات . . . فلا يوجد نوع من الشمار لونه يماثل لون نوع آخر، فعنها الأصفر الفاقع ، والأبيض الناصع ، والأحمر القاني ، والأخضر البهيج ، بل إن الشجر الواحد مختلف في درجات اللون الواحد .

وكذلك خلقنا الجبال تنوع صخورها وطرقها وشعابها، وتختلف في اللون الأبيض، أو تنوع صخورها وشعابها وتختلف في اللون الأحمر، وبعضها سود غرائب، حالكة السود . . في علو وضوخ هائلين . . تضليل أمامها قوة البشر

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَارُونَى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُوْيِهِ ﴾^(١)

والناس ألوانهم مختلفة كذلك، فكل فرد متغير اللون بين أفراد جنسه . . وكذلك الدواب والأنعام مختلف في ألوانها كالشمار والجبال، والحيوان . الواحد قد يكون فيه ألوان متعددة بل أحياناً يجمع بين درجات ألوان مختلفة ونستطيع أن نلمس هذا في أحدي حدائق الحيوان . . حين نجد البصر مبهوراً بجمال الألوان وتداخلها، والعقل مفتراً يتسع الخطرط ودقتها إنها صنعة الله . . ومن أحسن من الله صنعاً !!

الناس يتفاوتون في خشية الله :

ومثل ذلك . . اختلاف الناس في خشية الله تعالى ، وخوفهم من عقابه وتقديرهم لعظمته ، ويمتاز العلماء الذين يتذمرون آثار قدرة الله في القرن ، ويستشعرون بالعلم بدبيع صنعه . . بأنهم يخشون الله حق الخشية لأنهم أعرف الناس به وبقدره ، وهم أكثر من غيرهم إحساناً بجلاله وعظمته ، وأنه قادر على كل شيء ، فيبعدونه حق العبادة ، ويتغونه حق التقوى ، وتملكهم الرهبة من الله

القادر العظيم المبدع ويخشون عقابه.

فأعلم الناس بالله أشدهم خشية له، فالله سبحانه قادر على الإبداع في جمال الكون، وعزيز في ملكته، وعزيز في انتقامته من العاصين والمذنبين، وهو غفور للمنورين في خطيته، وهم يرون دقة صنعه وجمال إبداعه.

وفي الآية الحاخ على القلوب والعقول للنظر في عجيب صنع الله، ومحاجة ذلك إلى وقفة طريرة من التأمل... ترقى فيها العقول والأفهام بالنظر فيها لابد من الله في الكون وإلى التعمق في آثار قدرته... بالعلم والبحث، والكشف، والتجربة، ليؤدي العلم بذلك إلى العلم بعظمته جل جلاله... وب يؤدي العلم بعظمته الله إلى خطيته... ومن هنا... خص الله العلياء بالخشية... وأفردهم بالرهبة... فما أخرج الكون إلى العالم المسلم!! وما أخرج المسلم إلى العلم بالله وقدرته وخطيته!!

وأما الجاهلون... الذين خيم الجهل على قلوبهم وعقولهم، فلا تتحقق منهم الخشية، ولا يخافون العقاب.

وهذه الآية الكريمة تكملة لما سبقها في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْتَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ...﴾^{١٩٦}

لأنها تشير إلى بعض الناس الذين تستقر الخشية من الله في خاطرهم وقلوبهم
قراءة القرآن بين التأثير والرجاء:

وهذا نوع آخر من أفاليل الناس... تجمع لهم خصال من الخبر...
يعاملون بها مع ربيهم، ويدخلون ثوابها عنده، مع يقينهم من ريحها وعدم
كادها وبواهها: هؤلاء الذين يتاثرون بقراءة القرآن الكريم في أقوالهم، وفي
سلوكهم وأعمالهم، فهم قراء... عالمو... عاملون يقيمون الصلاة فرضها ونقلها،
في خطيئة وخشوع ويفقدون من فضل الله ورثقه سراً وعلانية، لا يقصدون من وراء

(١٩) سورة فاطر الآية ١٩٦

ذلك سعة أو رباء . . وإنما يستمرون عائد تواب أفعالهم ، ورجائهم في الله إلا
تبور تحجاتهم .

فَهُمْ يَتَعَامِلُونَ بِاَمِانِ اللَّهِ فَهُنَّ بِحَمْدِ اللَّهِ اُرْبَعٌ مُعَالَمَةٌ وَلَنْ يَعْصِيَهَا الْكَوَادُ
وَالْبُوَارُ، بَلْ هُنَّ الْكَبُّ وَالرُّواجُ، وَضَيَّانُ الرِّيحِ وَمُضَاعَفَةُ الْاَجْرِ فَاللَّهُ هُوَ الَّذِي
يُوَفِّيهِمْ ثَوَابَ اَعْمَالِهِمْ وَيُزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَكَرْمِهِ . . فَهُوَ سَبَّانُهُ الْغَفُورُ الَّذِي يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ وَالسَّيِّئَاتِ، الشَّكُورُ الَّذِي يُثِيبُ عَلَى الْعَمَلِ الْقَلِيلِ بِالثَّوَابِ الْكَثِيرِ
وَلِيَعْتَدُ مِنْ اَعْلَمِ الْآيَاتِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى :

﴿فَمَا أَلْدِنَ هَامُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَقَّيْمَ أَجُورَهُمْ وَرَزِّيْلُهُمْ مِنْ
لَئِنَّهُمْ بِهِمْ لَكَافِرٌ﴾

وإذا كان الله تعالى يشكر لعباده قليل الطاعات، ويمنع عليها جزيل
الثواب... أفلأ يستسني العبد من الله... فيشكره عل واخر النعم وكثير
العطایا؟!!!

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ
 الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدِيهِ إِنَّ اللَّهَ يُعَبَّادُ هُوَ خَيْرٌ
 يُصِيرُ ⑤ ثُمَّ أَوْرَثَنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَنَا مِنْ عِبَادِنَا
 فَنَهُمْ ظَالِمُونَ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُفْتَحَةٌ وَمِنْهُمْ سَايِقٌ
 يَا نَجِيرَاتٍ يَا ذِيَّنَ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْعَضْلُ الْكَبِيرُ ⑥
 جَنَّتُ عَدِنٍ يَدْخُلُونَهَا يُخْلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ
 وَلَؤْلَؤًا وَلِبَاسِهِمْ فِيهَا حَرِيرٌ ⑦ وَقَالُوا لَهُمْ اللَّهُ الَّذِي
 أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ⑧ الَّذِي
 أَحْلَنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَعْلَمُنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا
 يَعْلَمُنَا فِيهَا لُغُوبٌ ⑨

[معاني الكلمات والجمل]

- أوحينا إليك الكتاب : أنزلا عليك القرآن الكريم .
- مصدقا لما يعن بيديه : مصدقا لما سبقه من الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل .
- نُمْ أورثنا الكتاب : جعلنا القرآن الذي أوحينا إليك ميراثاً لأمتك .
- الذين اصطفينا من عبادنا : اختبرناهم وفضلناهم على سائر الأمم .
- فمنهم ظالم لنفسه : ظلم نفسه بالتجاهل في العمل بالقرآن ، وتقضيان التواب .
- ومنهم مقتضى : يعمل بالقرآن في معظم الأوقات ، معتمد في عمل الصالحات .
- ومنهم سابق بالخيرات : من الساقين إلى العلم بالقرآن وتعليمه للآخرين وإرشادهم إلى ما فيه .
- بِإذْنِ اللَّهِ : بتوفيق الله .
- ذلك هو الفضل الكبير : توريث القرآن لامة محمد ، واصطفاؤها بذلك على سائر الأمم .
- جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا : يدخل الدين لورثائهم الكتاب وأصطفياهم الجنات بفضل الله تعالى .
- يَرِيشُونَ فِيهَا : يزورون في الجنة .
- الْمَزَنْ : كل ما يقدر صفو الإنسان .
- أَحْلَنَا دارَ الْمَقَامَةَ : جعل الجنة الدائمة محلاً لنا ودار إقامة .
- تَعْبُ وَمَشْقَةٌ : تعب ومشقة .
- لَغُوبٌ وَفَتْوَرٌ : إحتباء وفتور .

الإيذاح

من خصوصيات القرآن الكريم :

لقد وعد الله الذين يتلون الكتاب ويتعلمون بها فيه أن يوفيهم ثوابهم، ويساعدهم لهم، لأن هذا الكتاب العظيم الذي أنزلناه عليك يا محمد هو الحق لا شك فيه، ولا ريب في صدقه: فالحق أنزلناه وبالحق نزل، ولقد أتي مبينا ما في الكتب الإلهية السابقة وجاء مصدقها لها، ومهما علينا، ومنضمنا لما في الزبور والشوراء والإنجيل، فهو أحق أن يتبع وأولى أن ي العمل بها فيه فالحق الواحد لا يتعدد، والله الذي أوحاه إليك يا محمد هو خالق الناس... . العليم بهم وبأحوالهم، الخير بما يصلح لهم ولعائهم ومعادهم البصير بهم... فلا تخفي عليه خافيته من شرورهم.

ورقة الكتاب :

لقد أوحينا إليك القرآن يا محمد، وأصطفيناك به على سائر الأنبياء، وجعلناه ميراثاً عظيماً في عبادنا المصطفين الذين أصطفنا لهم الدين، وأصطفينا لهم الرسول، وأصطفينا لهم الكتاب... فكانوا خيراً ملة أخرجت للناس... إها ملة محمد - ﷺ - بدءاً من الصحابة، ثم التابعين ومن بعدهم إلى يوم القيمة.

أصناف ورقة الكتاب :

فمن هؤلاء ظالم لنفسه بالتفسير في اتباع ما جاء في القرآن الكريم، فهو مقل في عمل الخير، مرتكب لبعض المحرمات، معرض نفسه لعقاب الله، متقص ل نفسه من الثواب، مقصري في بعض الواجبات، لقد زادت سباته على حناته، فله في الحساب موقف عظيم... فمن يرحمه بعد ذلك إلا الله؟! ومن يشمله بعقوبه وفضلة إلا الله؟!

ومنهم من اقتصر في العمل بكتاب الله، واعتذر في عمل الصالحات، وخلط بين الحسن والسيئ... فأقبل على فعل الخير في أغلب الأوقات، وتصر في

بعض الفترات ، ورقت منه بعض المقويات ، وارتكب بعض الزلات . . لكنه لم يفعل المحرمات ، وكانت حسنته تعادل سباته . . فحسابه يسير . وفضل الله عليه كبير.

ومنهم الساق الذي أحرز قصب السبق في العلم والعمل بما جاء في كتاب الله ، ويزغب في فعل الطاعات ، والإقبال على الخبرات : فعلم وعلّم الآخرين ، واهتدى وأرشد سواه وبإذن الله وتوفيقه اجتهد في العبادة وسبق في الخبرات فزادت حسنته على سباته ففتحتها وكفرتها فهو متقدم على غيره في دخول الجنة بغير حساب .

قال الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله -

- يقول قال الله تعالى :

« قُمْ أَوْرَقَنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ أَسْطَفَنَنَا مِنْ عِبَادِنَا فِي نَهْمٍ ظَالِمٌ لِّنَفِي
وَمِنْهُمْ مُفْتَحَةٌ وَمِنْهُمْ مَأْتِيَةٌ يَأْتِيَنَّا بِمَا دَعَنَا أَفَهُمْ
فَاما الذين سقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب وأما الذين اقتضى
فأولئك الذين يحاسبون حسابا يسيرا وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين
يعبسون في طول المحشر ، ثم هم الذين تلقاهم الله برحمته .

هؤلاء جميعا شملهم فضل الله العظيم . . فلقد أورثهم الكتاب الكريم ،
وفضليتهم على سائر الأمم ، وخصهم بحمل أشرف الرسالات ، وأفاض عليهم من
كرمه في الحساب والجزاء .

ما أعدد الله لهم :

ومن كرم الله عليهم جيدا أنه سيدخلهم جنات يقيمون في نعيمها إقامة
دائمة ينعمون فيها بتنوع النعيم ، مع اختلاف في الدرجات ، وتفاوت في الجنات
حسب التفاوت في الأعمال . . فنعم الله واسع لا ينفذ وحياته كثيرة فهناك جنة

الفردوس ، وجنة الخلد ، وجنة عدن ، وجنة السلام ، وغيرها كثير ومن النعيم الذي يفضل الله به عليهم في الجنة أنهم يزورون بأساور من ذهب مرصعة باللؤلؤ ، ولباسهم الحرير الذي كان سريراً عليهم في الدنيا .

وينعم الله عليهم كذلك بالرضا . . . ويعنهم الأمان ويفيض عليهم الطمأنينة ، وحيث لا يستطيعون أن يخفوا سعادتهم وينكروا فرحتهم . . . فيقولون عند دخولهم الجنة : الحمد لله الذي أذهب عننا الحزن ، وأراحنا من الهم والقلق الذي كان يساورنا من خيبة لله تعالى . ومن الإشراق من العذاب ، وسوء المصير ، وأحوال يوم القيمة . . .

﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فَتَاهُ مُشْفِقِينَ ⑤ قَنَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَرَوْقَنَ عَذَابَ السَّمَوَاتِ ⑥
إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِ نَدْعُوهُ إِمَرٌ هُوَ الْبَرُ الرَّحِيمُ ⑦ ﴾ .

فلقد غفر لنا ذنبينا ، وتجاوز عن سيئاتنا ، وتفضل علينا في حسابنا وحزانتنا ، وشكر لنا أعبائنا وتقبل قليل طاعتنا ، إنه واسع المغفرة ، عظيم الشكر والإنعم والإحسان .

فمن إنعماته وإحساناته أنه أنزلنا الجنات ، وأسكننا وأحلنا فيها ، لتكون لنا دار إقامة من فضله ، ومتزل نعيم وراحة من عطائه ، وموطن علود واستقرار من كرمه ، ويفيض علينا أكثر من ذلك . . . فلا يعذنا فيها عبرد الماس - تعب ولا مشقة ، ولا يعيذنا إعياء ولا فتور . . . فتحن في كرم الله تحيا ، وبفضل عطائه تعيش وتنعم ، فلا تعب يصيب الجسم ولا إعياء يتعلّك النفس .

(١) سورة الطور آية ٢٦، ٢٧، ٢٨ .

» وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارٌ جَهَنَّمَ
 لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمْوَلُوا وَلَا يُخْفَى عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا
 كَذَلِكَ تَحْزِي كُلَّ كَفُورٍ ⑤ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا
 أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَنْلَاحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نَعْمَلْ مِنْ
 مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَ كُلُّ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَ
 لِلظَّالِمِينَ مِنْ نِصْبِي ⑥ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَبِ الْمَلَوْنَ
 وَالْأَرْضَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑦ هُوَ الَّذِي
 جَعَلَ كُلَّ خَلْقِهِ فِي الْأَرْضِ قَنْ كَفَرَ فَلَيْهِ كَفَرٌ
 وَلَا يَرِيدُ الْكَافِرِينَ كُفُرُهُمْ عِنْ دِرِّيْمٍ إِلَّا مَقْتَلًا وَلَا
 يَرِيدُ الْكَافِرِينَ كُفُرُهُمْ إِلَّا خَارًا ⑧ ⑨

[معاني الكلمات والجمل]

- لَا يُقْسِسُ عَلَيْهِمْ : لا يحكم عليهم بالموت في جهنم ليترعوا العذاب.
- وَمِنْ يَصْطَرخُونَ فِيهَا : يستغثون من العذاب بالصرخات العالية، والصياح الشديد.
- أَوْ لَمْ نُعْطُكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ : ألم نعطيكم مدة من العمر كافية ليتذكر ويعتبر من كان متعداً للتذكر !!؟
- وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ : أرسلنا إليكم الرسول الذي ينذركم وبعذركم من عذاب الله.
- نَصِيرٌ : ناصر ينقذكم من العذاب.
- عَامٌ غَيْبُ السَّوَابِ وَالْأَرْضِ : أحاط علمه ما خفى من شئون السوابات والأرض.
- إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّورِ : عليم بما تخفيه النفوس والقلوب.
- جَعَلَكُمْ خَلَافَةً : جعلكم مختلفون من كان فلكم.
- مَقْتاً : أشد البغض، والبغض والاحتقار.
- خَارَا : هلاكا وخربانا للعمر الذي ضاع في الفساد.

الإيقاض

مصير الكافرين النار :

بعد أن ذكر الله تعالى أصناف المؤمنين ورتبة القرآن الكريم، وما أعدده الله لهم من السعد في دار الخلود، شرع في بيان أن الذين كفروا باله، وبما جاء في القرآن وكلدوا الرسول، لهم نار جهنم وعذابها، وسعير الجحيم وطيبةها، بصفة دائمة... ما كثين فيه أبدا... لا ينقطع عنهم، وهم يرون في حالم هذه أن الموت راحة لهم... وخلاص من عذابهم، فلا يحكم عليهم بالموت الذي يتمنون ليترعوا... ولا يخفف عنهم العذاب لحظة من الزمن... .

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَلِيلُونَ ﴾^{٦١} لَا يَقْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُلْسُونَ ﴿٦٢﴾

عذاب دائم، ولهب متعر.. لا سبل إلى الخلاص منه.. ويمثل هذا العذاب الشديد الفظيع نجزي كل كفور مبالغ في كفره، ووحده آيات ربه، وانكر وحداتي، وغلبت عليه شقوته بالعصيان.

صرخات الاستغاثة من أهل النار:
 وتصلرون عنهم الصرخات العالية، والاستغاثات المثولة، يضجعون بها صارخين، وينادون بها مستغيثين.. وبخارون بها ضارعين.. وربنا أخرجنا منها.. وخلصنا من عذابها.. وأعدنا إلى الدنيا.. وردنا إليها، لتطيع أمرك، وستجيب هديك، ونعمل صالحًا غير ما كنا نعمل قيل ذلك، ونفعل ما أتنا به الرسول ونجتب ما نهانا عنه.
 وفي كلامهم هذا حرة التداعمة، وأسى المذنب، واعتراف المنيء، وإقرار المجرم، وقد علم الله أئمهم لو ردوا إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه.

الزام الكافرين الحجة بطول العمر وإرسال الرسل:
 وبأبيهم الرد الخامس من قبل الله عز وجل.. يحمل لهم التائب القاسي، والتوبیخ المقذع.. ألم تنصير عليكم؟.. ألم نمهلكم؟ ألم نتعلل أعياركم؟ ألم نترككم في الدنيا عمراً مديدة، وزينا طويلاً، ووقتاً كافياً يتحقق فيه من الاعتبار والذكر.. من يريد التذكرة بالخلاص!! لقد فرطتم في هذا العمر بالفساد والعصيان والمحبود.. فلماذا تطلبون عمراً آخر؟ ولقد عثتم في الدنيا مدة من العمر تكفي للتبصر والتفكر.. والرجوع عن الغي والضلالة.. ولكن لم يحدث

(١) سورة الزخرف ٧٥-٧٦

منكم ذلك، لقد جاءكم الرسول يتذرّعكم عذاب الله... ومخوفكم سوء المصير، وعنه كتاباً ينطق بالحق، ومعجزاتنا تزيد صدقه... فلم تتعلموا عقلكم فيما يتف适用于كم، ولم تفكروا في مصيركم، ولم يحصل منكم إلا الإصرار على الكفر والعناد... وأن لكم أن تذوقوا عذاب كفركم وإعراضكم... فذوقوا اليوم عذاب جهنم ومصيرها ولظى النار ولطيفها... ولن تجدوا لكم أية الكافرون الظالمون ناصراً ينصركم، وخلصاً يخلصكم، ولا معيتاً ينقذكم مما أنتم فيه من عذاب الجحيم، فأنتم فيه خالدون.

علم الله الشامل الدقيق :

لقد علم الله تعالى أن رجوعكم إلى الدنيا لا يغير من كفركم وسوء أعمالكم، وعلم الله أنه لا ناصر لكم يدفع عنكم العذاب، وعلم الله ما انتطوت عليه نفوسكم وضمائركم، وما تكثّر قلوبكم من الإصرار على الكفر والضلالة... فعهيا طالت أمهاركم... لن تتغير أحوالكم... الله يعلم كل هذا، ويعطي به... وعلمه يشعل كل ما غاب في السموات والأرض... وما يخفى في الصدور من وساوس وهواجرس... فكيف لا يعلم بأحوال الكافرين... ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم... وبيان الكفر متسلك من قلوبهم.^{١٢} فالعداب الشنيع لهم في النار جزاء وفاقاً.

﴿وَلَا يَقْتَلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^{١٣}

وهذا العلم الشامل الدقيق يقضي الله تعالى في كل أمور ملكه ويدبر شئون حكمه إنه بكل شيء عالم.

نعم الله على الناس تستوجب منهم توحيده وطاعته:

لقد مكن الله لكم في الأرض، يجعلكم مختلفون غيركم من الذين سبقوكم... في عمارتها وسكنها... جيلاً يأتي بعد جيل... وقبضاً يأتيون بعد قوم... .

(١٢) سورة الكهف: ١٩.

بدولة تأي عقب دولة أخرى . . أحداث كثيرة تتغير وتعاقب . . ولن تغيرها وتعاقبها
عبرة وعظة ، وفرصة للرجوع إلى الحق ، والاعتبار بمحشر السابقين . . وإنما على
الله ، خالق الكون وواهب النعم . . التي منحها لكم لتمتعوا بها في حياتكم ،
ونشكروه على فضله عليكم ولكنكم جحدتم الفضل ، وأنكرتم النعم ، وتمرستم
بالكفر والطغيان . . فمن كفر بالله فعليه وحده يقع وبالكفر وعاقبة جرمك ، ووزر
عصاباته وتبعه طغياته . . ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا أشد أنواع المقت ،
والبغض والغصب والاحتقار ، والهلاك والضلال ، والخuran لعمر مرض في الكفر ،
وضاع في الطغيان ، وانتهى بالخuran من خير الدنيا والآخرة ، وجاء التكرار ليؤكد
أن البعض يلزمه الغصب . . وإن الخuran يلزم العذاب .

وفي الكلام هزة لقلوب الغافلين ، وتوجيه لأهل الزمان الحاضرين . . بأنهم
سيكونون غدا من الغافرين . . وجدير بهم أن يؤمنوا بالله الذي بيده الأعصار
والأجال ، والذي يصدى النعم والإحسان ، ويجعل الجيل يخلف الجيل . . ومن وراء
ذلك . . الفتاء والموت والحساب والجزاء والمآل والمصير .

﴿ هَذَا بَلْعَلَّ لِلنَّاسِ وَلَيُنَتَّرُوا يَوْمَهُ وَلَيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِنَّهُ وَرِحْدٌ وَلَيَدْعُ كُلَّ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ﴾

فَقُلْ أَرَأْيْتُمْ

شَرَكَاءَ كُلُّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُوفِي مَاذَا خَلَقُوا
 مِنَ الْأَرْضِ أَمْ هُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ هُنَّ اتَّبَاعُ
 كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بِيَنَتِيهِ بَلْ إِنَّ يَعْدُ الظَّالِمُونَ بِعِصْمِهِمْ
 بِعِصْمًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ * إِنَّ اللَّهَ يُكِبِّرُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ أَنْ تَرْوَلَا وَلَهُنْ زَالَتَا إِنْ أَمْتَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ
 مِنْ بَعْدِهِمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَاقْسِمُوا بِاللَّهِ جَهَدَ
 أَبْيَتُهُمْ لَهُنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيْكُونُ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى
 الْأَمْمَ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ أَتَتِجَارًا
 فِي الْأَرْضِ وَمَكَرَ السَّيِّئَةِ وَلَا يَحْقِيقُ الْمَكْرُ الَّتِي إِلَيْهِمْ
 فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سَنَّ أَلَاوَلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسْتَ اللَّهُ
 تَبَدِّيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسْتَ اللَّهُ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ *

[معاني الكلمات والجمل]

- أرأيتم شركاءكم : أخربوني عن شركائكم .
الذين تدعون من دون الله : الذين تعبدوهم من دون الله .
أروني ماذا خلقوا من الأرض : أخربوني أي جزء من الأرض انفردوا بخليقه .
أم أتيتهم كتابا : أم أنزلنا عليهم كتابا يحيى لهم الشرك بالله تعالى !!؟
أم لهم شرك في السموات : بل: لهم شركة مع الله في خلق السموات !!؟
فهُم على بيته منه : فهم على ثقة وبصيرة بما يدعون من الشرك والكفر !!
إن بعد الظالمون : ما بعد المشركون به بعضهم بعضا .
إلا غرورا : إلا باطلأ خذلأ مزخرفا يغري سامعه .
يمسّك السموات والأرض : يحفظها من أن تزولا، أو يصيّبها الخلل أو
أن تزولا السقوط على بعضها .
إن أمكّهَا من أحد : لا يمسكها أحد ، ولا يمتعها من الرزوال والسقوط .
من بعده سرى الله تعالى .
وأقسووا بالله جهد أبناءهم : حلف المشركون من قريش والعرب بالله بأقصى
طاقتهم ونهاية جهدهم ، قبل إرسال الرسول إليهم .
لئن جاءهم نذير : لئن جاءهم رسول منذر منهم .
أهدي من إحدى الأمم : أشد هداية من اليهود والنصارى وغيرهم .
تفورا : تبعادا عن الحق وفرارا منه .
استكبار في الأرض : استكبروا عن الإيمان بالله واتباع الرسول .
ومكر السبي : ومكروا المكر السبي كيدا للرسول ، وإيهام
لل المسلمين ، وصدأ عن الله .
ولا يحيط أو لا يتزد إلا بهم .
نهل يتظرون : فما يتظرون ؟

السنة الأولى : إلا عقوبة الله للأئم السابقة حين خالفوا أمره وكذبوا
رسله .

ولن نجد لسنة الله تبدلا : لا تبدل سنة الله، بل هي حسنة على كل مشرك
ومكذب .

ولن نجد لسنة الله تحويلا : ولا يحول الله العذاب إلى غير من يستحق .

الإيضاح

عجز الشركاء وإنكار استحقاقهم للعبادة :

تسوالي الاستلة في هذه الآيات الكريمة، ويأخذ بعضها بمحاجز بعض ،
لثبت عجز الشركين عن الإجابة ، وعجز عبوداتهم عن أي مظاهر
القدرة . . فبأي شيء يستحقون العبادة؟ وهل يصح أن يعبد العاجز؟! وتأتي هذه
الاستلة موجهة إلى الشركين على لسان الرسول - ﷺ - في توبخ وتقرير بثت
ضعف الآلهة المعبودة ، وعجز من يعبدونها عن إثبات استحقاقها لهذه العبادة
الباطلة . . وأن ما هم عليه ما هو إلا خداع وتغريير يتناقلونه في ظلام .

ماحقيقة هذه المعبودات المزعومة ، أخبروني بالدليل عن شأن آلهتكم الذين
عبدتموهם من دون الله ، وأشركتمهم معه في العبادة أي شيء في الأرض خلقوه؟ وأي
جزء على وجه المعمورة انفردوا باليجاده؟ وأي خلوق موجود على الكره الأرضية كانت
لهم قدرة على خلقه؟ أين آثار قدرتهم حتى يستحقوا ما زعمتم؟ إن كل شيء في
الوجود يهتف بأن الله وحده هو خالقه ومبدعه ، وأن الله وحده هو المستحق
للعبادة . . وهذه السمات وما فيها . . هل يزعم أحد أن له مشاركة - من قرب
أو بعيد في خلقها . . أو رفعها بغير عمد ، أو تزيينها بالكتواب؟ هل شاركوا الله في
إيجادها فاستحقوا بذلك مشاركته في العبادة والآلوهية؟ بل . . ربما يزعمون زعمها
آخر . . ويدعون أنهم يستعدون عقيدتهم وعبادتهم وشركهم من كتاب أزلناه
عليهم . . فهم واثقون منه وعلى بيته وحجه مما جاءه فيه . . فهل أتبناهم كتابا نحيز

هم فيه عبادة الأصنام والأوثان والشرك بالله؟ ما حدث ذلك أبداً.. ولا يمكن لهم أن يدعوه !!

لا هذا.. ولا ذاك .. وإنما السب الحقيقي في خلائهم وشركهم أن الفظالين المشركين وعد بعضهم بعضاً في خداع وتغريير بأن هذه العبادات تشفع لهم عند الله وهو وعد باطل وزيف خادع، وكلام مزحرف يغرس السامع .. وهذا الرزعم الرواهم .. صدر عن السلف للخلف، ومن الرؤساء للابياع، وكلهم خدعون مغرورون .. فما بعد الفظالون بعضهم بعضاً إلا غروراً !!

قدرة الله وحدها هي التي تحفظ السموات والأرض:

بعد أن بين الله تعالى عجز معبوداتهم وضعفها .. أثبت لنفسه عظيم القدرة وجلال الأسماء، ودلائل العظمة .. أما الشركاء فلا ذكر لهم .. ولا شيء لهم في السموات والأرض .. فالله وحده يقدرته، ويديمه حكمته .. هو الذي يحفظ السموات والأرض ويمنعها من السقوط والتزاول، والاهتزاز، والانهيار .. الله وحده يمنع اختلال نظام السموات والأرض وما فيها من خلائق عجيبة مع الكواكب والنجوم .. والأقلاع الدوارة .. محفوظان من أن تزولاً من الوجود.

ولمن فرض أنها زالتا عن مواضعها، واختلفتا عن أماكنها .. فيما يستطيع أحد إمساكها وحفظها إلا الله وحده، فليس يقدر على دوامها وبقائها على هذا الوضع إلا الله، فإنها قائمتان بقدرة الواحد القهار.

وبجانب مظاهر القدرة الإلهية الجبارية القاهرة .. تأتي مظاهر التحنان والحلم والغفران، لتجوّه الغافلين لاتهام الفرصة قبل فوات الأوان فآفة حلم يمهل المشركين، ولا يعالجهم بالعقوبة برغم استحقاقهم لها .. غفور واسع المغفرة لمن تاب وأمن ، واهتدى وعمل صالحاً.

عادة كفار قريش الكذب منها حلقوا من الإيمان:

أثبت الله سبحانه وتعالى كذب كفار قريش، ونقضهم لاييان قطعوها على

أنهم، ونكثهم لعهود ونقوها بالقسم بالله .
 وذلك . . أن قريشاً بلغها قبلبعث الرسول - ^{١٣} - أن طائفة من أهل الكتاب الذين يجاورونهم في جزيرة العرب كذبوا رسالهم ، وقتلوا بعض أئبيائهم ، وانحرفوا عن السلوك السوي الذي رسموه لهم . . فقالت قريش بعد علمهم بذلك :
 لعن الله اليهود والنصارى . . أنتهم رسالهم فكذبوا لهم فتو الله لشن آياتنا رسول لنكون أكثر هداية من اليهود والنصارى وغيرهم . . وأقسموا على ذلك - في جهد بالغ باشد الآيات وأبلغها وكان من عادتهم أن يخلفوا بآياتهم وأصنامهم . . فإذا أرادوا توثيق ما يحلفون عليه شددوا في آياتهم بالقسم بالله . . كان ذلك حالهم ، وتلك كانت آياتهم .

فأقسموا بالله دون أن يتركوا مجالاً للتشديد في القسم لشن جاءهم رسول منذر منهم ، ليكونن أحدى من جميع الأمم التي خلت من قبلهم ، فلما حقق الله أمرتهم . . وجاءهم محمد - ^{١٤} - نذيراً منهم ، ما زادهم ذلك . . إلا نفروا من الحق ، وتبعداً عن المهدى ، وانصرافاً عن الإيمان ، واستكباراً في الأرض ، ومكرراً بالرسول الذي كانوا يتمنونه وبين اتباعه مكرراً سيناً ، وذروا له المكيدة ، وسبل الإيذاء ، وانفعوا أنه لا عهد لهم ولا وفاء عندهم ، ولا يرُّ بقسم قطعوه على أنفسهم . . فثبت أنهم كاذبون ولكن عاقبة المكر والسُّوء لا تحبط إلا بأهله ، ولا تترى إلا على من ذبره ، ولا تصب إلا من قام به .

وَقَنْ تَكَفَّرْ قَاتِمَ بَنْكُتْ عَنْ نَقِيَّهِ^{١٥}

ومن حفر لأخيه جباراً . . وقع فيه متكتباً . فلا يحيق المكر السُّوء إلا بأهله ، . . وفي هذا تهديد لكل من يسلك هذا السلوك الخبيث . .

وَرَمَكُونَ وَيَمَكُونَ اللَّهُ أَكْبَرُ الْمُنْكِرِينَ^{١٦}

(١) سورة الفتح الآية ١٠

(٢) سورة الأنفال الآية ٣٠

وحاءهم التهديد تلو التهديد . . إذا كان أمرهم هكذا فماذا يتظرون؟ ما يتظرون هؤلاء إلا ما جرت به سنة الله فيما قبلهم وإنما فعله الله مع الأولين المكذبين لرسلهم ، وهو معروف لهم - إنه العذاب الشديد ينزل بهم كما نزل بمن سيفهم من الكفار . . ولابد أن يمضي قدر الله وسته في ذلك ، لا تبدل فيها . . بل هي حتمية لكل مشرك ومكذب . . ولا تبدل للعذاب بالرحمة ، ولا تحويل فيها . . فلا يستطيع أحد أن يحول عذابهم إلى أحد غيرهم .
 بذلك جرت سنة الله الثابتة على مر الزمان . .

فَلَنْ تَجِدَ لِتْتَ أَلَّهُ تَبَدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسْتَ أَلَّهُ تَحْوِيلًا ﴿٤﴾

فاعبروا يا أولى الأنصار

* * *

﴿أَوْلَمْ يَسِيرُوا

فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنْقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعِجزُهُ مِنْ شَيْءٍ
 فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلَيْهِمَا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾
 وَلَوْ يَؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهِيرَهَا مِنْ
 دَآبَةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجْلٍ مُّسَمٍ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ
 فَهَنَّ اللَّهُ كَانَ يُعَبَّادُهُ يُبَصِّرُهُ ﴿٤٥﴾

[معاني الكلمات والجمل]

أولم يسروا في الأرض : أولم يرتحلوا سافرين إلى أماكن في الأرض وبسروا على القرى التي أهلكناها، بسب اصرارهم على الكفر؟

فينظروا : فيروا آثار العذاب والدمار.
 عاقبة الذين من قبلهم : النهاية السينية للذين سقوهم بعد أن كذبوا رسليهم .
 وما كان الله ليعجزه من شيء : وما يصعب على قدر الله من شيء في الكون .

ولو يواحد الله الناس : ولو يجعل الله عقوبة الناس على ما اقترفوا من
بها كروا
الذنوب .

دابة : كل حي يدب على الأرض من إنسان أو غيره .
يؤخرهم إلى أجل مسمى : يمهلهم وينظرهم إلى وقت معين في علم الله يكون
فيه الحساب والجزاء .

فإذا جاء أجلهم : فإذا حل موعد موتهم ، أو يوم القيمة .

الإيضاح

دعوة للعظة والعبرة :

نعم ، هاتان الآيات الكريمتان عقب تأكيد الآيات السابقة أن سنته الله
تعالى ماضية ثابتة لا تتبدل ولا تتغير ، لكن تلفت الآية الأولى منها نظر المشركين
إلى جريان هذه السنة عليهم كما جرت على من سبقوهم من الأمم الذين كذبوا
رسولهم ، وأصرروا على كفرهم ، فنزل بهم عقاب الله تعالى إهلاكاً وخسفاً وتدبرياً ،
وقد كان كفار مكة يحررون بديار هؤلاء الأقوام السابقات في رحلاتهم إلى بلاد الشام
واليمن ، ويشاهدون آثارهم ، وما كانوا يتمتعون به من قوة في البناء والتعمير ، عالم
يبلغه كفار مكة ، ومع ذلك لم تتفهم هذه القوة حينما نزل بهم عقاب الله تعالى ،
وقد كان كفار مكة يستعجلون وعيده الله تعالى استهزاء وسخرية فيقولون .

﴿ أَتَهُمْ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ رِبِّكُمْ فَلَمْ يُطِّرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ أَتَيْنَا
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾^(١) .

فجاءت الآية الكريمة مؤكدة قدرة الله تعالى التي لا تخفى أمامها قدرة أحد
من خلقه في هذا الكون ساته وأرضه ، ولكنها تعالى علیم بما يتحقق أن تعجل

(١) سورة الانفال الآية ٣٢.

له العقوبة ومن ترجل عقوبته للدار الآخرة، وهو سبحانه القادر على الاتقام من
يشاء، وعلى توفيق من يريده إلى الإيمان والطاعة.

الله يمهل الناس برحمته وحلمه :
كان المشركون يستهزئون من الرعيل بالعذاب ويستعجلونه في سخرية
ويقولون :

﴿ أَتَلِمْ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ هَذِهِ فَلَمَّا طَرَّ عَلَيْنَا حَلَّةٌ مِّنَ النَّارِ أُولَئِنَّا
يَعْذَابُ الْيَمِينَ ﴾ ٤٦ .

فأراد الله سبحانه أن يبين لهم الباء في تأخير هلاكهم، ويكتف عن
حلمه ورحمته إلى جانب قوته وقدرته، فإنه لا يعاجل الناس بالعقوبة على ما اقترفوا
من كفران للنعمـة، وابتـاب للمعاصـي، وارتـكاب للجـرائم والمـآثم، وإصرـار على
القـلم والطـغيـان... بالرغم من شـناعة هـذه الذـنوب، وقـناعـة هـذه المعـاصـي...
فـلـقـد اـفـنـتـتـ حـكـمـةـ اللهـ أـنـ يـمـهـلـ النـاسـ عـنـ حـلـمـ وـرـحـمـةـ، فـلـوـ عـجـلـ لهمـ العـقوـبةـ
عـلـ مـاـ اـكـتـبـوـ، وـأـخـذـهـمـ بـكـلـ ذـنـوبـمـ، مـاـ تـرـكـ عـلـ ظـهـرـ الـأـرـضـ أـحـدـاـ يـدـبـ
عـلـهـاـ... إـنـسـانـاـ وـغـيرـ إـنـسـانـ، بـعـدـ أـنـ وـقـعـ مـنـهـمـ مـنـ الـجـرـامـ مـاـ يـدـمـرـ اللهـ بـهـ كـلـ مـاـ
هـوـ عـلـ هـذـهـ الـأـرـضـ مـنـ حـيـاةـ لـوـ أـخـذـهـمـ بـذـنـوبـمـ، وـعـجـلـ لهمـ فـيـ الـجـزـاءـ.
ولـكـنـهـ تـعـالـ رـحـيمـ، حـلـيمـ، غـفـرـانـ، حـلـمـ سـيـقـ غـضـبـ، وـغـفـرـانـهـ
سـيـقـ عـقـوبـةـ... فـلـاـ يـعـجـلـ لـلـنـاسـ عـقـوبـةـ... وـلـكـنـ يـرـثـهـمـ إـلـىـ وـقـتـ مـعـينـ،
وـيـنـظـرـهـمـ إـلـىـ يـوـمـ عـدـدـ سـيـقـ فـيـ عـمـلـهـ، وـيـمـهـلـهـمـ لـلـحـسابـ وـالـجـزـاءـ... إـلـىـ يـوـمـ
الـقـيـامـةـ.

قال صاحب الظلال: يؤخرهم أفراداً إلى أجلهم الفردي، حتى تنقضي
أعمارهم في الدنيا.. ويؤخرهم جنَا إلى أجلهم المحدد لغير هذا العالم وبعده.
الساعة الكبرى.. ويفتح لهم في الفرصة لعلهم يحسنون حسناً.
فإذا جاء هذا الأجل المضروب، وحل الموعد المحدد.. وحان وقت الحساب
والجزاء.. فإن الله تعالى ميجاري كلاً على قدر عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً
فشر، وفق عملهم وكسبهم بكل دقة، بعد أن وسعتهم رحمة، وشملتهم حلمه،
ومنحهم فرصة للإتابة.. ولا يظلم ربك أحداً فإن الله تعالى بصير بعباده.. بصير
بمن يستحق العقوبة، وبصير بمن يستوجب المثلوبة، فميجاري بالثواب أهل
الطاعة، وبالعقاب أهل الكفر والمعصية.

وفي الكلام تهديد ووعيد للمجرمين، ووعد بالكرامة للمتقين.. وإذا كان
الله تعالى حليم بعباده، رحيم بهم.. أفلًا يستحي العباد من ربهم، ويتوربوا إلى
رشدهم، ويعتبروا بغيرهم، ويرجعوا عن غي THEM، ويقهروا شياطئهم، ويقلعوا عن
جرائمهم، ويقبلوا على الله.. خالقهم.. ورارقهم؟؟ ليوحدوه، ويعبدوه،
ومحمدوه ويشكروه.

فاطر السموات والأرض جاحد الملائكة رحلاً.. حلوا إلى الأنبياء رسالة
السماء إلى الأرض، ليخرجوا بها الناس من الظلماً إلى النور، ويعروفهم
بخالقهم.. والنعم عليهم.. فإنه بصير بهم وبآحوالهم.. إن في ذلك لذكرى
لأولى الأنبياء.



سورة يس
مكية وأياتها ثلاثة وثلاثون
نزلت بعد سورة الجن

من سورة يس

تقديم :

الموضوعات الرئيسية في السورة الكريمة هي موضوعات السور المكية . .
وهدفها الأول ، بناء أسس العقيدة فهي تتعرض لطبيعة الوحي وصدق الرسالة منذ
افتتاحها ،

، بِسْ ① وَالْقُرْآنُ الْحَكِيمُ ① إِنَّكَ لَعَنَ الرُّسُلِينَ ①
عَلَىٰ صَرَاطٍ مُتَبَيِّنٍ ① تَنْذِيلَ الْعَزِيزِ الرَّجِيمِ ① .

ثم تتناول السورة الكريمة بعد ذلك قضية البعث والنشور ، وهي تتردد في مواضع
كثيرة منها ، فتحى ، من أوطاها ، إِنَّا نَخْرُجُ نَحْنُ الْمُرْسَلُونَ .
ثم يرد الاستدلال على البعث في اخرين . .

، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ③ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةً
وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ④ .

كما تحرى ، قضية الثواب والعقاب على الاعمال . . وَتَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا
وَمَا أَنْزَلُوهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَخْصَبَتْهُ فِي أَمْلَأِ مُبِينٍ ⑤ .

ويأتي الكلام على قصة أصحاب القرية إذ جاءها المسلمون . . وتحى ،
الفحة ، لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحى والرسالة ولتشير بعاقبة المكذبين
ومصيرهم .

كذلك تتعرض السورة لقضية الألوهية والوحدانية . . فيجيء استئثار الشرك ورفضه على لسان الرجل المؤمن الذي جاء من أقصى المدينة ليجادل قومه في شأن المسلمين ، ويكشف لهم عن صدقهم وأمانتهم .

**وَمَا لِي لَا أَبْعُدُ الَّذِي فَطَرَقَ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ⑦ ؟ أَنْ يَخْدُلُ مِنْ دُونِهِ إِلَهٌ
إِنْ يُرِدُنَ الْأَرْجُنْ بِضُرِّ لَا تُفْنِي شَفَاعَتُهُمْ ثُبُقاً وَلَا يُنْقَذُونَ ⑧ ٠**

والسورة تزخر بالأيات الكوبية الدالة على قدرة الله وعظمته ، وهي آيات كثيرة متعددة ، فهي لا تكتفي بالاستدلال على قضية البعث وإنما تتعرض للبعث وبعض مشاهد القيمة والحساب والصراط .

**ۚ أَتَيْوْمَ لَخْمٌ عَلَى أَفْرَادِهِمْ وَتَكَلَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَتَهَدَّ أَرْجُلُهُمْ إِنَّا كَانُوا
يَعْكِبُونَ ⑨ ۚ وَلَوْ أَتَاهُمْ لَمَسْنَاعَ عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَأَسْتَبِقُوا الْعِرَاقَ فَإِنْ
يَعْصُرُونَ ⑩ ۚ ٠**

ومن المشاهد الكوبية الموجبة ، مشهد الأرض المية تدب فيها الحياة . . .
ومشهد الليل يسلخ منه النهار فإذا هو خلام ، ومشهد الشمس تحري مستهدفة مستقرها ، ومشهد القمر يسير ويتنقل في منازله حتى يعود كالعرجون القديم ، ومنظر الفلك يحمل البشر ومنظور الأنعام مسخة للإنسان ، ومشهد خلق الإنسان من نطفة إلى أن يبصر كائنا قادرًا وهو خصم مبين ، ومشهد الشجر الأخضر تكمن فيه النار التي يوقن منها الإنسان . ووجه اتصال سورة «يس» بما قبلها ، أنه كان العرب يرون اليهود أهل الكتاب يحاورونهم في الحزيرية العربية ، وكان العرب يرون انحراف اليهود وسوء سلوكهم ، ويسمعون عن قتلهم رسليهم وإعراضهم عن الحق ، الذي جاء به الرسول ، وكان العرب يتذمرون فعل اليهود مع رسليهم ويقسمون بالله : لئن جاءهم نذير ليكونن أهداى من أحدى الأمم «يعنون اليهود»

ذلك كان حال العرب في جاهليتهم وما كان منهم بعد ذلك حينما حرقوا الله
أمينتهم ، وأرسل فيهم مهدا - ^{بِكَلَّا} - نذيرا إلا الاستكبار والكفر .

فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرًا مَا زَادُوهُ إِلَّا نُفُورًا .

ولما كان ختام سورة «فاطر» يحمل تكذيب المشركين لرسالة محمد - ^{بِكَلَّا} -
وإنكار أنه بعث نذيرا للناس كافة ، جاءت سورة «يس» بعدها لتحطم هذا
الإنكار ولتبثح حقيقة الرسالة ، وحقيقة الوحي عن طريق القسم

، يَسْ ① وَالْقُرْآنُ الْحَكِيمُ ① إِنَّكَ لَيَنْ ② الْمَرْتَلِينَ ② ..

وقد خاطب الله الرسول بهذا القسم ، ولم يخاطب المتكبرين المكذبين ترفا
بالقسم وبالرسول وبالرسالة من أن تكون موضوع جدل أو مناقضة .
ويجيء في ختام سورة «فاطر» ما يكشف عن حلم الله ورحمته إلى جانب قوته
وقدرته ، ويؤكد أن إمهال الناس عن حلم وعن رحمة ، لا يوثر في دقة الحساب ،
وعدل الجزاء في النهاية :

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ أَنَّاسَ إِنَّمَا كَوَافِرُ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهِيرَهَا مِنْ دَآيَةٍ وَلَكِنْ
يُؤْخِرُهُمْ مَا لَمْ أَجِلْ مَسْعِيٍ فَإِذَا جَاءَهُمْ فَهَانَ اللَّهُ كَانَ يُبَارِدُهُمْ يَصِيرُهُمْ ③ .

وبصره بعباده كفيل بتوفيقهم حسابهم وفق عملهم ، وكسبهم ، ولا تغوت
منهم ولا عليهم كبيرة ولا صغيرة ، وجاء في سورة «يس» أن من حق عليه القول
فلم يؤمن ، وواجهه هذا القرآن الذي جاء به الرسول بالإيكار والمحود ، استحق
من العذاب ما دلت عليه الآية :

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَغْنِيَهُمْ أَفْلَلًا فَهُمْ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمُرُونَ ④ .

وأن من أتبع القرآن وخشي الله بالغيب استحق التبشير بعد انتفاعه بالإذار
**إِنَّمَا تُنْهَىٰ مِنِ اتِّبَاعِ الْإِذْنِ وَخَشْيَ الْرَّحْنَ بِالْغَيْبِ فَيَقِيرُهُ
بِمَغْفِرَةِ رَأْمَنْ كَوِي ⑩**

ويتجلى حلم الله في أنه لا يعجل على الناس الحساب، ولكن يؤخرهم إلى
أجل مسمى، فإذا جاء أجلهم وانتهى وقت العمل والكب، وحان وقت
الحساب والجزاء، فإن الله لا يظلمهم شيئاً، ولا ينقص من حق المؤمن أجراً.
ومن هنا نجد التكامل والتلاحم بين ما جاء في ختام سورة «فاطر» وما جاء
في بداية سورة «يس» مما يحقق الترابط بينها ويفسر ملائكة ترتيبها. وما ورد في
فضل سورة «يس» قول الرسول - ﷺ - إن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن يس،
وeddت أنها في قلب كل إنسان من أمري . . .

وروى الحافظ أبو يعل عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -
«من قرأ يس في ليلته أصبح مغفوراً له»، أخرججه الحافظ الموصلي واستاده جيد
كذا قال ابن كثير.

بِسْ وَالْفُرْزَةَ إِنَّ الْحَكِيمَ ① إِنَّكَ لَمَنْ
 الْمُرْسَلِينَ ② عَلَىٰ صَرْطٍ مُّسْتَقِبٍ ③ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ
 الرَّحِيمِ ④ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَنذَرَهَا بِأَوْهُمْ فَهُمْ
 غَفِلُونَ ⑤ لَقَدْ حَقَ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ
 لَا يُؤْمِنُونَ ⑥ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فِيهِ مَا
 الْأَذْقَانُ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ⑦ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًا
 وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبَصِّرُونَ ⑧
 وَسَوَّا مَا عَلَيْهِمْ هَذِهِ رَهْبَانِيَّةٍ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑨
 إِنَّمَا تُنذِرُ مَنْ أَتَيَ الْذِكْرَ وَخَشِيَ الْرَّحْنَ بِالْغَيْبِ
 فَبِشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ⑩ إِنَّا نَحْنُ نُحْكِي الْعِوْنَى
 وَنَحْكُمُ مَا قَدَّمُوا وَمَا أَثْرَهُمْ وَمُكْلَ شَنِيٌّ وَأَخْصَبَتْهُ
 فِي إِيمَانِهِ مُبِينٍ ⑪

[معانى الكلمات والجمل]

- بس : تلفظ . . يا . . سين ، وهي من الحروف المقطعة في
أوائل بعض السور القرآنية الكريمة ، وهي حروف
هجائية للتحدي ، وإثبات إعجاز القرآن الكريم
«والله أعلم بعراوه».
- والقرآن الحكيم : قسم من الله تعالى بالقرآن المحكم الآيات .
- عل صراط مستقيم : عل طريق ونبع مستقيم . . وهو الإسلام .
- تنزيل العزيز الرحيم : القرآن الحكيم نزله عليك يا محمد رب العزة الرحيم
بعيادة .
- لتذر قوماً : هم كفار مكة المعاشرون للرسول - ﷺ .
- ما أنذر آباءهم : لم ينذر آباءهم رسول من فترة طويلة .
- فهُم غافلون : لأنهم أصابتهم الغفلة عن الصواب .
- حق القول عل أكثرهم : ثبت قدر الله على أكثرهم بالعذاب .
- فهم لا يؤمنون : سبق في علمنا أن أكثرهم لا يؤمنون بالله ولا
يصدقون رسوله .
- اغلالاً : قيوداً عظيمة تشد اليددين إلى العنق والمفرد منها غل .
- نهي إلى الأذقان : أياديهم مشدودة بالاغلال حتى التصقت بأذقانهم
ومفردها : ذقن .
- فهم مقمحون : رافعون رؤوسهم ، خافضون أبصارهم إلى موضع
أقدامهم . .
- بين أيديهم سداً : أمامهم .
فاجزأوا ومانعاً .
- فأشغشناهم وسواء عليهم : غطينا أبصارهم وبصائرهم عن رؤبة الحق والهدى .
يتشارى لديهم .

إنها تنذر من أتبع الذكر : إنما ينفع بإنذارك ويستفيد منه
 من آمن بالقرآن وعمل بما فيه .
 خشى الرحمن بالغيب : خشى الرحمن في سلوكه من غير رباء دون أن يراه .
 ونكتب ما قدموا : ونسجل ما أسلفوا في حياتهم من أعمال صالحة أو
 أعمال طالحة فاسدة .
 وأثارهم : ما يبقى بعد موتهم من أثر لاعياظم الحسنة والسيئة .
 في إمام مبين : في اللوح المحفوظ ، لأنه أصل الكتب وإمامها .

الإيضاح

قم من الله تعالى يؤكد صدق الرسالة والرسول :
 بهذه السورة الكريمة قم بحرفين مقطعين من أحرف الهجاء ، وقم
 بالقرآن المحكم الآيات . . . المؤلف من جنس هذين الحرفين . . . وهو استهلال يوحى
 التهجي وتكوين الكلمات ، ولعل فيه ما يجذب اسياع المعارضين المتعارضين ،
 ويطرق آذانهم بمعنطوق غير مألوف في تغاطيهم . . . فيشد الانتباه ، ويثير يقظة في
 الفكر والوحدان لقوع يلغوا الغاية في فصاحة اللسان ، وروعة البيان . . . فإنه قم
 بعظيم على صدق الرسالة والرسول والمقدّس هو الله جل جلاله .
 وما قالت قريش للرسول - ~~نَحْنُ~~ - لست مرسلًا . . . رد سبحانه عليهم
 بقبحين متاليين بالحرفين (يا . . . مين) ، وبالقرآن الحكيم . . . المكون من مثل هذه
 الحروف اليسرة لهم ، والمعجزة لهم ببلاغته وفصاحته وبيانه ، والمحكم في آياته
 وأحكامه وتنزيعته .

على أنك يا محمد رسول من المرسلين . . . الذين أرسلهم رب العالمين ، وأوحى
 إليهم بالشراطع السماوية هداية الخلق ، وتعريفهم بحالاتهم ، المنعم عليهم ،
 ليوحدوه ويشكريوه ويعبدوه ، وحين يقسم الله بالقرآن وحروفه على صدق الرسالة
 والرسول ففي ذلك تعظيم لشأنهما ، وتفخيم لأمرهما وإضفاء لخلال الله وعظمته

عليها، قاله لا يقسم إلا بأمر عظيم على كل شيء عظيم... ولذلك خاطب الرسول الكريم مباشرة، ولم يوجه الكلام إلى المنكريين المكذبين... فإن أمر الرسالة والرسول مؤكد، وليس موضع مناقشة أو جدل.

طبيعة الرسالة:

وبعد أن بين حقيقة الرسول وأقسم عليها... بين طبيعة الرسالة فقال: إنك أيها النبي من الذين اخترناهم لتبلغ رسالتنا للخلق، وإنك لساتر على الصراط المستقيم، والطريق الواضح، والحق المبين، والشريعة الهدية، والنهج القويم... والقرآن الحكيم الذي أنزله عليك العزيز الرحيم الذي رحم عباده بتنزيل القرآن هادياً لهم إلى التوحيد والهدى والرشاد، وفي الكلام إشارة واضحة إلى مكانة القرآن الكريم وإنه أجل نعمة من الله على عباده.

﴿أَرَعْنَٰٓ ۖ عَلِمَ ۖ الْقُرْءَانَ ۖ ۚ خَلَقَ ۖ الْإِنْسَنَ ۖ ۚ عَلَّمَهُ ۖ الْبَيَانَ ۖ ۚ﴾^(١)

نم بين الله أن الإنذار والتبيغ حكمة هذا التنزيل، فلقد أنزلنا عليك القرآن يا محمد لتتلذر قوماً من الكفار وتبلغهم دعوة الله إلى التوحيد، وتحذف مشركي قريش المعاصرين لك من عذاب الله، الذين لم يذر آباءهم الأقربون، على لسان رسول خاص بهم إنذاراً مباشرة، وبعد طول الفترة عليهم، دون أن ينذرهم متذير، ومن عهد رسولهم إسماعيل عليه السلام لم يأتهم... ولم يأت آباءهم متذير.

فهم لذلك غافلون أصحابهم الغفلة عن إدراك الصواب وتعطلت فلولهم عن النأثر وعقولهم عن التأمل والهدى، يتخبطون في متاهات الشرك، وظلمات عبادة الأوثان فالإنذار قد يردهم من غفلتهم، والإذار يقطع حجتهم حين يقولون: ما جاءنا نذير.

(١) سورة الرحمن الآيات من ١ - ٤.

لقد علم الله من أمرهم ، وبن في قدراته مصيرهم وفق ما أحاط به من شأن
فلوهم وعقوفهم ، ولقد قضى في حقهم . . ووجب العذاب لاكثرهم بعد علم الله
من حقيقتهم ، وإصرارهم على الكفر، فحافت عليهم كلمة العذاب الأليم ، لعدم
تأثيرهم بالإنداد . . فهم لذلك لا يؤمنون .

تصوير حال الغافلين الذين لا يؤمنون :

ثم يصور الله تعالى حاكميَّةَ جعلتهم لا يؤمنون . . فهم كالذين شدت
أيديهم بالقيود حتى التصقت بأذاقهم ، وحنت الأغلال أيديهم بعف وشدة إلى
أذاقهم فارتعدت من اثر ذلك رؤسهم فسرا ، وانخفضت أيديهم فلا
 يستطيعون ان يتظروا بها إلى الأمام وحبل بينهم وبين الحق بحاجز وسداً من
آمامهم ، وسد من خلفهم وقطعوا أيديهم عن رؤية المدى فاصبحوا لا يصررون
 شيئاً لأنهم عصرون بين سدين ، فلا يستطيعون النظر في العاقب المستقبلية
لأن الطريق أمامهم مسدود ولا يستطيعون التفكير في أحوال الاسم الماضية ، لأن
الطريق خلفهم مسدود ، فكانت النتيجة أن أعينهم أصبحت لا تبصر شيئاً ،
ويعقوفهم عن التأمل والتفكير كان عليها غثوة فهم لذلك لا يصررون ولا
يتصررون .

وقيل : إن ما جاء في الآية ليس تبيها وتصوراً لإعراضهم . . ولكنه
توضيف لحاكم يوم القيمة ، وهو يعلمهون . . مصداقاً لقوله تعالى :

﴿إِذَا الْأَغْلَلُ فَأَغْنِيْهِمْ وَالْكَنْدِلُ يُسْجِنُونَ ﴾ ٦٩) ٦٩)

قال صاحب الطلال : ومع عرف هذا الشهد الحسي وشدة فان الإنسان
ليلتقي بناس من هذا النوع يخجل إليه وهم لا يرون الحق الواضح ولا يدركونه .

(١) سورة خاتمة الآيات ٧٩، ٦٩

أن هناك حائلًا عبئاً كهذا بينهم وبينه، وأنه إذا لم تكن هذه الأغلال في الأيدي وإذا لم تكن الرؤوس مفعمة ومحيرة على الارتفاع، فإن نفوسهم وبصائرهم كذلك... مشدودة عن المدى وملفوته عن الحق لفتا، وبينها وبين دلائل الهدية سد من هنا، رسد من هناك وكذلك كان أولئك الذين واجهوا هذا القرآن بمثل ذلك الإنكار والجحود، وهو يتصدع بالحججة ويذليل بالبرهان، وهو بذلك حجة ذات سلطان لا يتهاشك لها إنسان.

ويروى عن محمد بن كعب القرظي قال:

لما اجتمعوا له (الرسول ليلة الهجرة) وفيهم أبو جهل بن هشام فقال لهم علي بن أبي طالب: إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه كتم ملوك العرب والعجم ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها.

وخرج عليهم رسول الله - ﷺ - فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: أنا أقول ذلك... أنت أحدهم، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونني، فجعل بشر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلألأ هذه الآيات من يس (يس - القرآن الحكيم) إلى (فَاغْتَبْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبَصِّرُونَ) ^(١) حتى فرغ رسول الله - ﷺ - من هؤلاء الآيات ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه التراب ثم انصرف إلى حيث يريد أن يذهب ^(٢).

نتيجة إنذار الناس:

لقد ختم الله على قلوبهم بالفاللة... بعد ما علمه من طبيعة عقرفهم وقلوبهم التي لا يغدو فيها الإنذار... ولا يمر إليها الإيمان فقد حيل بينهم وبين عوامل الهدى بسدة من الإصرار على العمى والطغيان والضلال، وهم لذلك...

(١) سورة يس ٩.

(٢) خنصر سيرة ابن هشام، محمد عفيف الزمر، عبد الحميد الأحباب.

يستوي عندهم إنذارك لهم يا محمد وتحويفك إياهم من عذاب الله وعدمهما، فلأرج
نفاث أيها النبي فإن إنذارك وعدمه مستويان . . . نتبيحهما عندهم واحدة . . . فهم
لا يؤمنون أبداً، فإن الإنذار لا يتوتر في القلوب الميتة . . . وفي هذا تسلية وترية عن
رسول الله - ^{صلوات الله عليه} - مع بيان حالتهم المتباعدة والتي لا تغيد القوارع والرواجر، فلا
تأثير على من عاش مطموراً في الغي والضلال.

وإذا كان الإنذار لا يتوتر في القلوب الميتة، ولا يستطيع أن يوجد لها، فإنه
يوقف القلب الحي المستعد لتلقى الإبهان، فإن الذي يستفيد من الإنذار هو الذي
اتبع القرآن الكريم، وأمن به . . . وعمل بما فيه، وهو الذي خشى الرحمن دون أن
يراه، أو خشى الرحمن في خلوته بعيداً عن أعين الناس، أو خشى الرحمن في كل
سلوكه وتصرفاته دون رباء، فهذا يستحق البشرة، وهو جدير بالتبشير، لأنه انتفع
بالإنذار فبشره بمغفرة من الله تعالى للذنب، وبشره بالأجر الكبير على خطيئه من
عقاب الله، واتباعه للذكر الذي أنزله الرحمن . . . فإن الخيبة إذا استقرت في القلب
تعها العمل بها أنزل الله . . . ومع العلم بها أنزل . . . ومع العمل برحة الرحمن،
تكون الخيبة من عذابه، وتكون البشرة بالمغفرة والأجر الكبير الواسع، الحسن
الجليل . . . وليس ذلك إلا في الجنة.

**﴿مَنْ خَيَّرَ الرَّحْنَ يَا لَقِبَ وَجَاءَ وَقَلَبَ مُبِينٍ ﴾^{١٣} أَدْخُلُوهَا إِلَّا مَنْ ذَلِكَ يَوْمُ
الْحُلُولِ ^{١٤} لَمْ يَأْتِهَا وَنَفِيَّا وَلَدِيَّا مَرِيَّةً ^{١٥}﴾**

الحديث عن البعث والنشور بعد الحديث عن الرسالة والرسول:
ثلاث حقائق تدور في تلك الحديث عن البعث والنشور والحساب . . . إن
الله يحيي الموتى ويبعثهم من قبورهم بعد موتهم للحساب . . . وقضية إحياء الموتى
أخذت من هذه السورة آيات كثيرة . . . ويعقب ذلك حقيقتان آخرتان للناس

(١) من الآيات ٣٣ - ٣٥ .

هـا: أنت تكتب كل ما أسلفوا من أعمالـ، وكلـ ما قدمـتـ أيديـهمـ منـ خـيرـ أوـ شـرـ،ـ وـكـلـ ماـ يـقـيـ بـعـدـ موـتـهـمـ مـنـ آثـارـ لـأـعـاهـمـ الـخـيـرـةـ والـبـيـنةـ .ـ وـكـلـ شـيـءـ جـمـعـنـاهـ وـاحـصـيـنـاهـ،ـ وـضـبـطـنـاهـ فـيـ عـلـمـنـاـ الـأـرـبـيـ الـقـدـيمـ .ـ وـهـوـ فـيـ كـتـابـ يـعـتـبرـ إـمامـاـ لـكـلـ الـكـتبـ .ـ وـهـوـ اللـوحـ الـمـحـفـوظـ .ـ لـكـونـ شـاهـداـ عـلـ مـاـ عـمـلـوهـ .ـ هـذـهـ هـيـ دـقـةـ الـخـابـ،ـ وـعـدـالـةـ الـجـزـاءـ،ـ

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ⑩ ﴾

(١) سورة يوسف الآية ٤٤

ۖ وَأَضْرِبْ لَهُم مَثَلًا أَخْبَرَ الْقَرِيْةَ إِذْ
 جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ۚ ۗ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ أَنْتِينِ فَكَذَّبُوهُمَا
 فَعَزَّزْنَا بَيْانَكَ قَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُرْسَلُونَ ۚ ۗ قَالُوا مَا أَنْتُمْ
 إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ ۖ إِنَّكُمْ إِلَّا
 تَكَذِّبُونَ ۚ ۗ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم مُرْسَلُونَ ۚ ۗ
 وَمَا عَلِمْنَا إِلَّا أَبْلَغْنَا إِلَيْنَاهُ ۚ ۗ قَالُوا إِنَّا نَطَّافِرْنَا يَكْرَهُ
 لَهُنْ لَمْ تَنْهَا الْفَرْجَنَكَ وَلَيَعْلَمْنَا مِنْ أَعْدَابِ الْيَمِّ ۚ ۗ
 قَالُوا طَهَّرْنَاكَ مَعْكَرَهُ أَنْ ذِكْرَنَمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ۚ ۗ
 وَجَاءَهُمْ مِنْ أَقْصَا الْمَدِيْنَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُومُ أَتَيْعُوا
 الْمُرْسَلِينَ ۚ ۗ أَتَيْعُوا مَنْ لَا يَسْتَكْرُهُ أَجْرًا وَهُمْ
 مُهْنَدُونَ ۚ ۗ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ

تَرْجِعُونَ ۝ أَتَنْهَا مِنْ دُولَةِ إِلَهٍ إِنْ بُرِدَنَ الْرَّحْنُ
 بُرْرٌ لَا تُغْنِي شَفَاعَتَهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقَذُونَ ۝
 إِنِّي إِذَا لَقِيَ ضَلَالاً مُّبِينًا ۝ إِنِّي إِذَا آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ
 فَأَسْمَعُونَ ۝ قَبْلَ أَدْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَنْلَيْتَ قَوْمِي
 يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّمَا غَفَرَ لِرَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكَرَّمِينَ ۝ ۴

[معاني الكلمات والجمل]

واصرب لهم مثلاً	اذكر يا محمد لقومك الذين كذبوك قصة هي غاية في
الغرابة حتى صارت مثلاً	ما أنتم إلا بشر مثلنا
أصحاب القرية	أهل القرية وسكانها، فهم اصحابها بـ طول
البلاغ المبين	إقامتهم فيها
إذ جاءها الرسلون	حين جاءهم الدين أرسلناهم هدايتهم.
ما أنتم إلا بشر مثلنا	لا تغسلوننا بشيء حتى تتميزوا علينا.
إذا تطربنا بكم	ما أنزل الله عليكم من شيء من الوحي.
لزجتكم	التبيغ الواضح
طازركم معكم	تشاء ما منكم، وتتوقع شرًا بعد رؤيتكم.
ألن ذكرتم	لرميكم بالحجارة حتى غوتوا.
	شومكم معكم ومن أنفسكم بسب كفركم.
	هل إن ذكرناكم بما فيه مصلحتكم تهددونا بالقتل.

مسرقون	: من حاوزون الحد في الطغيان والكفر.
وجاه رجل	: يقال إن اسمه حبيب، وكان نحارة، وكان يكتب إيماته.
من أقصى المدينة	: من أبعد مكان في المدينة.
يسعى	: يعدو ويسرع في مثبه حرضا على نصح قومه.
اتبعوا المرسلين	: اتبعوا الرسل الذين يدعونكم إلى توحيد الله تعالى.
لا يسألكم أجرًا	: لا يطلبون منكم أي مقابل على دعوتكم إلى الله.
وهم مهتدون	: وهم على هدى من دعوتهم إلى الله.
الذى فطرن	: الله الذي أوجدنى وخلقني بقدرته بعد العدم.
لا تغرن عني	: لا تدفع عني شرا، فهو مهمنة.
فاسمعون	: اسمعوا قولي واسهروا بيأمي.
خلال مين	: خسران واضح.
من المكرمين	: من الدين أكرمهم الله وكرّمهم بدخول الجنة.

الإيضاح

القصص في القرآن الكريم :

لقد طلب الله تعالى من نبيه محمد - ﷺ - أن يجعل قصة أصحاب القرية مثلاً لقومه، لأنهم انفقوا معهم في الكفر والإصرار على التكذيب.

ويحذير بما ونحن بصدده عرض قصة كما ذكرتها الآيات الكريمة .. أن نضع إشارات تلقي الضوء على القصص القرآني، وتوضح بعض معالمه. وحين تأخذ القصة أحداتها من واقع حركة الناس في الحياة تتضح أهدافها، فإن الأحداث المرتبطة بالأسباب والتتابع .. تنبئ الساعدين وتوتر فيهم .. وبخاصة إذا تخللتها مواطن العزة والنأس وكانت عن أخبار الأمم الماضية .. فيكون حب الاستطلاع من أقوى الدوافع على تبعها، ورسوخ عبرتها في القلوب.

وقد اشتمل القرآن الكريم على القصص الصادق، الذي يحكى كثيراً من وقائع الأمم الغامرة، وأحداث الماضي، والتوats السابقة، وذكر كثير من البلاد والديار والأماكن والآثار وتفصيل ذلك في صور ناطقة.

ويلاقى القصص في القرآن الكريم لشیت قلب رسول الله - ﷺ - وإيمانه، والتربية عنه، والإيضاح أسر الدعوة إلى الله، وتصديق الآباء السابقين وإحياء ذكرائهم، وتخليد آثارهم، وبيان أصول الشرائع التي بعث بها كلنبي، وإظهار حدق محمد - ﷺ - في دعوته بها أخباره عن أحوال الماضيين عبر القرون والأجيال وتقوية ثقة المؤمنين بنصر الله.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِ عِرْبَةٌ لَا زَلِيلٌ أَلَّا تَبْرُكَ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَنُ
وَلَكِنْ تَصْدِيقًا لِمَا يَرَى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلًا كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْقَوْمِ
يُؤْمِنُونَ ﴾ ⑩

تكرر القصة في القرآن الكريم لأمور من أهمها:

- * عرض القصة في صور مختلفة من التأخير والتقديم والإعجاز والإطناب.
- * إبراز المعنى الواحد من القصة في صور مختلفة بالبلاغة في أعلى مراتبها.
- * قوة الإعجاز في إبراز المعنى الواحد في صور متعددة للتحدي وإثبات عجز العرب عن الإثبات بعثته.
- * اختلاف العناية التي تلقى من أجلها حب مقتنيات الأحوال وتتنوع القصص في القرآن الكريم إلى قصص الآباء ودعوتهم، ومعجزاتهم و موقف الذين أرسلوا إليهم وعاقبة المؤمنين والكافرين منهم إلى قصص لأشخاص في أزمان غابرة كقصة أهل الكهف، وأصحاب الأخذود وإلى قصص تتعلق

بالحوادث في زمن رسول الله - ﷺ - كغزوة بدر وحنين والحجرة والإسراء وغيرها
ذلك .^(١)

القصة الترية لأصحاب القرية :

إن الذي حدث من أهل القرية في غاية الغرابة، حتى صار كالمثل السائِر،
والحدث العجيب . . . ويدرك المفروض أن اسمها «أنيطاكية» ولم يذكر القرآن
اسمها دلالة على أن ذلك لا يتوافر في فحواها والعبرة منها . . . ولقد أرسل الله تعالى
إلى أهلها رسولين يدعوانها إلى عبادة الله تعالى وتوحيده . - كما أرسل موسى وأخاه
هارون إن فرعون وقومه ، وقام الرسولان بإبلاغهم الدعوة وإذارهم وتقويفهم من
عذاب الله ، فأصرروا على الكفر، وكذبوا فيما جاءا به ، فقاوهما الله تعالى ، وشد
أزرهما وعززهما برسول ثالث ، ويؤكد أنه وصاحباه رسول من عند الله . . . وعلق قدر
عظم المشقة ، وجامة العناد وصلافة أهل القرية . . . كانت مهمة الرسول الثلاثة
محتملين . . .

وتقدم ثلاثة من أهل القرية وقالوا : إنا رسول الله إليكم ، ندعوكم إلى
عبادة الله وحده ، ونبذ عبادة الأوثان . وكرر أهل القرية ما كان يقوله المكذبون
للرسول السابقين ، فإنها شبّهات مكررة ، واعتراضات دأب على ترددها
المشركون . . . قالوا :

* ما أنت إلا بشر مثلك ، فلا مزية لكم علينا ولا تفضلونا بشيء . حتى تكونوا رسلا
إلينا . . . فلست رسلا . (وهذا ما قالته قريش للرسول - ﷺ -) (لت مرسلة)
ورد الله عليهم مقرا . (بَسْ ① وَالْفُرْزَةُ إِنَّ الْحَكِيمَ ② إِنَّكَ لَمَنْ
الْمُرْسَلِينَ ③)

* والرحمن لم يتزل عليكم شيئاً من الوحي . . . ولا خصكم بالرسالة . . . ولا أمركم
بتبيّن والدعوة إليه .

* إنكم تدعون أنكم مرسلون إلينا . . . وما أنت إلا كاذبون فيما تقولون وتنزعنون .

(١) راجع في ذلك مباحث في حنون القراءة للأساند مائع الخطاب

ولم ينسِ الرسُل . . . وحاولوا دون ملل أو كمل ، وكرروا دعوتهم للقوم مُؤكدين لهم رسُل الله ، وقالوا لهم : لَئِنْ كَانُوكُمْ بِئْلَى نَحْنُ حَادِقُونَ فِيهَا نَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ وَرَبِّنَا الَّذِي أَرْسَلَنَا إِلَيْكُمْ يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ، وَلَوْ كُنَّا نَكْذِبُ عَلَيْهِ لَا خَدَنَا بِذَلِكَ وَأَهْلَكْنَا ، وَأَنْتُمْ مَا أَشَدُ الانتِقامَ ، ومثل هذا الأسلوب يقع في كلام العرب ، وبخري محرى القسم . يقولون مُؤكدين الثقة في الحديث : يشهد الله أَنْ فَعَلْتَ كَذَّا ، وَيَعْلَمُ اللَّهُ أَنْ قَلْتَ كَذَّا .

واستمر الرسُل الثلاثة في عرض دعوتهم بالحكمة والمعونة الحسنة وذكروا ما أمرهم الله به وقالوا : وما علينا إلا أنْ تبلغكم رسالة ربنا وأصحة ، ويرشدكم بهذا التبليغ إلى ما فيه خيركم وسعادتكم ، فإنْ أطعتمونا فلهم السعادة في الدارين ، وإنْ أصررتم على التكذيب تحملتم عاقبة ذلك . . . «وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» . وفي هذا التبليغ المبين المزيد بالمعجزات والآيات الشاهدة على صدقهم وأنهم رسُل من عند الله . . . ما يقيم الحجة على أهل القرية وينذرهم ويتوعدهم . . إنْ خالقوا الرسُل وكذبوا وأصرروا على ذلك ، فهذا يطلبون منهم بعد ذلك حتى يصدقوهم ؟ لقد أدوا مهمتهم على خير وجه ، وذأبوا وصبروا في مناقشة القوم ، وليس بين الرسُل وبين الناس إلا التبليغ عن الله وقد قاموا به . . . ولها أهل القرية إلى حلف القول ، والغلظة في الحديث والعنف في الكلام . . . وضاق صدرهم وأعلنت لهم : إِنَّا شَاءْنَا بِكُمْ ، وَشَاءْنَا بِدُعُوكُمْ وَتَوْقُّعِ الشَّرِ فِيهَا تَقُولُونَ وَتَدْعُونَ وَإِنَّا بِهِنَاكُمْ وَنَذِرُكُمْ . . . لَئِنْ لَمْ تَتَنَعَّمُوا عَمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وَتَتَهَوَّوا عَنْ ذَلِكَ ، لَنَرْمِكُمْ بِالْحَجَارةِ وَلَنَرْجِكُمْ بِهَا حَتَّى تَقْتِلُكُمْ أَوْ لِيُصِيبَنَّكُمْ مِنْ عَذَابِ أَيْمَنْ شَدِيدٍ «وَهَذَا أَسْفَرُ الْبَاطِلَ عَنْ غَثْمَةِ ، وَأَطْلَقَ عَلَى الْهَدَاةِ تَهْدِيَةً ، وَبَعَثَ فِي وَجْهِ كَلْمَةِ الْحَقِّ الْمَادِثَةِ» .

ويُفضِّلُ الرسُل في دعوتهم لأهل القرية رغم ما أطلقوه من التهديدات . . . وقالت الرسُل : إنْ شُوئُكُمْ معكم وملازم لكم ، ومن داخل انفسكم ، وما تطوي عليه جوانحكم من كفر وعصيان وسوء عقيدة ، وفُساد وإصرار وعنف وطغيان .

إنا ندعوكم إلى الخير والصلاح، وإلى توحيد الله، فلا شرم منا، ولا من دعوتنا
قطائعكم معكم، وشومكم منكم وفيكم. أهددونا بالقتل وتتوعدوننا بالتعذيب
لأننا نعظكم ونذكركم بما فيه خيركم ومصلحتكم، وندعوكم إلى توحيد ربكم؟ بل
أنتم فرم من طبعتكم الإسراف في الظلم والتجاوز في العصيان والتعدي
بالطغيان، ومن هنا جاءكم الشرم ولا دخل لرسول الله فيه... فلا شائم
بالأشخاص ولا شائم من الكلام، ولا شائم من أي شيء لأن ذلك عراقة لا
تنقيم مع ما يجيء به رسول الله.

ومن مهمات الرسول أن يوضحوا أن الشائم عادة مردولة وخراقة جاهلية، وأن
الإنسان يحصل سعادته في نفسه، ونهائته من داخله، وأن ما يقوم به من خير أو شر
مرتبط بيته وعمله، ويتوقف على تصرفه، وإرادة الله بالعبد تنفذ من خلاله،
وتتعلق بعموله واتجاهاته، وفي استطاعة العبد أن يسعد نفسه بنفسه، وأن يشقها
بنفسه... .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّنَا ① وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّنَا ② ﴾

فلا مجال للشائم من: الأماكن، والأشخاص، والأرقام، فإن ذلك يدل
على سوء الصنيع وحقاف الخير من النفس، كما حديث من أهل القرية... وفي
ذلك ذكرى للذاكرين ۱۱

موقف الرجل المؤمن من أهل القرية:

وفي جو الجدل والتهديد والوعيد للرسول... جاء رجل من أبعد مكان في
المدينة يعود مسرعاً... قال المفسرون: إن اسمه (حبيب)... وكان يكتسم إيمانه،
وكان تجاراً أو صنعته في الحرير، ولكن القرآن قال عنه إنه رجل اجتمع له
صفات الرجلة، وقولة الحق، واستقامت فيه الفطرة، فانبرى للدفاع عن

الدعاة، بعدها رأى الصلال وانصاره والمحجود وأغوانه يتظارلون على رسول الله يغوا
وصلفاً وطفياناً... ولم يستمعه من مناصرة الحق أنه لم يكن ذا عزة من أهله، ووفرة
أو منعة في قومه... بل جاء يسير مسرعاً يبدل النصوح... ويتصدع بالحق... ومن
أبعد مكان في البلد... فإن الأمر يستحق تحمل المشقة...

قال متلطفاً مستميلاً لهم: يا قومي... يا أهل بلدي... انصحكم...
اتبعوا الرسلين... واستحببوا لدعوتهم... وكرر القول مرغباً لهم: اتبعوهם، لأنهم
لا يسألونكم أجرًا على دعوتكم إلى الحق، ولا يتغرون مغناً من وراء ذلك فهم
صادقون في دعوتهم، مخلصون في نصحكم، وهم على بصيرة وهداية مما يدعونكم
إليه من توحيد الله تعالى، وهم مهتدون إلى صراط العزيز الحميد... فإذا اتبعتوهم
اهتدتكم بهم.

وشعر أهل القرية أن الرجل يناصر الرسول وأنه آمن بهم... فرب غيطتهم
وتلطف في إرشادهم بكلام يشعرهم أنه يتصحّ نفسه، وأنه يختار لهم ما يريدونه
لنفسه هو، مع لوم ميلهم عن الحق، وتركهم عبادة خالقهم... وناشد قيهم
الفطرة السليمة: وما الذي يمنعني من عبادة الذي خلقني وأوجدني من العدم،
وأحسن صورتي وأبدع في خلقي؟!... «وما لي لا أعبد الذي فطرني؟»^{٢١}
نم أشعرهم بالخوف من الله تعالى... وأن إليه وحده مرجعهم في الآخرة
ليحاسبهم على أفعالهم فهو خالقهم كذلك وإليه يرجعون ومن حقه عليهم أن
يعبدوه وحده، وهذا نداء الفطرة السليمة في كل نفس داعية ولربها عارفة، ثم نهى
الرجل عن نفسه عبادة غير الله تعالى وقال في استفهام إنكارياً، المخد من دونه
آلة؟!... كيف يتم ذلك؟!

هل يليق لي أن أخذ من دون الله آلة لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تبصر
ولا تدفع عنى أذى، ولا ترد عنى ضرا، ولا تحجب لي خيراً؟ وإن أراد الله تعالى أن
يضرني، أو ينزل بي الأذى... وشفعت لي - على فرض أن لها شفاعة كيما يرجعونون -
لا تنفعني شفاعتها، ولا تغنى عنني شيئاً؟... فهير حقيقة مهينة، لا منزلة لها عند

الله... فكيف أعبدها، وهي لا تستطيع إنقاذي من عذاب الله؟ وهل يستطيع الحجر الأصم أن يدفع الآذى أو ينقد من الخطأ؟ عجباً! إنني إن فعلت ذلك وعبدت غير الله، والخليط من الامتنام آلة باهلة... إنني لفري خرمان، وأي خرمان؟ إنه خرمان واضح، وضلالة عن الحق مبين.

وبعد هذا المشاري العظيم الذي بذله الرجل في السعي إلى التصحيح بالكلمة الصادقة، والحججة المقنعة، والدليل المؤيق، أعلن إسلامه، وألقى كلية الإيمان، وأشهد عليها، غير هيبة ولا وجل... وأظهر عدم المبالغة بهم وتوجه بكلامه إلى الرسل الكرام وقال: إنني آمنت بربكم الذي أرسلكم فاسمعوني... وآشهدوا على إيماني... وآشهدوا بيائي عند الله تعالى.

والذي توحى به الآيات الكريمة أن أهل القرية لم يمهدوا الرجل المؤمن بعد أن أتم مقالته... فلقد وتبوا عليه وبنه رجل واحد فقط... وتعرض الآيات في صراحة ما ادخر الله لهذا الرجل المؤمن الشهيد من الكراهة والتكرير... فوجئت له الجنة قد دخلها. قيل له ادخل الجنة... بشرته الملائكة عند موته بأن روحه مع أرواح الشهداء في الجنة، فقال: يا بني قومي يعلمون... ولئن لو علم قومه بما بشر به، وأطلع عليه، وعابين ثوابه... فقد أتاهم الله المغفرة والكرامة في الجنة... ولقد كان الرجل الداعية نقي القلب رغم ما فعلوه به... وهذا هو شأن الدعوة إلى الله «اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون» ولو علموا لحملهم ذلك على اكتساب هذا الأجر والدخول إلى حظيرة الإيمان ومعرفة الحق والتسلك بالصراط المستقيم.

قال ابن عباس رضي الله عنه: نصح قومه في حياته بقوله (يا قوم اتبعوا المسلمين) وبعد مماته في قوله:

(قَالَ يَنْلَيْتَ قَوْمِيْ يَعْلَمُوْنَ ﴿٢﴾ إِمَا غَفَرْلِي رَبِّيْ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُنْزَمِيْنَ)

وكان هذا جزءاً من أمن بالله - أما الذين طغوا وأصرروا على الكفر وقتلوا الرجل المؤمن... فكان شأنيم أهون على الله من أن يرسل عليهم جنوده بالعذاب

الآليم . . وما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة أطلقها عليهم جبريل - عليه السلام . . أخذت أنفاسهم ، وأهلكتهم ، فإذا هم خامدون بلا حراك ، قال الله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْلَأْنَا عَلَى قَوْمٍ مِّنْ بَعْدِهِمْ مِّنْ جُنْدِنَا وَمَا كَانُوا مُتَّرِكِينَ ﴾^(١)
 إِنْ كَانَتْ إِلَّا صِيحةً وَحْدَةً فَإِذَا هُمْ خَيْدُونَ ﴾^(٢) .

وفي الآيتين استحقار لأخلاقهم ، وتصغير لشأن العطاء ، وتهوين لقدر الطالبين ، فما هي إلا صيحة واحدة تركتهم خامدين فاعتبروا بأول الآيات (والله أعلم) وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . .

* * *

تم بحمد الله

(١) سورة سس . ٢٩ - ٣٠

أودع بمركز المعلومات التربوية - تحت رقم ٤٨٥
 بتاريخ - ١٩٨٩/٥/٣

طبع في مطابع دار البيعة

الدراسة :

اسم الطالب :

السنة الدراسية :

الصف :